٨٧٩١ ص

الزمخشري

تحية إلى السيد الدكتور
الدكتور السلامة الأستاذ
أحمد عمار
تقديرا لفيدته على نفقة
أحمد ...

تأليف

الدكتور أحمد محمد الحوفي

أستاذ الأدب العربي
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

٩٢٤

جامعة القاهرة - كلية دار العلوم
المكتبة
رقم الكتاب: ٧٦ ٧٦

الطبعة الأولى

١٩٦٦

ملتزمة الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة لجنة البيان العربي
٢٧ شارع الدواوين بالقاهرة
ن ٧٩ ٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ... وبعد .

فإن الأمة العربية ما كادت تفيق من خورها حتى تلفتت إلى ماضيها المشرق ، فبصُرت به أعظم ماض تفاخر بمثله أمة ، ووجدت فيه أنفس تراث بخايل يشبهه خلف ، فأيقنت أنها لا تستطيع أن تبدل حاضرها ، ولا أن تحقق آمالها فى مستقبلها ، إلا بالتأسى بماضيها العظيم ، فجعلت تستحيى هذا الماضى ، وتبتعث مفاخره ، وتجلّى عظمته ، وتدرُس أبطالها وعظماءها وعلماءها وأدباءها ومفكريها دراسة واعية موحية .

ولأمر ما نعدُّ من العرب أعلاما من أعصار شتى ، ومواطن متباعدة ، وثقافات متعددة ، لأنهم جميعاً عرب ، امتزجوا بالعروبة دينا ولغة وثقافة وإنتاجا وتاريخا وحضارة ، حتى إن كثيراً منهم ينتمون إلى أصول غير عربية ، ولكنهم نسوها أو ذكروها على أنها أطياف من ماض سحيق ، لطول العهد بينها وبينهم ، ولسلطان العروبة الغلاب على بيئاتهم ، إذ كانت العربية ينبوع الشريعة ، ولغة الثقافة أحقاباً متوالية ، لا تنازعها لغة من لغات الأمم التى نشر العرب عليها ظلالهم .

بهذا التصور كتبت عن الطبرى من قبل ، وبالتصور نفسه أكتب عن الزمخشرى اليوم .

ومن حق الزمخشرى أن يخص بدراسة مفصلة متكاملة تكشف عن

عصره وحياته وأساتذته وتلاميذه ومؤلفاته ، وتفوقه وابتداعه ، فقد كان فى الصدارة بين علماء عصره ، وكان إماما فى أفانين من المعرفة ، وخلف فى كل منها آثاراً بقى منها كثير ، واحتجب منها كثير ، ولعله يسفر بعد طوال احتجاب ، وإن مابقى من آثاره لكفيل بتقديره ، والتنويه به ، والاحتفاء بذكراه .

وقد رجعت إلى ما كتبه القدماء عنه ، وقرأت مؤلفاته مطبوعة ومخطوطة ، لأستنبط منها أحداث حياته ، ومعالم شخصيته ، وخصائصه الفكرية والفنية ، ومثلت بنماذج من كتبه لتكون كالإشارة التى تدل على معالم الطريق الطويل .

ولست أنسى أن أنوه بالدراسة التى قام بها الدكتور مصطفى الجوينى فى كتابه (منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن) وبالفصل الذى كتبه الدكتور شوقى ضيف عن الزمخشرى فى كتابه (البلاغة تاريخ وتطور) .

وإنى لأرجو أن يمنح الله دراستى هذه من السداد والتوفيق ما يجعلها جديرة بما قصد منها وأريدت له ؟

أحمد محمد الحوفى

القاهرة فى | المحرم ١٣٨٦
| ابريل ١٩٦٦

تمهيد بيئة

(١) خوارزم

هنالك على ضفتى نهر جيحون فى آسيا الوسطى كانت ولايات خمس هى الصُّغد وعاصمتاها بخارى وسمرقند ، وفى غربى الصغد خوارزم التى تسمى اليوم خيوه أو كيوه ، وصغانيان ، وفرغانة ، والشاش للسماة الآن طشقند .

وقد فتح العرب الإقليم سنة ٩٣ هـ (٧١٢م) بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلى[١] .

ولم يلبث هذا الإقليم بعد الفتح أن صار مركزا من مراكز الثقافة العربية والإسلامية ، ومشرقا لكثير من كبار العلماء كالزمخشرى والرازى والسكاكى والمطرزى .

وحسبنا من وصف خوارزم وما جاورها أن نذكر ما قاله ثلاثة من الرحالة شاهدوها بأعينهم وأقاموا بها زمنا .

فالمقدسى رحل إلى إقليم المشرق — وكانت تُطلَق هذه التسمية على إقليم خراسان وما وراء النهر — فى عهد الدولة السامانية التى حكمت من ٢٦١ إلى ٣٨٩ هـ (٨٧٤ — ٩٩٨ م) فوصفه بقوله : « إنه أجل الأقاليم ، وأكثرها أجلة وعلماء ، وهو معدن الخير ، ومستقر العلم ، وركن الإسلام المحكم ، وحصنه الأعظم ، ملكه خير الملوك ، وجنده خير الجنود ، فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك . وقد قال محمد بن عبد الله لدعاته : « عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٨/٨٣ .

ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومنا كب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب ، وأصوات هائلة ولغات فخمة »... وأهل خراسان أشد الناس تفقها ، وبالحق تمسكا ، وهم بالخير والشر أعلم ، وإلى إقليم العرب ورسومهم أقرب ، وإقليمهم أكثر أجلة وعقلاء ، مع العلم الكثير ، والحفظ العجيب ، والمال المديد ، والرأى الرشيد ، به مَرْو التى قامت بها الدنيا ، وبَلْخ وإليها المنتهى ، ونيسابور فلا تنسى .

وهو أكثر الأقاليم علما وفقها ، وبه يهود كثيرة ، ونصارى قليلة ، وأولاد على رضى الله عنه فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشميا إلا غريبا ، ومذاهبهم مستقيمة ، غير أن الخوارج بسجستان ونواحى هَراة كثيرة ، والمعتزلة بنيسابور ظهور بلا غلبة ، وللشيعة والكرامية بها جَلَبة ، والغلبة فى الإقليم لأصحاب أبى حنيفة إلا فى كُورة الشَّاش وطُوس ونَسا وأبيوَرْد فإنهم شفعوية (شافعية) ولهم جلبة بهراة وسِجِسْتان وشَرَخْس .

ورسومهم تخالف رسوم أقاليم العرب فى أكثر الأشياء ، فالمؤذنين سرير قدام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان ، ويذكّرون بلا دفاتر — من غير كتبه يقرءون فيها — وبنيسابور رسوم حسنة ، منها مجالس المظالم فى كل يوم أحد وأربعاء بحضرة صاحب الجيش أو وزيره ... وألسنتهم مختلفة ، أما لسان نيسابور فقصيح مفهوم ، غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ، وفيه رخاوة ، وأهل طوس ونَسا أحسن لسانا ... وبهذا الإقليم عصبيات بين الشيعة والكرّامية وبين الشافعية والحنفية ، وقد يهراق فى هذه العصبيات الدماء ، ويدخل بينهم السلطان .. ولهم مجالس عشيات جُمَع شهر رمضان للمناظرة بين يدى السلطان ، فيبدأ هو فيسأل مسألة ثم يتكلمون عنها ... إلى أن يقول : وأقل إمام فى الفقه والأدب والقرآن لقيته له تلميذ خوارزمى قد تقدم ونفذ فى فنه واستقام »[1] .

(١) أحسن التقاسيم ٢٨٤ وما بعدها .

والذى يسترعى النظر من هذا الوصف :

١ — كثرة العلماء ، وتقدير الحكام لهم .

٢ — الكلف بالحفظ .

٣ — إجلال آل على بن أبى طالب ، وكثرة الشيعة .

٤ — كثرة المعتزلة بنيسابور خاصة .

٥ — العصبية بين الشيعة والكرّامية ، وبين الشافعية والحنفية .

٦ — الكلف بالمناظرات .

وجاء فى وصف ياقوت لإقليم خوارزم أنه موفور الخيرات ، كثير الثمرات ، جميل المناظر ، وقال إن أهله كرام الأخلاق ، وإن لم يكونوا من ذوى الظرف والكياسة . وزار ياقوت عاصمة خوارزم (الجرجانية) سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) فوصفها بأنه لم ير مدينة أعظم منها ولا أكثر أموالا ولا أحسن أحوالا[1] . ويقول فى موضع آخر إنه زار إقليم خوارزم سنة ٦١٦ هـ فلم ير ولاية أعمر منه ، فإنه — على رداءة أرضه وكثرة سبخها ونزوزها — متصل العمارة ، متقارب القرى ، كثير البيوت المفردة والقصور فى صحاريها ، وقلما يقع النظر فى رساتيقه — ضياعه ومزارعه — على موضع لا عمران منه ، هذا إلى كثرة الأشجار والخيرات . وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين ، ويندر أن تكون قرية بغير سوق ، والأمن هناك شامل والطمأنينة تامة[2] .

ووصفها ابن بَطُّوطة بعد عصر الزمخشرى — فى رحلته التى بدأها من المغرب إلى المشرق سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٤ م) واستغرقت ٢٧ عاما — بقوله « لم أر فى بلاد

(١) معجم البلدان ٢/٧٩ .

(٢) معجم البلدان ٣/٤٧٤ .

الدنيا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوسا ، ولا أحب فى الغرباء . ولهم عادة جميلة فى الصلاة لم أرها لغيرهم ، وهى أن المؤذنين فى مساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة ، فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة ، وفى كل مسجد درقة معلقة برسم ذلك ، ويغرم خمسة دنانير تنفق فى مصالح المسجد ، أو لإطعام الفقراء والمساكين ، ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة من قديم الزمان[1] » .

ومن البديهى أن وصف ابن بطوطة — وإن كان بعد عصر الزمخشرى — ينبىء عن أخلاق أصيلة قديمة العهد ، لأن السجايا الحميدة لا تكتسب سريعا بعد تجرد وخلاء ، ولأنه يذكر أن عادتهم فى ضرب المتخلف عن صلاة الجماعة قديمة منذ زمان بعيد .

وفى إقليم خوارزم عدة مدن ، منها الجرجانية وزمخشر وخوارزم ، وزمخشر إحدى قرى خوارزم القريبة منها ، ويظهر أن كلا منهما امتدت فتداخلتا ، لأن القفطى يقول : سمعت بعض التجار يقول إنها قد دخلت فى جملة المدينة ، وإن العمارة لما كثرت وصلت إليها وشملتها ، فصارت من جملة محالها[2] .

وإلى زمخشر هذه نسب جار الله محمود بن عمر ، فقيل الزمخشرى ، وهذه النسبة حين تذكر لا تنصرف إلا إليه .

والبرد شديد جدا هناك ، حتى إن الثلج كثيرا ما يؤثر فى الأطراف فتسقط ، ويذكر ابن خلكان أنه شاهد خلقا كثيرا ممن سقطت أطرافهم فى خوارزم بسبب البرد ، ويعلق على هذا بأنه من الخطأ أن يستبعده من لا يعرفه[3] .

ويذكر ياقوت أنه رأى نهر جيحون — وعرضه ميل — وهو جامد ، والقوافل والعجول الموقرة ذاهبة وآيبة على جليده[4] .

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ١/٢٩٨ .
(٢) إنباه الرواة ٣/٢٦٥ .
(٣) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥ .
(٤) معجم البلدان ٤/٤٧٤ .

وكثيراً ما ردد ابن بطوطة آلامه من برد الاقليم ، حتى إنه كان يتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار ، فما تقطر من الماء قطرة إلا جمدت لحينها ، وإذا غسل وجهه بالماء ووصل الماء إلى لحيته جمد ، فيسقط منها شبه الثلج ، والماء الذى ينزل من الأنف يجمد على الشارب[1] .

ويقول إن نهر جيحون يجمد فى أوان البرد ، ويسلك الناس عليه ، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر[2] . ويقول إن السلطان علاء الدين طرمشيرين — سلطان ماوراء النهر — أعطانى سبع مئة[3] دينار درهم وفروة سمور تساوى مئة دينار طلبتها منه لأجل البرد ، وأعطانى فرسين وجملين ، ولما أردت وداعه أدركته فى طريقه إلى الصيد ، وكان اليوم شديد البرد جدا ، فوالله ما قدرت على أن أنطق بكلمة ، لشدة البرد ، ففهم ذلك وضحك ، وأعطانى يده وانصرفت[4] .

(٢) الحياة السياسية

خضعت تلك البلاد للحكم العربى مدة ، ثم آل الأمر فيها إلى ثلاث دول متتابعة .

أولاها الدولة السامانية من سنة ٢٦١ إلى ٣٨٩هـ (٨٧٤ ← ٩٩٩م) وقد نشأ السامانيون فى بلخ واتخذوا بخارى عاصمة لهم ، وكانوا فى عصرهم الذهبى أصحاب النفوذ والسلطان بالمشرق كله ، ثم تقلص ظلهم فشمل خراسان وماوراء النهر وحدها . وإذا كانوا قد جدوا فى تشجيع الأدب الإيرانى ، وكانت الفارسية لغتهم الرسمية فى أكثر سنوات ملكهم ، فإنهم جمعوا فى قصورهم كتاب العربية كما جمعوا كتاب الفارسية ، واجتذبت عاصمتهم بخارى كثيرا من العلماء

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ١/٢٩٤ .
(٢) مهذب الرحلة ١/٢٩٨ .
(٣) هكذا أثرت كلمة مئة ومركباتها .
(٤) مهذب الرحلة ١/٣٠٩ .

والشعراء ، وكانوا حماة لأهل السنة — إلا فى نحو أربعين سنة من القرن العاشر الميلادى — ففى عهدهم ألف كتاب فى العقائد باللغة العربية لوقاية الشعب من الرافضة ، ثم ترجم إلى الفارسية ، وترجم تفسير الطبرى إلى الفارسية ، كما ألف بها تفسير آخر ، وأفتى الناس بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية[١] .

ثم قضى محمود بن سبكتكين الغزنوى على دولتهم سنة ٣٨٩هـ[٢] .

وثانيتها الدولة السلجوقية العظمى[٣] من سنة ٤٢٩ إلى ٥٥٢هـ (١٠٣٧ — ١١٥٧م) التى امتلكت خوارزم سنة ٤٣٤ هـ ثم خراسان وبلاد الرى وأصبهان وأذربيجان ، وكان نفوذ البويهيين قد انحسر عن بغداد ، فتقدم طغرلبك إليها ودخلها بغير حرب سنة ٤٤٧ هـ ، وقبض على آخر سلاطين بنى بويه ، ومن هذا التاريخ قامت الدولة بالعراق وماوراءه .

وهى تنقسم إلى خمسة بيوت ، يهمنا منها البيت الأول ، وملوكه هم السلاجقة العظام الذين ملكوا خراسان والرى والجبل والعراق والجزيرة وفارس والأهواز ، وقد قامت من سنة ٤٢٩ إلى ٥٥٢هـ (١٠٣٧ — ١١٢٨م) وعاصر الزمخشرى من ملوكها :

١ — عضد الدين أبو شجاع ألب أرسلان	٤٥٥ — ٤٦٥هـ
٢ — جلال الدين أبو الفتح ملكشاه	٤٦٥ — ٤٨٥هـ
٣ — ناصر الدين محمود	٤٨٥ — ٤٨٧هـ
٤ — ركن الدين أبو المظفر بركيا روق	٤٨٧ — ٤٩٨هـ
٥ — ركن الدين ملكشاه الثانى	٤٩٨ — ٤٩٨هـ

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٨ بارتولد .

(٢) وفيات الأعيان ٤/٢٤٠ .

(٣) الدولة العباسية ٤١٢ للخضرى . وكانت السلاجقة دول غيرها أقل منها شأناً .

٦ — غياث الدين أبو شجاع محمد	٤٩٨ — ٥١١
٧ — معز الدين أبو الحارث سنجر	٥١١ — ٥٥٢

ثم انقضت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم .

ويرتبط تاريخ هذه الدولة باسم وزيرها العظيم نظام الملك الذى استوزره ألب أرسلان ، واستعان به فى إدارة ملكه ، ثم استوزره ابنه جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ، فقام بالتدبير والإصلاح خير قيام ، وبفضله اتسع نفوذ جلال الدين ، فخطب له من حدود الصين شرقا إلى آخر الشام غربا ، وازدهرت الآداب والفنون ، وازدانت المدن بالمدارس والمستشفيات . وكان جلال الدين سلطانا عادلا شجاعا متدينا ، وكان وزيره عالما جوادا مشغوفا بالعلم معظما للعلماء ، وهو الذى أمر بألا يلعن الأشعرية والرافضة على المنابر ، إذ كان الوزير عميد الملك الكندرى قد زين للسلطان طغرلبك لعن الرافضة ، فأمر بذلك ، فأضاف إليهم الأشعرية ، ففارق كثير من العلماء بلادهم ، مثل إمام الحرمين وأبى القاسم القشيرى ، ولم يكتف نظام الملك بإلغاء ذلك ، بل أعاد العلماء إلى أوطانهم[١] .

ثم قتل الوزير سنة ٤٨٥ هـ ، ومات السلطان بعده بنحو شهر ، فأفلت شمس آل سلجوق ، ونشبت الفتن بين كبارهم ، وحكموا السيوف فيما بينهم ، فكانت النتيجة سقوط دولتهم ، وقيام الدولة الخوارزمية .

أما الدولة الثالثة التى حكمت خوارزم فهى الدولة الخوارزمية التى نشأت إمارة (أتابكية) فى خوارزم ، وجعلت تتقوى وتتوسع ، على حين أن الدولة السلجوقية تضعف وتضيق ، فلما سقط السلاجقة خلفهم الخوارزميون ، وضموا تحت لوائهم الأقاليم التى كان يحكمها السلاجقة .

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٦ ، ٢١ .

وهذه الدولة تنتسب إلى نوشتكين أحد الأتراك فى بلاط ملكشاه السلجوقى .

أما مؤسسها الحقيقى فهو ابنه محمد [١] الذى عينه أحد قواد السلطان بركيا روق السلجوقى (٤٨٧ — ٤٩٨ هـ) حاكما على إقليم خوارزم ، ولقبه خوارزم شاه . وقد جعلت هذه الدولة الناشئة تمتد وتقوى منذ أتسز بن محمد بن نوشتكين ، ثم تصارع سنجر السلجوقى وأتسز صراعا استمر حتى توفى اتسز سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦م) وتوفى سنجر بعده بعام ، وكانت وفاة سنجر نهاية للسلاجقة فى فارس وخراسان ، فلم يجد الخوارزميون بعده من يعوق طموحهم أو يحتجز اتساعهم ، فاستطاع إيل أرسلان بن أتسز أن يبسط سلطانه على غربى خراسان . ثم امتدت الدولة غربا فى عهد تكش خوارزم شاه ، وصار لها نفوذ على أمراء العراق ، واستعان الخليفة العباسى الناصر لدين الله بتكش على طغرلبك آخر السلاجقة فى بغداد ، فرحب تكش بهذه الفرصة المواتية ، والتقى جيشه بالجيش السلجوقى عند الرى سنة ٥٩٠ (١١٩٣م) واجتلت المعركة عن انتصار تكش ، وعن قتل طغرلبك .

وحينئذ بسطت الدولة الخوارزمية سلطتها على الأقاليم العراقية التى كانت للسلاجقة ، فاحتل تكش همذان عاصمة سلاجقة العراق سنة ٥٩٠ هـ واحتل أصفهان والرى . ثم حارب دولة (الخطا) شرقا ، واستولى على إحدى مدنهم المهمة وهى بخارى سنة ٥٩٤ (١١٩٧ م). وفى عهد ابنه علاء الدين محمد تم اقتطاع مدينتى بلخ وهراة من الدولة الغورية سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) كما نجح فى هزيمة دولة (الخطا) سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) فاستولى على بلاد ما وراء النهر ، ثم مد نفوذه إلى إقليم كرمان وإقليم مكران وإلى الأقاليم التى غربى نهر السند ، وبهذا طوق غزنة عاصمة الدولة الغورية ، واحتلها سنة ٦١٢هـ (١٢١٥م).

(١) الدولة الخوارزمية والمغول ١٩ وسلاجقة إيران والعراق ١١٨.

كان الخوارزميون يتطلعون إلى تكوين دولة إسلامية عظيمة ترث الدويلات الإسلامية والإمارات المتناثرة المفككة ، وقد تم لهم النصر على السلاجقة سنة ٥٩٠ هـ فسيطروا على العراق العجمى ، وحكموه من قبل الخليفة العباسى ، وطالبوا الخليفة بأن يحل اسمهم فى خطبة الجمعة محل أسلافهم السلاجقة ، وأن ينقش اسمهم إلى جوار اسم الخليفة على النقود ، ثم طلب تكش من الخليفة الناصر أن يعيد دار السلطنة فى بغداد إلى ما كانت عليه أيام السلاجقة فلم يستجب الناصر لهذه المطالب .

فلما تولى علاء الدين محمد العرش بعد أبيه تكش أعد العدة لغزو بغداد [١] سنة ٦١٤ (١٢١٧) فتأهب الناصر لصده ، وساعدته عوامل عدة على النجاة من هذا الغزو ، وفى الوقت نفسه كان سيل المغول يكتسح ما أمامه .

وإذاً فقد خلف الخوارزميون السلاجقة على فارس وخراسان والعراق ، وخلفوا الغوريين ، واستولوا على بلاد ما وراء النهر .

أما عاصمتهم فكانت تارة مرو — عاصمة خراسان — وتارة سمرقند — عاصمة بلاد ماوراء النهر — وحيناً أصفهان كبرى مدن العراق العجمى .

وامتد حكم هذه الدولة من سنة ٤٩١ إلى ٦٢٨ هـ (١٠٩٧ — ١٢٣٠ م) ، وقد فاجأها المغول فى عهد ملكها علاء محمد شاه فقر منهم ومات سنة ٦١٧ هـ وفى السنة نفسها هجموا على خوارزم ، فتولى الدفاع بعده ابنه جلال الدين منكبرتى ، وقاومهم فى بسالة وبطولة إلى أن لقيهم فى قلة من رجاله ، فلما أيقن أنه لابد من أن يقتل أو يؤسر ألقى بنفسه من مرتفع على شاطئ نهر السند ، وهو على صهوة جواده ليتجو فيلقاهم من جديد ، فضرب بهذا الصنيع مثلا رائعاً للبطولة والفداء ، ومازال يقاومهم بعد ذلك حتى انتهت دولته سنة ٦٢٨ هـ [٢].

(١) لهذا الغزو أسباب منها أن علاء الدين اعتنق المذهب الشيعى واجتهد فى إسقاط الخلافة العباسية من بغداد وإقامة خلافة علوية مكانها .

(٢) سيرة جلال الدين منكبرتى ١٦٠ .

كان الوزراء فى الدولة الخوارزمية يتألهون من السلاطين أعظم التقدير ، فيجلسونهم عن أيمانهم فى المحافل العامة ، وكان الوزير الذى يلقب بنظام الملك لايقفلن يدخل عليه وهوفى دست الوزارة مهما تكن مكانته ، إجلالا للمنصب لأنه قائم مقام السلطان .[1]

وكثيرا ما عهدوا بحكم الأقاليم أو المدن إلى حكام أطلقوا على كل منهم لقب وزير[2] ، فلما قوى نفوذ الأتراك صار الوزراء أكثر حرية ، فاستأثروا بثروات الأقاليم ، وتمردوا على السلاطين .

أما سلاطين الدولة فهم ثمانية[3] ، وأما السلاطين الذين عاصرهم الزمخشرى فهم :

١ — نوشتكين من ٤٧٠ إلى ٤٩٠ هـ (١٠٧٧ — ١٠٩٦ م)

٢ — قطب الدين محمد « ٤٩٠ — ٥٢١ هـ (١٠٩٦ — ١١٢٧ م)

٣ — أتسز « ٥٢١ — ٥٥١ هـ (١١٢٧ — ١١٥٦ م)

ومن هذا يتبين أن الزمخشرى عاصر تأسيس الدولة ، وأدرك ثلاث عشرة سنة من عهد أتسز ، لأن الزمخشرى عاش فيما بين سنة ٤٦٧ و٥٣٨ هـ ، فلم يدرك سقوط آل سلجوق وقيام الخوارزميين مقامهم ، إذ كانت نهاية السلاجقة سنة ٥٥٢ هـ .

(١) سيرة جلال الدين منكبرتى ١٨٦ .

(٢) المرجع السابق ٢٤٠ ، ٢٤٧ .

(٣) الدولة العباسية ٤٥١ الخضرى ، وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ١ ، والدولة الخوارزمية والمغول ٢٧٣ .

(٣) الحياة الثقافية

ما كادت أقاليم خراسان وخوارزم وما وراء النهر وغيرها تخضع للحكم العربى حتى جعلت تستعرب ، وتكاثرت فيها بذور اللغة العربية والأدب والعلوم الإسلامية ، وسرعان ما نبتت وبسقت فروعها ، وأينعت ثمارها .

فلا غرابة فى أن كثر العلماء والمؤلفون والأدباء فى خوارزم ، لأنها بيئة كثيرة الخيرات ، ومنتجع الوافدين الذين يطمئنون إلى طيب المقام ، ولأن أهليها أقبلوا على الإسلام بشغف ، ونشطوا أيما نشاط فى تعلم اللغة العربية لغة القرآن والحديث ، وهما مصدرا الشريعة ومنبعاها ، فلما كانت النهضة العلمية والأدبية فى العصر العباسى ازدادوا وكفا فى ميادين الثقافة العربية .

وكان نشاطهم العلمى والأدبى مقرونا بالغيرة على الإسلام ، والحرص على تعاليمه ، والحفاظ عليه من أعدائه المحيطين بهم .

ثم إن المدارس كانت كثيرة فى الإقليم ، وكان العلماء والمؤلفون والمدرسون جادين فى التعليم والتثقيف والتأليف ، وكانت المكتبات العامة عديدة ، والحكام حراصا على تشجيع الحركة الفكرية ، كلفين بتقريب الشعراء إليهم ، ليضيفوا إلى ملكهم هيبة وجمالا ، ولينافسوا سلفهم وجيرانهم من السلاجقة وغيرهم فى الجاه وحسن الأحدوثة وبعد الصيت .

ولأهل خوارزم اتجاه فى التفكير اشتهروا به ، فقد وصفهم المقدسى بأنهم أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب ، وقال إننى قلما لقيت إماما فى الفقه والقرآن والأدب ليس له تلميذ من خوارزم[1] .

(١) أحسن التقاسيم ٢٨٤ .

(أ) في خوارزم

وإذا أردنا أن نختص خوارزم وحدها بالنظرة السريعة وحدها تتوج بالعلماء والأدباء ، منذ عاش هنالك أخلاط من الفرس والعرب والترك ، ومنذ أقامت الدولة الخوارزمية ملكها على أنقاض السلاجقة في فارس والعراق وما وراءهما ، وعلى أنقاض الدولة الغورية في غزنة ، وامتلكت ماوراء النهر ، غير أن هذه الدولة لم تعمر طويلا ، إذ سقطت هؤلاء جميعا

ومن الخوارزميين الأدباء والعلماء الذين كتب عنهم ويذكر النسوي — وهو الكاتب المؤرخ الذي خالطهم وعمل في دولتهم — أن سلاطينهم عمروا قصورهم بالشعراء والكتاب والعلماء من فرس وعرب ، وقربوهم إليهم ، وأغدقوا عليهم ، كما فتحوا المدارس ، وشجعوا الوعاظ ، على الرغم من أن بعضهم مثل السلطان محمد بن تكش كان تركيا قليل المعرفة باللغة العربية [1] .

ويذكر أن الدولة كان لها ديوان إنشاء وعَرْض ، وأن هذا الديوان كان أرفع رتبة من ديوان الشعراء عند السلاجقة ، وكان له رئيس وبتبعه كتاب يلقب كل منهم بـ [2]

أما إنتاج هؤلاء الأدباء والعلماء فإنه كان بالعربية وبالفارسية ، فمن الذين نجحوا في العربية بين أبو إبراهيم إسماعيل بن حسن الجرجاني — عاش في طلائع من سنة ٥٠٤ إلى ٥٣١هـ — وألف كتابا في الطب سماه ذخيرة خوارزم شاه ، ومنهم رشيد الدين محمد عبد الملك النحوي الملقب بالوطواط المتوفى بخوارزم

(١) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ٥١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ .
(٢) المرجع السابق ٥٧ ، ١٩٤ ، ٢٠١ .

سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) كان رفيقا وصديقا للسلطان أتسز ، وكان شاعر البلاط في عهده ، وفي عهد إيل أرسلان ولده علاء الدين تكش ، وهو مؤلف كتاب (حدائق السحر في دقائق الشعر) وهو من تلاميذ أبي سعد آدم بن أحمد هروي [1]

ومنهم محمد بن قيس الذي كان في عهد علاء الدين خوارزم شاه ، وألف كتاب (المعجم في معايير أشعار العجم) لأبي المظفر خوارزم شاه .

وبعضهم برع في الإنتاج بالعربية والفارسية مثل الوطواط ، الذي كان أفصل زمانه في النظم والنثر ، وأعم الناس بدقائق كلام العرب وأسرار النحو والأدب ، وكان يتشيء في رسالة واحدة يبدأ بالعربية ثم يحولها بالفارسية ثم يحولها بالعربية ، وهلم جرا ، ويعنيهما معا . وله ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية ، ومؤلفات أخرى ، ومن رسائله ما كتبه لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري :

لقد جار دهر الله — دام جماله — فصائلَ فيها لايشقُّ غبارُها
تجدد رسمُ الفضل بعد دثاره بآثار دهر الله فالله جاره

ثم أتبع البيتين رسالة نثرية ، يثني فيها على الزمخشري ، ويود أن يكون من تلاميذه [2]

ومن هؤلاء نصرة الدين حمزة بن محمد بن عمر ، كان يحفظ سقط الزند لأبي العلاء المعري ، والتبيني للعتبي ، والمنتخل لفخر الدين الرازي ، والإشارات لابن سينا ، وله بالعربية والفارسية أشعار مدونة ، وأما ترسله فالسحر الحلال والعذب الزلال [3] .

(١) معجم الأدباء ١٠٣/١ و ١٩ ، ٢٩ .
(٢) معجم الأدباء ١٩ ، ٢٩
(٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ١٨٢ .

ومنهم أبو [illegible] من تلاميذ [illegible] ؛ وكتاب شرح كلية [illegible] وكتاب الوسائل إلى الرسائل (من نثره) وديوان شعر بالفارسية ، وكتاب الخطب فى دعوات ختم القرآن ، سماه يتيمة اليتيمة ، وكتاب الطرفة فى النحو بالفارسية وغيرها [1] .

ومنهم محمد التنوخى — نسبة إلى مدينة تنوخ بخراسان — الذى كان كاتب الإنشاء للسلطان جلال الدين منكبرتى ، ثم وزيرا له فى مدينة سنا ، وهو مؤلف [illegible] .

وكان ثمة علماء وأدباء تفوقوا فى الإنتاج بالعربية مثل أبى بكر محمد بن العباس الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) وهو شاعر ناثر عالم ، كان يحفظ أخبار العرب وأيامها وأشعارها ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر [2] .

ومثل أبى سعيد الشيبى الفارس الأديب ، كان فى أيام شبابه بخوارزم يقول [illegible] وبعد [illegible] وأبو [illegible] فسمى بحاجب [illegible] شيخ المعتزلة [3] .

ومثل أبى محمد عبد الله بن إبراهيم الرقشى من أبناء الورد ، بمدينة خوارزم ، وكان مثل كشاجم كاتبا شاعراً مفلقا [4] .

ومثل أبى الحسين أحمد بن محمد الشهلى الخوارزمى (المتوفى سنة ٤١٨ هـ ١٠٢٧ م) كان من أجلة خوارزم ، وبيته بيت رئاسة وو[illegible] وكرم ومروءة ،

(١) معجم الأدباء ٢/١٥ ، وسلم الوصول ١/٣٢ .
(٢) [illegible]
(٣) [illegible]
(٤) [illegible]

وكان يجمع بين آلات الرياسة وأدوات الوزارة وضرب فى العلوم والآداب بالسهم الوافر ، وله كتاب الروضة الشهلية فى الأوصاف والتشبيهات ، ومنثوره صنف الحسن بن الحارث الحسكوتى فى المذهب كتاب الشهلى يذكر فيه المذهبين مذهب الشافعى والحنفى ، خرج من خوارزم سنة ٤٠٤ إلى بغداد وبوطها ، وبرعاية خوارزم شاه أبى العباس مأمون حوفا من شره [1] .

ومثل الإمام أبى عبد الله محمد بن أحمد الخوفى (حوالى ٤٤٤ هـ) من تلامذة الشيخ أبى حامد الإسفرايينى ، تفقه عليه ببغداد ، وبيته بيت كبير ، قال صاحب الكافى فى تاريخ خوارزم إن بيته معمور بالعلماء منذ نحو مئتين وخمسين سنة ، وأطال فى ترجمته [2] .

ومثل أبى القاسم محمود بن عبد العزيز العرضى الخوارزمى الملقب بشمس الدين (٥٢١ هـ — ١١٢٧ م) كان من أفضل الناس فى عصره فى علم اللغة والأدب ، وتخطى إلى الفلسفة فصار مقدما بها ، وكان يطالع الفقه ويناظر فى مسائل الخلاف ، وسمع الحديث من أبى نصر القشيرى وغيره ، وأملى طرفا منه وشرحه .

وكان الزمخشرى يدعوه الحافظ الثانى ، لكثرة حفظه وفصاحة لفظه .

أقام مدة بخوارزم مكرما فى خدمة خوارزم شاه ، ثم ارتحل إلى مرو ، ومات بها [3] .

ومثل أبى على الحسن بن المظفر الشاعر المصنف الذى كان مؤدب أهل خوارزم فى عصره ومخرجهم وشاعرهم ومقدمهم ، وهو شيخ أبى القاسم الزمخشرى فضل أبى مُضَر ، ومن مصنفاته التى ذكرها ياقوت : تهذيب ديوان الأدب ، تهذيب

(١) معجم الأدباء ٥ ٣١ .
(٢) طبقات الشافعية ٣ ٥٨ .
(٣) معجم الأدباء ١٩ ١٢٦

إصلاح المنطق ، ديوان شعره ، ديوان رسائله ، زيدات أحبار خوارزم[1]

ومثل أبي الحسن علي بن عراق الصيمري (متوفى سنة ٥٣٩هـ = ١١٤٤م - شذآنة وهي قرية من قرى خوارزم) كان نحويا لغويا عروضيا فقيها مفسرا مذكورا ، درس بخوارزم وبخارى ، ووصف كتابه شرح [illegible] القرآن[2] .

ويكفي للدلالة على كثرة العلماء وتقديرهم مذكره النسوى في سيرة السلطان محمد بن تكش ، وهو أنه سير إلى خوارزم برهان الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز البخارى المعروف بصدر جهان ، رئيس الحنفية ببخارى وخطيبها المقدم ، وكان في جملة من يعيش في ظل برهان الدين وإدارة سعده ما يقارب ستة آلاف فقيه ، وكان كريما يقصده العلماء والفضلاء[3] .

وقد سارت طريقة التأليف في خوارزم على غرار الطريقة في البلاد العربية ، ففي النحو والصرف والعروض لم تخرج عما سنه المؤلفون في العراق والشام ومصر والأندلس ، وفي اللغة سلكت الاتجاهين المعروفين ، وهما تأليف المعاجم على ترتيب الألفاظ كما نجد في أساس البلاغة للزمخشري ، أو تأليف المعاجم على حسب المعاني كما نجد في قسم الأسماء من (مقدمة الأدب) للزمخشري .

وأما في البلاغة فقد تميز الخوارزميون [illegible] بصبغة ، وهو التأثر بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، على حين أن أهل العراق والشام ومصر والأندلسيين والمغاربة تأثروا بالمذهب الأدبي .

وإذا كان مذهب المشارقة قد اتضح عند الزمخشري والرازي وطبقتهما

(١) معجم الأدباء ١٩/١٦١ .
(٢) معجم الأدباء ١٤/٦٣ .
(٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ٦٨ .

والسكاكي وأشباههم ، فإنه كان أعظم منهم ، إذ برزت معالمه في كتابه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، وهو متكلم على مذهب الأشعري ، ولكنه يمتاز بنزوعه الأدبي وذوقه المرهف عن الدين حشوه ، فصيروا البلاغة علما جافا تعوزه نفحة الأدب ورفيف الجمال .

ويظهر أن طول ممارستهم للفلسفة والعلوم العقلية جعلهم يحفلون بدراسة البيان والمعاني أكثر مما يحفلون بدراسة الألفاظ وفنون البديع .

وقد نبه ابن خلدون إلى عناية المشارقة بالبيان والمعاني فقال :[1] « والعناية به هي عند أهل المشرق في الشرح والتعليم أكثر من غيره ، وبحثهم فيه » فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة ، وسببه — والله أعلم — أنه كما في العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد في العمران ، والمشرق أوفر عمرانا من المغرب كما ذكرناه ، أو نقول لغلبة العجم — وهم معظم أهل المشرق — كتفسير الزمخشري ، وهو كله مبني على هذا الفن ، وهو أصيل ، وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة ، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، وفرعوا له ألقابا ، وعدوا أنواعا ، ونوعوا أنواعا ، وإنما حملهم على ذلك الولوع بتحسين الألفاظ ، وأن علم البديع سهل المأخذ ، وصعبت عليهم مآخذ البلاغة — يريد علم المعاني — والبيان من أطرافها ، وغوامض معانيها ، فتحذقوا عنهما » .

والمشارقة أصحاب السبق إلى تقسيم علوم البلاغة إلى بيان ومعان وبديع .

ولأهل خوارزم خصوصة الفضل في هذا المجال منذ الزمخشري والسكاكي[2]

يتبع

(١) مقدمة ابن خلدون ١٢١٥ .
(٢) السكاكي : أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر [illegible] من أهل خوارزم ، علامة في العربية والعلوم والأدب والعروض والشعر ، متكلم [illegible] ولد سنة ٥٥٤ هـ وتوفي سنة ٦٢٦ هـ ووصف مفتاح العلوم في ثنى عشر علما (معجم الأدباء ٢٠ ٥٨)

وعلى الرغم من أن السبكي من أصحاب المذهب الأدبي في دراسة البلاغة فقد أشار بفضل المشرقة ، ونهج نهجهم ، وهذا واضح في قوله : « وأما أهل المشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم ولاسيما العقليه و لمعنى ، فتوفوا هممهم الشامخة في تحصيله ، واستولوا بحدهم على جمله وتفصيله ، ووردوا مناهل هذا العلم فصدروا عنها على سجيتهم . وكيف لا ؟ وقد جبلوا عليه بجبلتهم ورحلتهم ، فيذلك عمروا منه كل دارس ، وعمروا من حصونه المشيده ما رقد عنه حارس ، ونفوا عنان السماء في علمه [1] »

وهكذا كانت خوارزم تربة بعضائها وأدبائها قبل الزمخشري وبعده ، فلما اجتاحها التتار سنة ٦١٨ هـ (١٢٢٠ م) دمروها ، وبددوا كثيراً من نفائسها وذخائرها ، لكن الحياة العلمية و لأد ه ستقبع

ثم تناوبتها الأحداث ، حتى امتلكتها دول أخرى فأسدلت الأستار على ماض مشرق وتراث عظيم .

المعتزلة

كا ب ق وفارس وخراسان وما جاورها من البلاد الفارسيه ، ملأى بالشيعة [2] ، وكان المعتزلة كثرة في هذه الأقاليم ، وكانوا الأكثرين في كل إقليم يحكمه الشيعة ، ولهذا نشر مذهبهم بالعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر ، وعلا صوتهم منذ قامت الدولة البويهية سنة ٣٣٢ (٩٤٣م) ذلك أن الناس في تلك البلاد كانوا على مذهب السنة والجماعة ، فلما آل الحكم إلى بني بويه — وهم من غلاة الشيعة — ناصروا التشيع وآثروا الشيعة ، وفي سنة ٣٥٢هـ أمر معز الدولة الناس أن يحتفلوا في العاشر من المحرم بذكرى قتل الحسين ؛

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ١/٥ .
(٢) راجع أحمد السياسة في العصر الأموي للمؤلف ٣٤.

فأعلقت الحوانيت ، وخرجت النساء مسودات الوجوه منشورات شعورهن ، يلطمن وجوههن على شهيد كربلاء .

وفي اثنين وعشرين من ذي الحجة أمر [illegible] احتفالاً بعيد الغدير [1] ، وكان [illegible] تولى الوزارة لفخر الدين البويهي من ٣٦٧ إلى ٣٨٥ هـ ، فقرب المعتزلة وآثرهم [illegible]

ثم ذاع الاعتزال واستقر بالمشرق ، حتى لقد كان أكثر الشيعة ، في بلاد العجم معتزلة ، وأكثر فقهائهم على الاعتزال ، وكثيراً ما وقعت المشاحنات بين الفريقين [3]

وهم كثير ، منهم بالقرب من خوارزم أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخي، المعروف بالكعبي (٢٧٣ — ٣١٩ هـ) كان من كبار المعتزلة ودعاتهم ، وانتهت رياستهم إليه وإلى أبي علي الجبائي وأبي بكر بن الإخشيد ، كما ذكر ابن حزم في كتابه الفصل . دخل (بسنف) فأكرمه أهلها إلا الحنفية عند المؤمن ابن حنف .

(١) الغدير : غدير خم ، وهو موضع بين مكة والمدينة على ثلاثة أميال من الجحفة ، به ماء كثير وحوله شجر كث [illegible] عن البراء بن عازب أنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر [illegible] غدير خم [illegible] فكان من الأشجار [illegible] مدر استعداداً لإقامة [illegible] ثم نودي الصلاة جامعة ، فصلى [illegible] على [illegible] أن [illegible] أليست تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ [illegible] كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار . ألا هل بلغت ؟ قالوا نعم ثلاثاً

والشيعة يحتفلون في هذا اليوم عيداً ، وكان من أعظم معز الدولة البويهي ، ثم جعله الفاطميون عيداً في مصر [illegible] سنة ٣٦٢ هـ حيث عاد إليها (ابن خلكان ١ : ١٤٤) .

(٢) معجم الأدباء ٦/٢٢٥

(٣) أحسن التقاسيم ٣٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٩

وهو صاحب فرقة من من المعتزلة سماها ابن النديم [١] البلخية ، وسماها الشهرستاني الكعبية .[٢] .

وقد وصفه أبو حيان التوحيدي بقوله : ناهيك به عالما وراويا وثقة [٣] . والمؤرخون متفقون على أن نجم المعتزلة بدأ يأفل منذ تولى الخليفة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ (٨٤٦ م) لأنه اضطهدهم ، وعزل قضاتهم ، وصادر أملاكهم ، وسجن كثيراً من رجالهم ، فضعف شأنهم ، وسخر الناس بهم ، كقول أبي العتاهية في [illegible] المتوكل وصدر خلافته

[illegible] وكان عزمك عزماً فيه توفيقُ
[illegible] عن أن تقول كلامُ الله مخلوق
ماذا عليك وأصلُ الدين يجمعهم ما كان في الفرع لولا الجهل والموق [٤]

ويقول ابن خلكان إنهم اجتمعوا منذ تولى المتوكل ، فما ظهر أبو الحسن الأشعري سنة ٣٣٣ هـ ازدروا أقفيتهم ، لأنه كان معتزلياً فسلق على المعتزلة ، وفند كثيراً من آرائهم ، والتزم حداً وسطاً بين السنية والمعتزلة ، فلم يكن يعول على المنقول وحده كأهل السنة ، ولا على العقل وحده كالمعتزلة ، حتى ليعبر أبو بكر الصيرفي عن هذا بأنهم كانوا قد رفعوا رءوسهم ، فلما أظهر الله الأشعري حجرهم في أقمع السمم [٥] .

ولكن خوارزم مع هذا كله كانت تموج بالاعتزال ، حتى ليندر أن نجد خوارزميا ليس معتزلياً ، فإن كان غير معتزلي وأراد أن ينفي الاعتزال عن

(١) لسان الميزان ٣/٢٥٥ .
(٢) الملل والنحل ١/٧٣ .
(٣) [illegible] ١٤٣
(٤) تاريخ بغداد ١١/٤٦ ، الموق : حمق .
(٥) وفيات الأعيان ٢/٤٤٧ .

نفسه أكد فيه ، كما نجد في وصف ياقوت لمقاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمي : « سألته عن مولده فقال : مولدي سنة خمس وخمسين وخمس مئة . وحضرت في منزله بخوارزم فرأيت منه صدراً يملأ الصدر [١] ، ذا بهجة سنية وأخلاق هنية ، وبشر طليق ، ولسان دليق ، يملأ قلبي وصدري . . . . ورأيته شيخا بهي المنظر ، حسن الشيبة كبيرها . . . . وقلت له : ما مذهبك ؟ فقال حنفي ، ولكن لست خوارزميا ، لست خوارزميا يكررها ، إنما انتميت بمجاري ، فأري رأي أهله ، بقي عن نفسه أن يكون معتزليا »[٢] .

وقد جعل الزمخشري اعتزال الخوارزميين أعظم فضائلهم [٣] ، وهو صادق في هذا الحكم ، لأن الاعتزال شاع بينهم ، حتى إن عوامهم يدينون بأن القرآن مخلوق [٤] .

القضاء

كانت العلة في خوارزم لمذهب أبي حنيفة ، وكان لكن مدينة فاض يفصل بين الناس وفق الشريعة الإسلامية ، فإن كانت مدينة كبيرة ومنها مذاهب متعددة عين الخوارزميون قضاة بعدد المذاهب ، وهؤلاء القضاة كانوا يقومون أيضاً بتدريس العلوم الدينية في المساجد والمدارس [٥] .

وذكر [illegible] في وصفه لأمر خوارزم [illegible] من

(١) [illegible]
(٢) معجم الأدباء ١٩/٢٣٨ .
(٣) ربيع الأبرار للزمخشري الباب التاسع مخطوط .
(٤) أحسن التقاسيم ٣٩٥ ، ٤١٥ .
(٥) [illegible] ٧٧
(٦) ضبطها بضم الخاء وسكون الصاد وضم اللام ، وضم الدال واللام ، وقال : إن معنى كلمة الأولى المبارك ومعنى الثانية الجديد ، فاسمه يدأ الجديد المبارك ، وقال : وبه ان خلقه [illegible] وروى عن خوارزم

عادته أن يأتي القاضي كل يوم إلى مجلسه ومعه الفقهاء وكتابه، ويجلس في مقابلة أحد الأفراد الكبراء ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم، ويتحاكم الناس إليهم، فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي، وما كان من سواها حكم فيه أولئك الأمراء. وأحكامهم مضبوطة عادلة لأنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يقبلون رشوة[1].

[illegible]

لكن حوادث لم تكن في معزل عن الحياة العلمية والأدبية في المنطقة كلها، ولا سيما الأقاليم المجاورة لها، إذ كانت هذه المنطقة موحدة الحكم في عهد العرب البويهيين والسامانيين والسلاجقة، وكانت تيارات الثقافة تجري فيها وهناك بين مجتمع من الفرس والعرب والترك[2].

وإنه يستوقف الانتباه أن الإقليم الذي كان فارسيا استعرب حتى أخذ من الشعراء والكتاب والمعلمين والنحاة والفقهاء والمحدثين والمفسرين والمحدثين

وإذا كان البويهيون قد ذاع صيتهم بتقدير العلماء والأدباء فإن السامانيين كانوا منهم، فكان نوح بن منصور السامانى يقدر العلماء ويستشيرهم في شئون الدولة، ولما تسمم شهرة الصاحب بن عباد وتقرب آل بويه كتب إليه [illegible] في شئون الدولة، فعندما يتمكنه، فعتذر الصاحب بأنه يخجل من أن يكتب إليه مثل كتبه

واشتهر وزيران من وزرائهم بشغفهما بالأدب والعلم، أحدهما أبو الفضل

(١) معجم الأدباء ١/٣٠٠.
(٢) كثر العرب هناك بعد الفتح، وكثر الترك وعظم نفوذهم بعد عهد المعتصم، ثم توسعت هجراتهم وكان السلاجقة من ثمار هجراتهم.

ابن عبيد الله العتبي الذي كان وزيرا لمنصور بن نوح السامانى، وهو الذي ترجم تاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية، والآخر أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني، الذي كان وزيراً للملك السابق، وكان يكرم قصاده ويعين مؤمليه[1]، فشجع هذان الوزيران العلم والأدب في بخارى كما شجعهما أبو الفضل بن العميد والصاحب بن عباد في الري، فكان في قصر الصاحب بأصبهان والري وجرجان عشرات من ذوي العلم والأدب، مثل أبي الحسين السلامي وأبي بكر الخوارزمي وأبي طالب المأموني وأبي الحسن البديهي وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم [illegible] وأبي الفضل الهمذاني وغيرهم[2]، وقصده كثير من الأدباء من جهات شتى.

ثم كان السلاجقة أعظم رعاية للعلوم والآداب، يفضل الوزير نظام الملك الذي وزر لألب أرسلان (٤٥٥ — ٤٦٥ هـ) ولابنه أبي الفتح ملكشاه (٤٦٥ — ٤٨٥)، وهو عالم بدرس الحديث وعلوم السنة في طوس، وكان يتقصى عن المتازين منهم، ويبني لهم مدارس ليتعلموا بها، ويقف عليها الأوقاف، ويعين في كل مدرسة مدرسا يعينه لهم حتى يشتهر ويشتهر النفقة بين الناس، ولما كثرت الأموال في خزانة الدولة خصص فيها لأرباب العلوم حقوقا لا تؤخر، وصيرها الحقوق ثابتة لهم وميراثا لأبنائهم[3]، وبهذه سميت المدارس النظامية التي أنشئت في أمصار شتى لتعليم الحديث.

وتذكر العماد الأصفهاني أن الأمراء كانوا يترددون بأنفسهم للحضور على

(١) معجم الأدباء ١٢/١٥٧.
(٢) يتيمة الدهر ٣/٣٢.
(٣) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٠٠، ٧١ وفروع آل سلجوق ٤٥.

محسه ، لأنه كان متفرس فى وجوههم ، فيرشح كلا منهم للمنصب الذى يلائم رشده وكفايته واستعداده [١] .

المكتبات

ولا شك أن رعاية الثقافة تقتضى عناية بالكتب والمكتبات على النحو الذى نجده فى وصف ياقوت لمدينة مرو وتقديره لمكتبها التى انتفع بها فى مؤلفاته « فيها عشر خزائن للوقف ، لم أر فى الدنيا مثلها كثرة وجوده ، منها خزانان فى الجامع ، إحداهما يقال لها العزيزية ، فيها اثنا عشر ألف مجلد ، والأخرى بقبة الكمالية .

وكانت سهلة التناول لا يفترق منزلى منها مئتا مجلد أكثرها بدون ثمن

وقد أنسانى حبها كل بلد ، وألهانى عن الصحب والولد ، وأكثر فوائد هذه الكتب — معجم البلدان — وغيره فهى من تلك الخزائن [٢] » .

ووصفها فى رسالة إلى القاضى أبى الحسن الشيبانى وزير حلب ، وجاء فى وصفه قوله . « كان لمقام بمرو الشاهجان المعسر عندهم بقصر السلطان ، فوجدت بها من كتب العلوم والآداب ما شغلنى عن الأهل والوطن ، فطفرت منها بمصانف لمنشودة ، وقفت عليها إقبال النهم الحريص » .

ووصف فى هذه الرسالة إقليم خراسان بأنه مورق الأرجاء ، رقيق الأصداء ، ذو رياض أريضة ، وحملة أمره أنه نموذج الجنة بلا مين ، فيه ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين [٣] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٦ ، ٢١ ، وتاريخ آل سلجوق ٤ بإيجاز الأصفهانى .
(٢) معجم البلدان مادة مرو .
(٣) وفيات الأعيان ٢/٢١٣ .

وكان نوح بن منصور السامانى كلفا بالكتب حريصاً على اقتنائها ، فجمع مكتبة كبيرة حوت أهم المؤلفات فى كل علم من الأدب والشعر والتاريخ والطب والفلسفة ، ذكرها ابن سينا فى حديثه عن نشأته ، وقال إنه استفاد منها ، وإن بعض كتبها نادر الوجود .

ولو حاولت أن أرسم صورة كاملة للحياة الثقافية هناك لطال المقال واتسع المجال ، فلنكتف بما سبق

علماء الحديث والفقه

من المحدثين البخارى — نسبة إلى بخارى — المتوفى سنة ٢٥٦ هـ (٨٦٩م) وهو إمام مدونى الحديث ، ومسلم بن الحجاج القشيرى — نسبة إلى نيسابور المتوفى سنة ٢٦١هـ صاحب صحيح مسلم ، وكل منهما قد وصل إلى العراق والحجاز والشام ومصر ليجمع الأحاديث بسنده ، ويميز صحيحها من زائفها .

ومن الفقهاء المجتهدين أبو بكر محمد بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣١٦هـ (٩٢٨ م) الذى وصفه الذهبى بأنه كان مجتهداً لا يقلد أحدا ، وأبو حاتم محمد بن حبان التميمى السمرقندى المتوفى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥) الذى حكى عن نفسه أنه أحد عن ألف شيخ بين الشاش — طشقند — والإسكندرية ، وهو مرجع كثير من المحدثين فى حكمه على رجال الحديث بالجرح والتعديل

كما كان للإقليم من كبار الشافعية محمد بن على القفال الشاشى المتوفى سنة ٣٦٥هـ (٩٧٥ م) وهو الذى نشر مذهب الشافعى هناك ، وكان معتزليا ، وله كتب فى الفقه والأصول ، وأبو بكر بن فورك الأصفهانى الأصولى المتكلم المتوفى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) وهو ناصر مذهب الأشعرى ، وقد اضطهده أهل الرى لكثرة المعتزلة بها ، فطلبه أهل نيسابور ، وبنوا له مدرسة يعلم فيها ، وله مؤلفات

جمع نحو ألفة، وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي الحافظ المتوفى سنة ٤٥٨ (١٠٦٥م) — نسبة إلى بيهق بالقرب من نيسابور — ومؤلفاته كثيرة حتى قالوا إنها نحو ألف جزء، ومنها السنن الكبير والسنن الصغير ودلائل النبوة ومناقب الشافعي ومناقب أحمد.

وكان بالإقليم من علماء الحنفية أبو منصور الماتريدي — نسبة إلى ماتريد وهي محلة بسمرقند — المتوفى سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤م) وهو في علم الكلام عند الحنفية مثل الأشعري عند الشافعية، وله كتاب التوحيد وأوهام المعتزلة، ومآخذ الشرائع في الفقه، والجدل في أصول الفقه وغيرها، وأبو الليث نصر بن محمد السمرقندي الملقب بإمام الهدى المتوفى سنه ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م)[1].

وهكذا نجد في كتب حديث وفقه كل من عد منسوبين إلى مذهبه، مثل السمعاني والشيرازي والغزالي والبغوي والسمرقندي والشاشي والفارابي والمروزي — نسبة إلى مرو بزيادة الزاي، وتقال أيضا مروروزي نسبة إلى مرو الرود — والرازي — نسبة إلى الري — والصاغاني.

علماء اللغة والأدب

كذلك ازدهر الإقليم بكثير من العلماء الكبار الذين ألفوا في اللغة والأدب، منهم علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦م) وهو فقيه ومفسر وشاعر وناقد وكاتب مترسل، وناقد بصير، ومن مؤلفاته (الوساطة بين المتنبي وخصومه).

ومنهم أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري — من هراة — المتوفى سنة ٣٧٠ هـ

(١) ظهر الإسلام ١، ٢٦٣ — ٢٦٥.

(٩٨٠ م) مؤلف كتاب التهذيب الذي يعد أصلا من أصول المعاجم اللغوية، وقد اعتمد عليه وعلى المحكم لابن سيده ابن منظور في معجمه لسان العرب.

ومنهم أبو عمرو أحمد بن محمد الزوزني المتوفى سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) — نسبة إلى زوزن بضم الزاي وفتحها، وهي بلدة بين هراة وغزنة — وشارح القصائد السبع.

ومنهم أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري المتوفى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) أشهر من صنف وسكن نيسابور، وسمع من أكابر عصره، وله من المؤلفات كتاب [illegible]، وكتاب [illegible]، وكتاب قراءة أبي عمرو، وكتاب [illegible]، وكتاب [illegible]، وكتاب وقوف القرآن وغيرها[1].

ومنهم إسماعيل بن حماد الجوهري — من فاراب — المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) مؤلف كتاب الصحاح وهو من أمهات المعاجم العربية.

ومنهم بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ وهو كاتب وشاعر، وقد اشتهر بسرعة الخط وسرعة التحبير، وله المقامات المعروفة باسمه التي حاكاه الحريري فيما بعد[2].

ومنهم أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٢٧ م) كان كاتبا وكان عالما باللغة والأدب، وهو مؤلف كتاب فقه اللغة على الطريقة الموضوعية، وقد جمع في كل موضوع الكلمات المتصلة به، ومؤلف يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ترجم فيه لأدباء القرن الرابع، وذكر نماذج من أدبهم، وعما قيل فيهم، وقسمه حسب الأقاليم والأمصار، وله كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب وغيرها.

(١) معجم الأدباء ٣/١٢

(٢) معجم الأدباء ٢/١٦١، وفجر الإسلام ٤٠٧

وأبو الحسن على بن الحسن الباخرزى السنجى ... باخرز من نواحى نيسابور — المتوفى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) وهو مؤلف ذيله القصر فى شعراء العصر ، جعله تذييلا على يتيمة الدهر للثعالبى [١] .

ومنهم عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨م) وهو مؤلف كتابى دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة

ومنهم أبو الفضل أحمد بن محمد الميدانى النيسابورى — الميدان محلة من محال نيسابور كان يسكنها فنسب إليها — المتوفى سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) وهو مؤلف مجمع الأمثال ، والسامى فى الأسامى ، والنموذج فى النحو ، وشرح المقصورات [٢] .

ومنهم آدم بن أحمد بن أسد الهروى أبو سعد النحوى اللغوى المتوفى سنة ٥٣٦ هـ — ١١٤١ م ، من أهل هراة وسكن بلخ ، كان أديباً فاضلا عالماً نحوياً سمع ببغداد صبياً ، ورد بغداد سنة ٥٢٠ فاجتمع إليه أهل العلم وقرأوا عليه الحديث والأدب ، ومن تلاميذه رشيد الدين محمد بن عبد الجليل المنتقب بالوطواط كان لإمام النحو ... وكان يكرمه ويخضع له ويقر بفضله [٣] .

الفلاسفة

شغفت الفلسفة بالإقليم شغفا كبيرا يرجع إلى ثلاثة من حاملى لوائها ، أولهم — حسب الترتيب الزمنى — أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبى المتوفى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، وهو من بلخ ، وكان واسع المعرفة بعلم الكلام ، وإماما من أئمة المعتزلة ، وله مذهب خاص وأتباع يقال لهم الكعبية [٤]

(١) معجم الأدباء ١٣/٣٣

(٢) معجم الأدباء ٤ ٤٥ .

(٣) معجم الأدباء ١/١٠١ .

(٤) الملل والنحل ١/٧٣ .

ومنهم أبو زيد أحمد بن سهل البلخى المتوفى سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٣ م) وكان صديقا للكعبى [١] ، وقد جمع بين العلوم الشرعية والأدب والفلسفة ، وله مؤلفات كثيرة تبلغ نحو السبعين ، منها كتاب أقسام العلوم ، وكتاب شرائع الأديان ، وكتاب السياسة ، وكتاب أسماء الله وصفاته ، وكتاب صناعة الشعر ، ورسالة حدود الفلسفة ، وكتاب أخلاق الأمم ، وكتاب نظم القرآن

وقد قال أبو حامد القاضى فى وصف كتابه نظم القرآن : لم أر كتابا فى القرآن مثل كتاب أبى زيد البلخى

وقال أبو حيان التوحيدى : أحمد بن سهل البلخى قال له العراق حافظ خراسان ، وقال أيضا فى كتاب الصداقة والصديق : « الذى أقول وأعتقد واحد به أنى لم أر أحدا فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم ... لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم ، أحدهم (وذكر الخليط) والثانى (وذكر أبا الحسن العامرى) والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخى ، وقد تقدم له شبيه فى الأعصر الأول ، ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر ، ومن تصفح كلامه فى كتاب أقسام العلوم ، وفى كتاب أخلاق الأمم ، وفى كتاب نظم القرآن ، علم أنه بحر البحور ، وأنه عالم العلماء ، وما رئى فى الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواه [٢] » .

أما الثالث فهو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٦ م) وقد درس الفلسفة اليونانية منذ الصغر ، ثم درس الطب ، وقرأ من الكتب ما لم يقع للكثيرين من الناس قط ، ومازال كتابه القانون فى الطب يدرس

(١) هو أبو القاسم البلخى الذى سبق الحديث عنه فى الاعتزال بجوارزم .

(٢) معجم الأدباء ٣/٦٤ — ٨٦

فى جامعات أوروبا إلى القرن التاسع عشر[1] ، وماتزال كتبه الشفاء ، والنجاة ، والإشارات مصدراً للدراسة الفلسفية إلى ...

كذلك قد درس الفلسفة وتصدى للرد على الفلاسفة دفاعاً عن الإسلام أبو حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨م) وهو من مدينة طُوس ، ودرس المدرِّسة النظامية ببغداد ، وله مؤلفات كثيرة منها : تهافت الفلاسفة ، وكتاب فضائح الباطنية ، وكتاب المنقذ من الضلال ، وكتاب إحياء علوم الدين

المتصوفة

وكان بالإقليم تصوف ومتصوفة ، منهم أبو عبد الله محمد بن منازل النيسابورى المتوفى سنه ٣٢٩ هـ (٩٤٠ م) وأبو العباس بن القاسم بن مهدى المتوفى سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) وهو من أهل مَرْو ، وأول من تكلم عندهم فى حقائق الأحوال[2] .

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٧٦ بارتولد .
(٢) نور الإسلام ١ / ٢٦٥

الفصل الأول

حياته

اسمه محمود بن عمر بن أحمد ، ولم أحد فى نسبه ذكراً وثيقاً لأحد بعد هذا الجد ، وكنيته أبو القاسم ، غلبت عليه النسبة إلى بلده الذى ولد به ونشأ فيه ، فقيل الزمخشرى ، وكان قد جور بمكة زماناً وجاور بها فصار يقال له جار الله ، فصار هذا اللقب علماً عليه[1] .

ولد بزمخشر فى السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧ هـ[2] (١٠٧٤م) ، وليس بين الذين أرخوا له خلاف فى سنة وفاته ، كما أنه متفقون أيضاً على سنة ميلاده ، إلا أن ابن كثير ذكر أنه توفى سنة ٥٣٨ هـ عن ست وسبعين سنة[3] ، ومعنى هذا أن ميلاده كان فى سنة ٤٦٢هـ ، لكن إجماعهم على أن المولد كان سنة ٤٦٧ ، وقول ابن العماد الحنبلى إنه توفى سنة ٥٣٨ بعد أن عاش ٧١ سنة[4] يجعلنا نستبعد ما ذكره ابن كثير

وكان مولده فى عهد السلطان مَلِكْشاه السلجوقى ووزيره نظام الملك ، وهو من أزهى الفترات التى نهضت فيها الآداب والعلوم .

نشأ بزمخشر ودرس بها ، ثم رحل إلى بخارى يطلب العلم فى مطلع حياته[5] ،

---

(١) مرآة الجنان ٣/٢٦٩ ، ومعجم الأدباء ١٩/١٢٦
(٢) وفيات الأعيان ٤/٢٥٩ ، وشذرات الذهب ٤/١٢١ [وفيه أن المولد كان فى ١٧ رجب] وإنباه الرواة ٣ ٢٦٨ ، وتاريخ أبى الفدا ٣/١٦
(٣) البداية والنهاية ١٢ ٢١٩
(٤) شذرات الذهب ٤/١٢١
(٥) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥

لأنها كانت عند عهد السامانيين «مثابة للحمد، وكعبة للملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر» (١)

كان الزمخشري في مطالع حياته طموحا، يأمل أن يقوم لمكانة التي تكافئ علمه وأدبه وذكاءه، وأن ينال من المال ما يكفل له رغد الحياة، كما نال غيره ممن هم دونه مقدرة وكفاية، وكانت الدولة الخوارزمية ما تزال في نشأتها ولايه تابعة للسلاجقة، فصوّب الزمخشري نظره إلى الدولة الكبيرة التي تتولى شئونها نظام الملك، ومدحه بقصيده (٢) صور فيها ضيق نفسه، وعزمه بعلمه وكفايته وفضله، ما لم تنله لمكان الرفيع الذي يستحقه، وجهر بأنه من الظلم أن يضفر المتطفلون بما يجب أن ينالهُ الأكفاء المتقدمون وحدهم، وسخط على الزمن الذي حاد عن الأراذل بحقوق الأماثل، ثم عزى نفسه عن هذه لمفارقات بأن كثيراً من القسمات أحيدهن حاليه، على حين أن كثيراً من الحسان عواطل الاحياد.

ونلاحظ أنه في مدحه الممزوج بالشكوى نوه بعلمه وأدبه، وجعلهما صلة قربى بينه وبين نظام الملك، وعرّض بتقصيره في رعايته على ما بينهما من هذه القرابة، مع أن غيره ممن لا قرابة بينهم وبينه كانوا يلاقون حقوقه، وختم القصيدة باعتداد مقرون بتحدي نظام الملك أن يجد له نظيراً في جميع من يرى، وتهديده بالرحيل عن خوارزم كلها إذا لم يسعفه بما يأمل، ويلوم حتى على أن آماله في الوزير كانت عظيمة فذهب يُدَلّي ... لأن الأمل ... صغيرة ... صراحة بأن يأمر له بما يحقق آماله. من هذه القصيدة قوله (٣):

حبيبيَّ هل تُجْدِي عليَّ فضائلي ... إذا أنا لم أُرْفَعْ على كل جاهل؟
ومن لي بحق بعد ما وقرتْ على ... أراذلها الدنيا حقوقَ الأماثل؟

(١) يتيمة الدهر ٤/٣٣٠
(٢) ديوانه مخطوط ٩٥
(٣) الديوان ٩٤

كذا الدهر كم شوهاء في حلي حسنها ... وكم حسنا ... عن ... عاطل
وما شجاني أن غرّ ماقبي ... متى تهب ... كل ... الحوادث
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي ... وسارت مسير الشمس في كل بلدة
وكم من أمالٍ لي وكم من مُمَنِّعٍ ... أصاب به دهري محز المقاتل
ولي في دقيق النحو والنقد مسلك ... إذا قلته لم أتق قولاً لقائل
غنيٌّ من الآداب لكني إذا ... نظرتُ فما في الكف غيرُ الأنامل
فيا ليتني أصبحت مستغنياً ولم ... أكن فخر خوارزمٍ ورأس الأفاضل
وما بي مَرَضٌ صعبٌ ولكنني ... عدوي وأني في قهاهة باقل
وما حقُّ مثلي أن يكون مُضَيَّعاً ... وقد قُمتُ عند وزير وسائل
وأعظمها أني نَسِيبُ بصاحبه ... إذا عُرِضَتْ أنسابُ هذي القبائل
وقد كان يرعى الناسُ حق قبيله ... على عدم القُرْبى وبُعْدِ الوصائل
أحطيَّ منقوصٌ ولستُ بناقص ... وكم كاملٍ حظٌّ وليس بكامل
فلا تَرْضَ يا صدر الكفاة بأن ترى ... عُلَيَّ قومٍ أحقُّوا بالأسافل
ولا تجعلوني مثل همزة واصلٍ ... فتسقطني حذفٌ ولا راء واصل (١)
فكل مرى آماله عند الحصى ... وهامتي نظيري في جميع المحافل
لئن كان أمري في خوارزم ما أرى ... فإني رحالي في ظهور الرواحل
وكم قد أقمت في ورشت لمى ... وأدركُ وحدي ما ارتجى كل آمل
ولم أدر أن الأرذلين يرون ما ... تمنوا وأني لست أحظى بطائل
فوقِّع إلى هذا الزمن فإنه ... غلامك يحملني كبعض الأراذل

(١) أي لا تهملني كما يهمل المتكلم همزة الوصل وكما أسقط واصل بن عطاء الراء من كلامه

لكن الزمخشري لم يظفر من نظام الملك بما أراد، فقد عسى أن يكون السبب أو الأسباب في هذا الإخفاق ؟

قد يرجع إخفاقه إلى أن نظام الملك سُنّيّ تعلم الحديث وعمه وأملاه، وافتتح المدارس لتعليم الشريعة على مذهب أهل السنة، ولكن الزمخشري معتزلي مكشوف بمعتزليته مشهور به

وقد يرجع أيضاً إلى أنه في مدائحه ومطالبه كان يمزج طلبه بألوان من العتب على نفسه، ومدحه بعمه وأدبه، والتعريض بغيره، ولوم الملك على تقصيره وتعاصيه عنه، وكان كالآمر الذي يتوقع أنه لا بد من أن يطاع.

وحينئذ اجتمع اليأس من المقام بخوارزم، حيث لا منصب ولا مال، والعزم على الرحيل عن الوطن الذي ولد به ونشأ فيه، وكل ذلك يعسى صوره في قوله[1]:

أحبُّ بلاد الله شرقاً ومغرباً ... إليَّ التي فيها غُذيت وليدا
ولكن تُوامِي بالكرامة غيرُها ... وهذي أرى فيها الهوان عتيدا
وما منزل الإذلال للحر منزلاً ... وإن كان عيش الحر فيه رغيدا
سأرحل عنها ثم لست براجع ... وأضرب مرقّيَّ في البلاد بعيدا
فلا كنتُ إن حيّيتُ فيها ابن حرة ... ولا عشتُ بين الصالحين حميدا

فإلى أين يتجه ؟

لقد اتجه إلى إقليم آخر من أقاليم الدولة السلجوقية هو خراسان ؛ فاتصل ببعض رجال الدولة هناك، ومدحهم، منهم مجير الدولة أبو الفتح علي بن الحسين الأردستاني نائب تاج الدولة على ديوان الإنشاء في عهد السلطان أبي الفتح ملكشاه، وكاتب الرسائل المشهور في ذلك العصر، وقد مدحه، وتطلع إلى أن يقرأ كتابيه (شرح أبيات سيبويه) و (الأنموذج) فقال[2] :

(١) الديوان ٣٧ .
(٢) الديوان ٢٣ .

فقصد مُجير الدولة المستجار لي ... مداواة أدواء وأسْوُ جرائح
بطاشيّ آمال ناص وجوزا ... بكسر مهيض عضوب لموذج
غدت بي عيسٌ أيمنت بصحته ... فأتبعَ في عقباه غير ناجح
وقد صح عندي أن من مساعي ... يد صنعت كل يد بمدح
وفي شرح أبيات (الكتاب) لبعض ما ... يرى في صفاق مخفّ ناجح
و(أنموذجاً) أعلقتُ منه بصمه ... رجائي أرى فيه وجوه المسامح
أراقب من عيني الوزير اطّلاعةً ... عليه وحسبي منه لمحة لامح
جميعُ نُيوب الدهر تبغي حديدها ... وتشقى على الأيام ثوب المدائح

ويلاحظ أنه صور نفسه سقيماً جريحاً مهيض الجناح، ويريد مجير الدولة برؤه وردّ القوة إليه، وأنه يتمنى أن يلحقه بعمل عمده ليبوء كعدته التي لا مثيل لها، وهو إذ يقدم كتابيه في النحو وهما شرح أبيات كتاب سيبويه والأنموذج[1] شاهدين على عمه يشرئب إلى نظرة من الممدوح راعية، أو إلى لمحة حانية.

وله في مدحه قصيدة أخرى[2]

ومدح في خراسان مؤيد الملك عُبَيْد الله بن نظام الملك، وكان رئيس ديوان الإنشاء أيام السلطان أبي الفتح ملكشاه، وكان بديعاً في الشعر والنثر، ومتنوقاً على إخوته، وردد في مدحه أمله في منصب كبير يلائم كفاءته كقوله[3]

إليك عبيد الله أشْجَى شكايتي ... نكاية دهر يَمْتَحِي بصمه
بحقك فارحمه ومُرْه لينتهي ... فأمرك أمضى من موصى سله

(١) سأعرض لهما في مؤلفاته .
(٢) ديوانه رقم ٣ ص ٢٠٧
(٣) ديوانه الخطي ٩٧

أمت الذى الديوانُ طوعُ حكمه ... وذلك طـــوقٌ فى وقاب رحابه
وأمت الذى إن قال شئتُ يريده ... فما فيهمُ من يثنى عن مقـــاله
وكم مدحه له[1].

وكـــان محمد بن خوارزم شاه، وملك خراسان ممتداه، ولم تكن حاله بها خيراً من حاله فى خوارزم، فسئم المقام، وارتحل إلى أصبهان عاصمة السلاجقة، وكان ملكها محمد بن أبى الفتح ملكشاه مشهورا بالعدل وحسن السيرة والشجاعة، وهو الذى قضى على الباطنية، وملك حصونهم، وخرب ديارهم، ومحا آثارهم[2]، وهذا ما مدحه الزمخشرى بالعدل والسؤدد ونصرة الحق وحمايته للإسلام فى قوله[3]:

محمـــد بن أبى الفتح الذى تركتْ ... أوصـــافه كلَّه فى كل مِنْبَرِ
ابن السلاطين من آبائه سلجوق ... وابن العطارف منهم والعطارف[4]
لله من عادل من حقّ سيرته ... ونَصْرِه الحقَّ أن يُثْنَى ويُعْرَوف
مستوجبٌ من جموع الشرك مَبْغَضةً ... محبَّبٌ فى بنى الإســـلام مرموق

ومرت سنوات بعد حكم أبى الفتح ملكشاه (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) وإذا بالزمخشرى يمدح السابع من ملوك السلاجقة، وهو معز الدين سنجر (٥١١-٥٥٢هـ) بقصيدة[5] تبدو صنعولة عواطفها، واعتمادها على محاكاة القدماء فى معانيهم، والجنوح فيها إلى المدائح.

سمـــاه كل الناس كعبة مُؤْدُدٍ ... أهـــل الحوائج منهمُ حُجّاجُها

(١) الديوان ٢٢، ٣٥، ٨٩، ١٠٦
(٢) الكامل لابن الأثير ١٠/١٨٥
(٣) ديوان الزمخشرى ٨٦
(٤) العطارف جمع عطرف، وهو سيد القوم، أو عربى محض أو عربى وهو الشاب الأبيض الجميل
(٥) ديوانه ٢

وكأنما السلطان مستحر كعبة ... للملك مُنْتَجَعٌ[1] الملوك ورتاجها
ركبَ الشياسة وهى أصعبُ مركبٍ ... فتضاءلتْ دون ركوبه أفراسها
أبيتْه دونهمُ ما إلحامُها ... إلا على يده ولا إسراجها
لو أنه ركب النجومَ لما نَبَتْ ... أفرادها عنـــه ولا أزواجها
خَبَرٌ تخالُ للبيـــد طائقَ إذا ... ضـــمنته ترلت به أفواجها
يجـــرى وهو ســـفينة تمخـــر ... مثل البحـــار تلاطمت أمواجها

يمدح قوله:

تحرى حقيقةَ فى أمورك كلهـــا ... إن الحقيقةَ واضحٌ منهاجها
لو أن عـــدلك شُبِّهَ بمياهها ... لاوتدَّ كالعـــذب الفراتِ أجاجها

على أنه اتصل بخوارزم شاه محمد بن نوشتكين (٤٩٠ ٥٢١ هـ) ومدحه، وأشار فى كتابه (مقدمة الأدب) برعاية ابنه أنسز (٥٢١ ـ ٥٥١ هـ) للعلماء والأدباء، لأنه أمر بنسخ هذا الكتاب لخزانته.

ثم رجع إلى نفسه فى مرضته التى مرضها سنة ٥١٢ هـ ووصفها بأنها داهكة[2] ومدنفة، فعاهد الله إن من عليه بالصحة ألا يطأعتبة سلطان، ولا يتصل بخدمة سلطان، وأن يريأ نفسه ولسانه عن مديحهم، وأن يقف عن التطلع إلى عطياتهم والأمل فى مناصبهم، وأن يعكف على التأليف والتدريس[3].

فلما شفاه الله شخص إلى بغداد، وناظر بها وسمع من علمائها[4] الذين سنحى ذكرهم

(١) اسم فوزيره
(٢) الداهكة: الشديدة
(٣) مقامات الزمخشرى ٥
(٤) تاريخ أبى الفدا ٣/١٦

وما لبث أن أحسّ نسمو نفسه ، وتتطلعها من أوهاق الطامع ، فاتجه إلى مكة مشوقا راجيا الصفح من ربه عما فرط منه ، معتزما أن يقيم بها متردداً على بيت الله ، إلى أن يحم القضاء ، فناجى نفسه فى الطريق بقوله[1] :

[illegible]	إلى إلى البلد الحرام مسافر
إن هاجر الإنسان عن أوطانه	فالله أولى من إليه يهاجر
وتجارة لأبرار تلك ومن يبع	بالدين دنياه فعم التاجر
[illegible]	فلعلى لك يا بقيعة عامر
فى طاعة الجبار أبذل طاقتى	فعسى فيها لكسرى جبر
سأروح بين وفود مكة وفداً	حتى إذا صدروا فما أنا صادر
بفناء بيت الله أضرب خيمتى	حتى [illegible]
ألقى العصا بين الحطيم وزمزم	لا تُعصى بحرمه وعشر
صيفاً لمولىً لا يُحلّ مصيفه	و[illegible]
حسبى جوار الله حسبى وحده	عن كل معجزة يعدُّ الفاخر
سأقيم ثم [illegible]	ولسوف يبعثنى هناك الحاشر

وهناك فى مكة كان الأمير أبو الحسن على بن حمد بن وهّاس الشريف الحسنى[2] ، وكان ذا فضل غزير ، وله مصانيف مفيدة ، وشعره فى النظم والنثر مجيدة[3] ، فرحب بالزمخشرى ، وعرف قدره ، ورفع شأنه ، وأقبل على الاستفادة منه ، كما استفاد منه الزمخشرى[4] .

(١) ديوان الزمخشرى ٤٢ .
(٢) معجم الأدباء ١٤/٨٥
(٣) إنباه الرواة ٣/٢٨٦ ، ومعجم الأدباء ١٤/٨٥ .

ولقد صدقت نفس الزمخشرى إلى الإقامة فى مكة ، وإلى التردد المستمر على بيت الله الحرام ، وإلى تكريم الأمير ابن وهّاس ، فمدح بالأمير[1] مدحا ينبىء عن صدق العاطفة والمحبة والشكران ، كقوله :

فتى هو حبل بالمعالى بأسره	وقد حليت منه المعالى بأوحد
[illegible]	بقيّات أعراق أطابته مولدا
[illegible]	ضّ كفاه بالنبوة محتدا
[illegible]	سهيده حق له سيد الحمد
هو الخير ما أصدّى إلى بيض معشرى	فأبصره إلا نقعت به الصدى
ولى منه نُصْحُ الجيب والعقدةُ التى	أبت أن يرى الراءون أوثق منعقدا
ولولا ابنُ وهّاس وسبقُ فضله	رعيتُ هشيماً واستقيت مُصَرَّدا

وكان ابن وهاس يمدح الزمخشرى ، فمن مدحه قوله[2] :

وكم للإمام الفرد عندى من يدٍ	وهانيك مما قد أطاب وأكثرا
أحى العزمه البيضاء والهمة التى	أنافت بها ، علاّمة العصر والورى
جمع فرى بدت سوى الفرقد التى	تتوّأها داراً فقد زمخشرا
وأجرِ[illegible] بأن تُرقى زمخشرُ بامرئ	إذا عُدّ فى أسد الشرى زمخ الشرا[3]
فولاه ما طنّ السلادُ بذكرها	ولا طار فيها منحداً ومُغَوِّرا
فسل ثناها بالعراق وأهله	تأعرف منه بالحجاز وأشهرا

وفى أيام مقامه بالحجاز زار همدان ، ومدح آل زرير ، فقال فى إحدى قصائده[4] :

(١) ديوان الزمخشرى ٢٢ ، ٧٤ ، والنجوم الزاهرة ٥/٢٢٤ .
(٢) معجم البلدان ٤/٤٠٠ ، وإنباه الرواة ٣/١٦٨ ، والقاموس المحيط مادة زمخشر .
(٣) الشرا : ما حده ، وزمخ : تكبر . (٤) ديوان الزمخشرى ١١٥ .

كم قلتُ في خُوَرَانَ عند ترحّلي ... لركائبي سيري إلى همدانا
لو لم أقل سيري إلى همدان ما ... همدتْ بنا في سيرها همدانا[1]
وعلى وبير ما ثرى ثيابهم ... إلا على الفصّات من سهلانا

وصوف في حديثه العرب، لأنه يقول: وطئت كل تُرْبة في أرض العرب، فوجدت تربة أطيب التراب، وهي واد على مسيرة أربع ليال من الطائف، ورأيت ناساً من أهلها[2].

ولكنه بعد أن أقام بمكة نحو سنتين شاقه وطنه، فرحل إليه، ثم لام نفسه أشد اللوم، وبكى أحر بكاء، وصور هذا في عدة قصائد منها قوله[3]:

بكاء على أيام مكة إنني ... يهيج حنيني نَسْمَةٌ أو تذكّرُ
تذكرت أيامي بها فكأنني ... قد استنشق الريّا لأسه في عصري
أبيت على الصخر المبارك باكياً ... كأنّ حنيني عكّي على صخر

وقوله[4]:

قنوعٌ بعور السقوة حسبُ ... وشمس بدين بدنيه دأجرى
إذا خطرت بالبال ذكرى إياختي ... على حرّه مستقرّين بذكرى
وأدعسو إلى السُّلوان قلباً جوابُه ... لداعيه مُهراقٌ من مقلة العبرى
وما عُذرُ مطروح بمكة رحلهُ ... على غير بؤس لا يجوع ولا إيعرى
فما فرّ عنها يبتغي بدلاً لها ... ورُبّك لا عُذراً وربك لا عذرا

(١) ليس في أساس البلاغة ولا في القاموس معنى يلائم وضع همد في البيت، لأن أحمد بمعنى أقام وبمعنى أسرع، والمراد هنا الإسراع، فيكون أصوب أحمدنا حماداً لا همد همداناً.
(٢) أساس البلاغة مادة ترب.
(٣) الديوان ٤١
(٤) الديوان ٤١

لم يكن يدعو العزم على العودة إلى مكة، فقيل له: قد زرت أكثر عمرك هناك، فما لموجب؟ فقال: القلب الذي لا أحده هناك أحده هناك[1]. ومعنى هذا أنه لم يكن يجد طمأنينة نفسه وراحة ضميره إلا في مكة.

هذا هو ذا ينطلق إلى مكة، وفي طريقه إليها يعرج على الشام، فيمدح تاج الملوك بوري طغتكين صاحب دمشق، ولم يكن هذا المدح للرفق أو لاستدرار عطفه، بل كان خالصاً لوجه الله، لأن بوري كان معروفاً بكره هيئته للباطنية، حتى إنه قتل منهم ستة آلاف، وكان قد حمى المسلمين من الصليبيين، إذ جمع العرب والتركمان لصدهم عن دمشق وهزمهم سنة ٥٢٣ هـ[2] (١١٢٨ م).

والراجح أنه أقام بالشام مدة، لأنه مدح شمس الملك الذي خلف أباه سنة ٥٢٦ هـ[3].

وفي السنة نفسها سلك الطريق إلى مكة فبلغها، وقضى بها ثلاث سنوات، لقي فيها من ابن وهّاس ما كان يلقاه من قبل من حفاوة وتعظيم، وكان ابن وهّاس يوافقه في مذهبه، فشجعه على تأليف تفسيره الكشاف[4]، فحُقّ له أن يمدح ابن وهاس بقوله:

بمكة آحتُ الشريف وقبلهُ ... تُواليه من آل النبي عصارفا[5]
بتابع إن نوظِرْتُ وَدّاً لشاعب ... وبهمس إن ذوكرْتُ وَدّاً مكاتف
متى أفعل العلّامة انتفعوا له ... وحَبّوه، حيّا الله تلك المعارفا

(١) بغية الرواة ٢٦٦/٢.
(٢) الكامل لابن الأثير ٢٣٤/١٠، ٢٤٣.
(٣) ديوان الزمخشري ٧٩
(٤) مقدمة الكشاف وديوان الزمخشري ٢٤،٢٧.
(٥) ديوان الزمخشري ٧٩.
(*) عصارف: جمع عصريف وهو السيد الشريف.

وكان ابن وهّاس لحبي قرشاً كما تعطل الأم الحفيه لاحف
وتمّ لي الكشاف ثمّ سلدة بها هبط التنزيل للحق كاشف
على باب أحيدٍ بني لي منزلاً كركن شمام بالصّفا متواصفاً[1]
وأنشد في بعض مقاماته من قلائده تقلائد و[illegible] حقه

ولم يكن عربيا أن يقول في قصيدة أخرى[2]

زأرتَ وراء دين الحق زأرا وهد بحدّ كلك نعمى
ومن بعصب لدين الله يحمع مراصيه إلى الأجسر النّبيّ
وليس الجسر والتشبيه إلا بقيسة إرث دينٍ جاهليّ
فقم بالعدل والتوحيد فيه تُقِمْ بابن النبي هُدى النبي

وحينئذ يبدو أنه اطمأن وهدأ، وصور فرحته في قوله[3]:

أنا الجارُ جار الله، مكة مركزي ومضرب أوتادي ومعقدُ أطنابي
وما كان إلا زورةً نهضتي إلى بلاد بها أوطان رهطي وأحبابي
فما قصت نفسي ولله درُّها — لُبانةَ درٍّ زدتُها غير حياب
كررتُ إلى بطحاء مكة راحماً كأني أبو شِبْلَيْنِ كرّ إلى العاب
فمَنْ مُنْقِذي في بعض القُرَيّات رحله فأُمّ القرى مُنْقِي رحالي ومُنتابي
ومن كان في بعض المحاريب راكعاً فقِبْلَتُه البيت المحرّمُ محرابي

ولكن هذا الرحالة الثقة اشتاق إلى وطنه ثانية، فسافر إلى خوارزم، وعرج على بغداد سنة ٥٣٣ هـ.

(١) شمام: جبل
(٢) ديوان الزمخشري ١١٦
(٣) الديوان ٥

ثم أقام بخوارزم إلى أن حم القضاء لليلة عرفة سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) [illegible] قصبة خوارزم على شاطىء نهر جيحون بعد رجوعه من مكة[1].

وقد زارا ابن بطوطه خوارزم في أوائل القرن الثامن الهجري، وقال: «تخارج خوارزم قبر الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، وعليه قبة».

(١) وفيات الأعيان ٤/٢٥٩، وشذرات الذهب ٤/١٣١، والبلغة، الرواة ٣/٢٦٨ وهو يسمى جرجانية، كركانج. وتاريخ أبي الفدا ٣/١٦.
(٢) مهذب رحلة ابن بطوطة ١/٢٩٨.

الفصل الثاني

أساتذته

سبق الزمخشري من مشايخ كثير من العلماء الذين عاصرهم، كما سبق من مؤلفات سابقيه

ومن أعظم أساتذته أثراً في نفسه أبو مُضَر محمود بن جرير الضبي الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٧ هـ، كان يلقب بعد العصر، ووحيد الدهر في علم اللغة والنحو، ويضرب به المثل في أنواع الفضائل. وقد درس عليه الزمخشري نحو و لأدب

قدم في حوا ه معتقد. فاجتمع الناس بعلومه ومكارم أخلاقه، وأخذوا عنه جماً كثيراً، وتخرج عليه جماعة من الأكابر في النحو واللغة، وهو الذي أدخل على جوا زم مذهب المعتزلة، ونشره بها، فاجتمع عليه الخلق لجلالته، وتمذهبوا بمذهبه، ومنهم أبو القاسم الزمخشري [1]. وقد توسم أبو مضر في تلميذه الذكاء والحدة وخصارة بأن يخلفه، فتعهده بعلمه، ورعاه بماله، يدل على هذا قول الزمخشري لنظام الملك [2]:

إليك نظام الملك شكواي فاستمع ... بن ... محمود معشر صنعكم

وما لي إلى الضيم حين ... ت ... ما ... ذمي مركب ...

وكان الزمخشري محبّاً لأستاذه أبي مضر، وقد لقيه بعد سنة ٥٠٧ هـ وزاره بعوله [3]

... معجم الأدباء ١٩/٣٢ وشذرات الذهب ... ووفيات الأعيان ... ٣٥ و ... ٣٨١ (٢) الديوان ٩١. (٣) الديوان ٦٤.

فقد لطمى هات كل ذخيرة ... فى أخذه ما زلت أذخر للذخرا

وأبرز كريمات القوافى وعرّها ... فسه استفدنا العلم والعظم والثرا

ورثاه بقوله [1]

وقائلة ما هذه الدُّرَرُ التى ... تناثر من عينيك يتصل السمط

فقلت لها: الدر الذى كان قد حث ... أبو مُضَرٍ أدنى تساقط من عيني

وعلق عليها الدمعي بقوله: هذا مثل قول القاضي أبي بكر الأرّجاني:

ولم تكن إلا حديث فراقهم ... لما أسرّته إليّ أدمعي

هو ذلك الدر الذي أودعته ... في مسمعي أخرته من مدمعي

ولا ... من ... لأبيه كما ... [2]

ثم رحل إلى بخارى ليستزيد من منهل علمائها [3]، وكانت ما تزال مدينة العلم السامانية، ولها صيت ... في العلم، حتى إن الثعالبي يقول: إنها كعبة طلاب العلم، ومطمح نجوم أدباء الأرض [4].

كتب عنه الحافظ ... شيخ الإسلام أبي منصور نصر الحارثي، ومن أبي سعد الشقاني [5]، ومن أبي الخطاب بن أبي الطر [6]

---

(١) الديوان ٥٢، ووفيات الأعيان ١/٣٥٨، ومعجم الأدباء ١٩/١٢٤ مع بعض ... وشذرات الذهب ٤/١٢٠، ومرآة الجنان ٣/٢٧٠، وإنباه الرواة ٣/٢٦٧.

(٢) ... ٣/٢٧٠

(٣) ... ٢/١٠٧، ومعجم الأدباء ١٩/١٢٧

... للعبر ...

(٥) معجم الأدباء ١٩/١٢٧ وبغية الوعاة ٣٨٨

لم أعثر على ترجمة للحارثي في كتب الطبقات والتراجم، وأما الشقاني فتح الشين على المشهور وتكسرها على الصحيح، لم أجد فيمن يعرف بهذه النسبة من يكنى أبا سعد أو أبا سعيد، بل وجدته من المشهورين بالحديث أبا الفضل العباس بن الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن الشقاني المتوفى من أهل سمرقند، وكان فقيهاً محدثاً أنفق عمره في الكتابة وسماع الحديث وصحبة الأكابر، ولزوم المجالس، والوقوف على الشاغ، وإفادة الصبيان والشبان، وكان أحد من أفنى آباؤه لأمهم. توفي أبو الفضل سنة ٥٠٦ هـ (الأنساب للسمعاني ورقة ٣٣٦)

(٦) طبقات المفسرين ٤١ لم أعثر له على ترجمة في كتب التراجم والتاريخ

وقد أخذ الأدب عن أبي علي الحسن بن المظفر النيسابوري[1]

وتجد في تاريخه أنه اجتمع في بغداد بالفقيه الحنفي الدامغاني[2] وبالشريف ابن الشجري[3]. وقال القفطي[4] إن الزمخشري قدم خيف سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، ورأيته مرتين عند شيخنا أبي منصور بن الجواليقي[5] وهو يقرأ عليه شيئاً من كتب اللغة من فواتحها ومستجيزاً لها.

كذلك تجد في تاريخه أنه قرأ في مكة كتاب سيبويه على عبد الله بن طلحة اليابري[6]. فإذا صحت رواية القفطي أن الزمخشري قرأ على الحوالقي بعض

(١) معجم الأدباء ١٩/١٢٧. وكان الأصل (عن أبي الحسن علي بن المظفر) ولكني صوبته من المعجم نفسه ١٩/١٩١. والحسن هذا كاتب شاعر مؤرخ كان في عصره مؤدب أهل خوارزم ومحدثهم وشاعرهم ومقدمهم، وهو شيخ الزمخشري قبل أن يصير، وله مؤلفات منها [illegible] وسهيب صلاح المعنى، وتلخيص من اسمه الحسن (وهذا يؤكد أن اسمه الحسن) وزيادات أخبار خوارزم ودواوين شعر ودواوين رسائل (معجم الأدباء ١٩/١٩٠)

(٢) وفيات الأعيان ٣/٣٥٥ [illegible] وكان [illegible] وكان [illegible] وكان [illegible] (الأنساب ورقة ٤٢٩) وكان [illegible]

(٣) نزهة الألبا ٤٧٠ - ابن الشجري هو هبة الله بن علي أبو السعادات توفي سنة [illegible] ٥٤٢ هـ، وله من المؤلفات: الأمالي، والانتصار على ابن الخشاب، والحماسة ساماها به حماسة أبي تمام، وشرح اللمع لابن جني، وكتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه، وشرح التصريف الملوكي، وغيرها [معجم الأدباء ١٩/٣٨٢].

(٤) إنباه الرواة ٣/ ٢٧

(٥) هو موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي، كان إماماً في فنون الأدب، وهو من مفاخر بغداد، درس الأدب في المدرسة النظامية بعد الخطيب [illegible] وكان إليه المنتهى في اللغة أمثل منه في النحو، وكان متواضعاً من أهل السنة، وله حسن التصنيف المفيد في الغريب وغيره، مثل شرح أدب الكاتب، والمعرب من الكلام الأعجمي، والتكملة فيما يعني فيه الجوهري، وكان به قرء القوس للجوهري، ولد سنة ٤٤٦ هـ وتوفي ببغداد سنة ٥٣٩ هـ (وفيات الأعيان ٤/٤٢٤، ومعجم الأدباء ١٩/٢٠٥، وبغية الوعاة ٤٠١).

(٦) بغية الوعاة ٢٨٤ وطبقات المفسرين ٣١. هو نحوي أصولي فقيه توفي سنة ٥١٨ هـ [illegible] ٢٨.

كتب بغداد سنة ٥٣٣ هـ [illegible] وهو [illegible] من عمره، وقبل أن يودع الحياة بخمس سنوات، لم يأنف أن يجلس [illegible] ليستزيد، مع أنه بعد مرجعه سنة ٥٦٢ هـ زار بغداد وتطرق [illegible] وأخذ كثيراً من كتبه.

(١) [illegible] ج ١ ص ٢٠

الفصل الثالث

تلاميذه

كان الزمخشري صادرا إلى الثقافة يتردد على مناهلها، ويرتوي من رحابها، ثم كان له تلاميذ عطاش إلى منهله، يسرعون إليه في كل بلد حله، فيستقون منه، ويحرون ما استقوه حداول تنفع غلة الناس.

يذكر القفطي[1] أنه دخل خراسان، وورد العراق، وما دخل بلدا إلا اجتمع الناس عليه، وتلمذوا له، واستفادوا منه. ويقول إنه أقام بخوارزم تضرب إليه أكباد الإبل، وتحط عنده رحال الرحال، وتحدى باسمه مطايا الآمال.

ويذكر ياقوت أنه قدم بغداد، في طريقه إلى الحج فاجتمع الناس حوله ليسمعوا منه[2].

وهؤلاء التلاميذ كثير، منهم بزمخشر أبو عمرو عامر بن الحسن [illegible] أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلي، وأبو نصر الحسن عبد الرحيم بن عبد الله الخراز، وسمرقند أبو سعد أحمد بن محمود الشقي، وغيرهم[3]. ومنهم بخوارزم أبو طاهر سلمان بن عبد الملك الفقيه، و[illegible] بن أحمد بن أبي سعيد المعروف بأحطب خوارزم، كان متمكنا في [illegible] العلم فقيها أديبا شاعرا[4]، ومنهم علي بن محمد التمراني الخوارزمي،

(١) [illegible] ٢٦٦
(٢) [illegible] ١٣٨
(٣) [illegible]
(٤) [illegible]

أبو الحسن الأديب، الملقب بحجة الأفاضل وفخر المشايخ، المتوفى حوالي سنة ٥٦٦ هـ، قرأ الأدب على الزمخشري فصار أكبر أصحابه وأوفرهم حظا من غرائب آدابه، وجعل أيامه في آخر عمره مقصورة على [illegible] يرجع الناس إليه في حل المشكلات وشرح المعضلات، وكان مولعا بالتشيع [illegible]، وهو مع علمه الغزير وفضله الكثير علم في الدين والصلاح، وكان [illegible] مذهب المعتزلة، وله تصانيف حسان منها: كتاب [illegible] وكتاب [illegible] القرآن، وكتاب اشتقاق الأسماء[1].

وتلمذ له محمد بن أبي القاسم بابكوك، أبو الفضل البيهقي الخواري الأدمي الملقب زين المشايخ (٥٦٣ هـ) النحوي الأديب، كان إماما في الأدب، وحجة في لسان العرب، أخذ اللغة وعلم الإعراب عن أبي القاسم الزمخشري، وجلس بعده مكانه، وسمع الحديث منه ومن غيره، وله من التصانيف [illegible] تقويم اللسان في النحو، والإعجاب في الإعراب، والمسرية في معاني واسين، وكتاب منازل العرب، وشرح أسماء الله الحسنى، وغير ذلك[2].

وتلمذ له أبو يوسف يعقوب بن علي بن محمد بن جعفر اللحمي، أحد الأئمة في النحو والأدب، أخذ عنه ولازمه[3].

ومن تلاميذه علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس، من ولد سلمان بن حسن ابن علي بن أبي طالب، كان شريفا جليلا هماما من أهل [illegible] وأمرها، وكان ذا فضل غزير، وله تصانيف مفيدة، وشرحه في النحو والشعر مجيدة، قرأ على الزمخشري بمكة، وبرز عليه، وصرفت أعنة طلب العلم إليه،

(١) معجم الأدباء ١٥/٦١ وبغية الوعاة ٣٥٠
(٢) معجم الأدباء ١٩/٥
(٣) معجم الأدباء ٢٠ / ٥٥

(توفى سنة [illegible] وخمسين وخمسمائة)[١] وهو الذى مدحه بأبيات منها [illegible]

[illegible] وله [illegible] عندى [illegible] [illegible] وأكثر [٢]

ومنهم [illegible] الشعرى التى أجازت ابن خلكان[٣].

ومنهم [illegible] محمد بن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كان [illegible] فى الشعر والنثر ، وكان يمشى فى وقت [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ورسية من بحر آخر ، وعليهما معا ، وكان شعر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ابنه علاء الدين تكش ، وله مصنفات منها حدائق السحر فى دقائق الشعر[٤].

وحينما كان بمكة مجاورا كتب إليه الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفى من الإسكندرية يستجيزه فى مسموعاته ومصنفاته ، فرد عليه بما لا يشفى [illegible] ، فلما كان العام الثانى كتب إليه رسالة أخرى مع الحجاج [illegible] . قال فى آخرها : « ولا يحوج — أدام الله توفيقه — إلى المراجعة [illegible] . وقد كاتبته فى السنة الماضية ، فلم يجب بما يشفى الغليل ، وله فى [illegible] الأجر الجزيل » . فرد عليه الزمخشرى فى تواضع وتهرب من الإجازة ، وقد ذكر ابن خلكان أكثر رسالة الزمخشرى ، وعقب عليها بقوله : ما أعلم هل أجازه بعد ذلك أو لا[٥] ؟

[illegible] [illegible] كانوا كثرة ، وأن قراء مؤلفاته كانوا يقدرون علمه ، لأنه كان فى عصره كما قال القفطى علامة الأدب ، ونسابة

(١) معجم الأدباء ١٤/٨٥ ، وإنباه الرواة ٣/٢٦٨
(٢) معجم الأدباء ٤/٤٠٠
(٣) وفيات الأعيان ٤/٢٥٧
(٤) معجم الأدباء ٣/١٠٣ ، ١٩/٢٩
(٥) وفيات الأعيان ٤/٢٥٦ ، وشذرات الذهب ٤/١٢٠ ، وبغية الوعاة ٣٨٨ ، ومعجم الأدباء ١٩/١٢٢

العرب ، وكان أعلم فضلاء العجم بالعربية فى زمانه ، وأكثرهم أنسا واطلاعا على [illegible] [illegible] [illegible] من هؤلاء [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] ... [illegible]

زمخشرى [illegible] ... [illegible]

كالحجر إن لم أره [illegible] ... [illegible]

[illegible] الزمخشرى [illegible]

شعره أمطر شعرى [illegible] ... [illegible]

كيف لا تستأسد [illegible] إذ ... [illegible] لأسد[٢]

ومنهم [illegible] أبو [illegible] محمد [illegible] دولة السلطان السلجوقى [illegible] [illegible] رسالة وقصيدة وهو فى مكة ، من قصيدته قوله[٣]

[illegible] ... ويسكرنى لرؤيتك التراع

[illegible] ... عما أبانت عنه واطلاع

[illegible] كل [illegible] ... ومن دُرّ العلوم بك ارتضاع

[illegible] ... تسير بك الأماكن والبقاع

[illegible] ... [illegible] فى كل ناحية شعاع

(١) [illegible] ٣/٢٦٦ ، ٢٧
(٢) [illegible] ٣/٢٧١
(٣) إنباه الرواة ٣/٢٧٢ .

الفصل الرابع

مؤلفاته

نشأ في خوارزم ، وهي إقليم إسلامي كان حيويته يتطلب [illegible] ، وبدون أن يتخلى [illegible] فيه يقول : « إن خوارزم [illegible] من أهل العلم والأدب ، فهم [illegible] معهم دائم ، والتقال بينهم قائم ، قد أحصوا في [illegible] وأحصوا عن طوياتهم ، وقد تكفل الله بنصرهم في [illegible] وبتحبيبه [illegible] في كفه ، فهم [illegible] يحتوون [illegible] غير [illegible] ، ولا سلك مسافته سالك إلا كان على يأس من سلامته »[1] .

وقد كان لهذا أثر عميق في حماسة السكان وحمية الزمخشري نحو أمته ، فهم يغارون على دينهم أن يمسه أذى أو عدوان ، وهم أيقظ للدفاع عنه ، وهذا حرد الزمخشري قلمه للتأليف في ميدان اللغة العربية والشريعة الإسلامية .

وكانت النهضة العلمية والأدبية التي بلغت أوجها في القرن الرابع ما تزال قوية الدفع ، بعيدة الآثار ، وكانت الدول التي انفصلت من الحكم العربي كالدولة السامانية و[illegible] سنجوقية والدولة الخوارزمية تحدو في الازدهار

(١) ربيع الأبرار : الجزء الثاني . مخطوط

العلمي والأدبي [illegible] وقوة وشهرة لحسن الأحدوثة بين [illegible] ، فقد إليها العلماء ، وشجعت على التأليف والتعليم كما سبق في تصوير [illegible] الثقافية .

وكان الزمخشري منذ صباه مشغوفا بالدرس والبحث ، وقد نهج بالعلوم العربية والإسلامية امتزاجا شغل قلبه ، وامتلك نفسه وكان أعز لانصرفه عن التأليف شواغل الآباء بالأسرة والأبناء .

لهذا كله فرغ للعلم ، فتهمرت عليه سحائب العلم ، ومنح الثقافة جهده ، فجادت عليه الثقافة بأوفر نصيب ، وحبس على التأليف نشاطه فكثرت مؤلفاته وتنوعت ، وخلد كثير منها إلى اليوم .

ويصح من كلامه أنه كان يختص مؤلفاته بإعزاره وحمه ، حتى لقد اتخذ منها أبناءه البررة ، ستعاض بها عن النسل ، وفضلها على البنين والبنات ، لأنها مبرأة من العقوق والشاكلة ، فقال[1] .

كم بين ذي مسلك طهور ... وسالكٍ تمسلك الحساسه
من ناس أبناءه فإن ... هؤلاء البنين ساسه

(١) ديوان الزمخشري ٢٦ .
(٢) يريد أن أمهم الحقيقة هي الدراسة .

وقد ذكر مؤلفاته أكثر الذين ترجموا له[1] ... مجموعات ، مناسقة ثم أعرض لها بالتحليل فيما يعد :

(١) فى العلوم الدينية ورجالها

١ — الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

طبع أول مرة بالمطبعة البهية المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ فى مجلدين ، وبهامشه كتاب (الانتصاف من الكشاف) لناصر الدين أحمد ابن محمد بن منصور الإسكندرى المالكى المشهور بابن المُنيِّر ، ثم طبع بعد ذلك

٢ رءوس المسائل (فى الفقه) غير معروف

٣ — معجم الحدود (فى الفقه) غير معروف

٤ - المنهاج (فى الأصول) غير معروف .

٥ — رسالة النشد والرقص فى علم الفرائض . غير معروف .

٦ — مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة . (الأصل لأبى سعيد الرازى إسماعيل . غير معروف) .

٧ — شقائق النعمان فى حقائق النعمان (فى مناقب أبى حنيفة) . غير معروف

٨ — ... فى لغى (أو معانى) من كلام الشافعى غير معروف

---

(١) وفيات الأعيان ٢٥٤ . ومعجم الأدباء ٩ ١٢٤ ، وخزانة الأدب للبغدادى ٤ ١١٢ وبغية الوعاة ٣٨٨ ، وإنباه الرواة ٣ ٢٦٦ ، وشذرات الذهب ٤ ٤٦ ، وابن خلكان ... حاشية زيدان ٣ ٤٨ .

٩ ... فى حكمة ... ذكرها حرجى ... ومخطوطة ...

(٢) فى اللغة

١٠ أساس البلاغة

طبع فى مجلد ... الكتب ... سنة ١٣٤١ هـ — ١٩٢٢ م.

١١ — ... فى غريب الحديث

طبع فى حيدر آباد فى مجلدين سنة ١٣١٤ ، وطبع فى ثلاثة مجلدات بمطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة ، بتحقيق الأستاذ على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم من سنة ١٣٦٤ هـ — ١٣٦٦هـ (١٩٤٥ — ١٩٤٨م)

١٢ — الجبال والأمكنة والمياه .

طبع فى مصر سنة ١٨٨٥ م فى مجلد واحد عدد صفحاته ١٦٩ مقسمة إلى فهارس فى ٣٢ صفحة وترجمة إلى اللاتينية فى ٣١ صفحة

١٣ - أعجب العجب فى شرح لامية العرب .

طبع الطبعة الأولى بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية
وطبع الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ فى ٦٦ صفحة من القطع المتوسط .

١٤ — شرح مقدمة الزمخشرى .

طبع الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٣١٢هـ ، والطبعة الثانية بمطبعة التوفيق بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ فى ٢٣٨ صفحة من القطع المتوسط .

١٥ المستقصى فى أمثال العرب .

يحتوى على ٣٤٦١ مثلا ، طبع الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند سنة ١٣٨١ هـ ١٩٦٢ م فى مجلدين كبيرين

١٦ - جواهر اللغة . غير معروف

وجاء فى أسماء مؤلفاته كتاب الأسماء ، وأرجح أنه جزء من مقدمة الأدب، لأن القسم الأول فى الأسماء ، والقسم الرابع فى تصريف الأسماء

١٧ — منشئة أسامى الرواة. غير معروف . ولعله المقصود بقول ابن حجر العسقلانى رأيت له مصنفا فى سمته فى مجلد واحد، وفيه فوائد جليلة.

١٨ صميم العربية . غير معروف .

١٩ — معجم عربى فارسى [illegible] سنة ١٨٤٣[1]

(٣) فى النحو

٢٠ - المفصل .

ترجم إلى الألمانية وطبع سنة ١٨٧٣ ، وطبع فى كرستيانا سنة ١٨٧٩ م ، وطبع مع شرح موفق الدين يعيش [illegible] يعيش فى ليبسيك سنة ١٨٨٢م ، وبدائرة الطباعة لمير [illegible]

٢١ — الانموذج .

وهو مقتطف من المفصل ، طبع أول مرة بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ فى ٢٣ صفحة ، [illegible] الكتاب (نزهة الطرف فى علم الصرف) لأبى الفضل أحمد بن محمد الميدانى ، وبعده كتاب (قواعد الإعراب) لجمال الدين أبى محمد عبد الله بن يوسف بن هشام ، وطبع بمصر سنة ١٢٩٨ هـ .

٢٢ — شرح أبيات كتاب سيبويه

غير معروف . وليس شرحاً لكتاب سيبويه كما فى بعض المراجع . لأن الزمخشرى نفسه ذكر اسم كتابه كذلك[2]

٢٣ — شرح [illegible] المحوية أو لاحاجى النحوية.

---

(١) تاريخ الأدب فى إيران ٤٥٩

(٢) [illegible] المحشرى ٢٣

مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٨ ش نحو ، ١١٦ مجاميع ، ٠٠ نحو ، ٢٧ ورقة فى مخطوطة شنقيطى و ٢٥ فى مجموع

وهذا الكتاب ألغاز ومسائل نحوية يقصد بها المعاياة والأفاكيه

٢٤ - مقدمة الأدب .

أكثر فى النحو ، طبع القسم الأول والثانى منه فى مجلد واحد فى مدينة ليبسك سنة ١٨٤٣ م وطبع الباقى سنة ١٨٥٠م ، وبدار الكتب القسم الثانى والثالث والرابع والخامس فى مخطوط ٢٧٢ لغة فى ٢٢٠ ورقة (٤٤٠ صفحة) وبين سطور القسمين الأول والثانى ترجمة فارسية للكتاب .

٢٥ — نكت الأعراب فى غريب الإعراب (فى غريب إعراب القرآن) غير معروف .

٢٦ الأمالى فى النحو غير معروف

٢٧ — المفرد والمركب أو المؤلف . غير معروف

٢٨ شرح بعض مشكلات المفصل . غير معروف .

(٤) فى العروض

٢٩ — القسطاس [illegible] مخطوط فى ترجمة فارسية

(٥) فى الأدب

٣٠ — نوابغ الكلم .

حكم قصار متوالية ، طبعت الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤م) فى ٥٠ صفحة من القطع الصغير ، وطبعت طبعة أخرى بمصر سنة ١٩٢٧ م وطبعت فى باريس مع ترجمة إلى الفرنسية سنة ١٨٧٦ م بتحقيق س. كارلمير ميرد ، وطبعت فى إستانبول وبيروت

٣١ — مقدمات المحشى

جمع فيه مقدمة في النصح والإرشاد، موجهه كلها إلى نفسه، ولكل منها عنوان. وقد شرحها بقصه، وطبعت مع شرحه هذا برقم ١٤ في مقدمته.

٣٢ — أطوق الذهب.

مئة مقالة في المواعظ والنصائح والحكم ومكارم الأخلاق، كل منها في جملة أسطر، وليست معنونة. ترجم إلى الألمانية، وطبع مع الأصل في فينا سنة ١٨٣٥م، وفي ستتجارت سنة ١٨٦٣ م، وترجم إلى الفرنسية وطبع في باريس سنة ١٨٧٦ م، وطبع بشرح الشيخ يوسف أفندي الأسير، الطبعة الثالثة ببيروت سنة ١٣١٤ هـ في ١١٢ صفحة من القطع المتوسط، وطبع بشرح ميرزا يوسف خان المسمى بعنوان (فلائد الأدب في شرح أطوق الذهب) بمطبعة التمدن بمصر في ١٥٤ صفحة من القطع المتوسط سنة ١٣٢١ هـ

٣٣ — ديوان الزمخشري.

مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٩ أدب في ١١٩ ورقة (٢٣٨ صفحة) من القطع الكبير.

٣٤ — القصيدة النعوصية وأخرى في مسائل العرائي. مخطوط في برلين.

٣٥ — ربيع الأبرار ونصوص الأخيار.

مختارات شتى من الأدب والتاريخ والعلوم، مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٥ أدب في ٤٠٢ ورقة (٨٠٤ صفحة)، وله مختصرات كثيرة، وطبع بالقاهرة

٣٦ — النصائح الصغار والبوالغ الكبار

بعض مؤرخي الزمخشري أن له كتابين أحدهما النصائح الكبار، وقال جرجي زيدان إنه مطبوع بالقاهرة، والآخر النصائح الصغار، وقال جرجي زيدان إنه مخطوط في برلين وفي المتحف البريطاني

وكل وجدت الكتاب بهذا الاسم (النصائح الصغار والبوالغ الكبار) مخطوطاً بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٣٤٧٨، مع بوالغ الكلم، في ١٦ ورقة، وفي نهاية الكتاب فصل به مئة حكمة للإمام علي بن أبي طالب.

٣٧ — [illegible] مخطوط في [illegible]

٣٨ — [illegible] غير معروف

٣٩ — [illegible] غير معروف

٤٠ — [illegible] غير معروف

٤١ — [illegible] غير معروف

٤٢ — مئة لأسرار غير معروف

٤٣ — الرسالة الناصحة. غير معروف

٤٤ — سوائر الأمثال. غير معروف

٤٥ — رسالة المسألة غير معروف

(٦)

٤٦ — عقلاء الكل. غير معروف

٤٧ — كتاب الأحماس. غير معروف

ورثما كان الكتابان الأخيران في المنطق.

الفصل الخامس

معالم شخصيته

تطلق الشخصية على مجموعة الصفات الجسمية والعقلية والخلقية التي يتصف بها الإنسان ، سواء أكانت حسنة أم قبيحة .

وكثيرا ما نتميز إنسان من غيره بانطباع العام لهذه الصفات

وهذه الشخصية لها مصدران : الفطرة ، والتربية ، فهي إذن موهوبة ومكتسبة ، ولكن الفطرية أقوى .

وليس معنى هذا أن بعض من أثر التربية ، لأنها تعمل على تهذيب الفطرة وحدها لصرنا ضحايا الظروف ، ولفقدت التربية آثارها في بناء العظماء من رجال العلم والأدب والدين والفن .

وهذه الشخصية عناصر أساسية تقوم عليها : منها الذكاء ، والحدسية ، والمشاركة الوجدانية ، والشجاعة ، والحكمة ، والتفاؤل ، والتواضع ، وقوة البيان ، والثقة بالنفس والاعتماد عليها ، واعتدال المزاج ، والمظهر العام للجسم وحسن هندامه [1] .

فهل نستطيع تصوير الرجل على حقيقته ، ونكشف عن معالم شخصيته ، فنبين منه المحمود ومنه المذموم ؟ لأنه إذا عرف فوه صفته ... وعرف صفته فوه ... لأنه من الخطأ أن يتكلف مؤرخ لشخص أن يصفه

(١) راجع في غير هذا ص ٣٧

عليه هالة من الجلال والكمال ، فإذا اعترضه عيب تغاضى عنه ، أو تلمس له دفاعا فأعيا على التعمل ومجافاة الحق ، فإن هذا نهج متحيز ينكره البحث العلمي المنصف .

فسنقف الآن إلى إطار المعالم العامة التي نعرفها من شخصية الزمخشري .

(١) صفاته الجسدية

لم أجد فيما كتب عنه شيئا تحت إلى صفاته الجسدية من قرب ولا من بعد ، لأن كتاب التراجم القدماء كانوا كثيرا ما يتجاوزون هذه الأوصاف ، إذ كانت في نظرهم غير وثيقة الصلة بشخصية التي يترجمون لها

والشيء الوحيد الذي عرض له كثير من مؤرخيه أنه كان أعرج يمشي في بعض من حياته لأن رجله انصدعت في صغره من سقوطه كما سيجيء

ولعله قصد نفسه بقوله « كم رأيت من أعرج ، في درج المعالي أعرج ، ومن صحيح القدم ليس له في الخير قدم » [1] .

(٢) شغفه بالثقافة

كان الزمخشري ذكيا وشغوفا بالثقافة ، تنشر مخايله بمستقبل واعد ، حتى لقد أعجب أستاذ أو مصر بذكائه وحده ، فتعهده برعايته وتوجيهه ، وساعده بماله مؤملا أن يجلعه .

وكانت بيئته الخاصة والعامة مذكية لهذا الشغف ، فدرس في زمخشر أول مدرس ، ثم شخص إلى بخارى لينهل من مذاهبها ، ثم زار بغداد والشام ومكة ،

(م ٥ — الزمخشري)

وسمع من بعض العلماء ، وقرأ كثيرا من الكتب ، وبلغ من كلفه بالثقافة أنه وهو في السادسة والستين ـ كما ذكر القفطي [1] ـ قرأ بعض كتب اللغة على أبي منصور الجواليقي مستجيزاً لها .

ومن السهل أن نعرف من أسماء أساتذته ومن مؤلفاته أنه درس اللغة ، والنحو ، وأدب ، البلاغة ، والتفسير ، والقراءات ، والحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والمنطق ، دراسة التعمق ، ولهذا اعتز بدراساته ومؤلفاته ، وافتخر بها في قوله [2] :

[illegible]	وما أنا في علم الأحاديث راسف
[illegible]	وإني كتاب الله مني لعارف
[illegible]	فحسبي حلى لم يزل لي شائف
وما للغات العرب مثلي مقوم	أتى كل ذئب متقن أن يخالفا
ولي يستفيد النحو من أن يسوسه	شهي لم يجدها الذائقون حصائف
وعلما المعاني والبيان كلاهما	أرف إلى الخطاب منه وصائف
وعلم القوافي والأعاريض شهدٌ	نفسحه حلوى فيه إذ كنت راحف
أقرت لي الآداب أصلاً هاوعن	رأى مشرفيات جحدن المشارفا
وديوان منطوقي يريك بدائعاً	وديوان منثوري يريك طرائف

ويظهر من مؤلفاته أنه لم يستوعب أكثر ثقافة عصره فحسب ، بل ساهم في حقولها بشجرات شهيات الثمرات ، وقد سلكت هذه المؤلفات التي نستطيع قسمها بقسم ثقافته إلى عدة مناهج ، فتاحة دنية تتمثل في تفسيره (الكشاف) بما

(١) [illegible] ٢٧
(٢) ديوان الزمخشري ٧٨ .

يتضمن من مسائل شتى ، منها علم الكلام ، والفقه ، وتتمثل في مؤلفاته التسعة ، وحاشية لغوية تمثله مؤلفاته العشرة ، واتجاه أدبي يتضح في كتبه الستة عشر ، وإحاطته بالنحو يتبين عنها تسعة كتب ، ومساهمة في العروض بكتاب واحد ، وكتابان لم يصلا إلينا ، ولم أستطع معرفة موضوعهما ، لعلهما أو لعل أحدهما في المنطق .

على أنه كان يتقن اللغة الفارسية ، فقد ألف معجما بالفارسية والعربية طبع في ليبزج سنة ١٨٤٣ م كما أن القسم الأول والثاني من كتابه (مقدمة الأدب) وهما في الأسماء والأفعال باللغة العربية واللغة الفارسية

وهذه الكتب التسعة والأربعون التي منها الكبير ومنها الصغير [illegible] شاهد بالصدق على أن الزمخشري كان متنوع الثقافة ، وأنه وهب [illegible] والعلم واللغة والأدب جهوده وحياته ، هذه البذل الكلف الراغب في مضاعفة البذل والسخاء .

على أنه لم يكن مثل بعض المؤلفين جامعا للمعارف ، لا جهد له إلا التنسيق أو الاختيار ، بل كان حر الفكر ، وكان صاحب كثير من الآراء المبتكرة ، كما سيتجلى من تحليل كتبه .

وكان إلى ذكائه وسعة اطلاعه قوي الحجة ، قديرا على استنباط المعاني ، بارعا في الجدل ، حتى لقد طبق تفسيره وتأويله للقرآن الكريم على مذهب المعتزلة تطبيقا لم يسبق إليه على هذه الصورة الكاملة ، ولم يجيء بعده من صنع صنعه .

(٣) اعتزاله

كانت خوارزم — كما سبق — تموج بالاعتزال ، وتصبح بالمعتزلة ، وقد ولد الزمخشري بها ، ونشأ في ربوعها ، ودرس دراسته الأولى على علمائها ، وكان

« أبو مضر » أحب أساتذته إلى قلبه ، وأعظمهم تأثيرا فى عقله ، وهو معتزلى كما تقدم .

وكان الزمخشرى بطبعه كلفا بحرية الرأى ، ميالا إلى عمق الفكر وتقليب وجهات النظر ، وإلى المناقشة والجدل ، فهو يقول [1] :

« لا تقنع بالرواية عن فلان وفلان ، وامش فى دينك تحت راية السلطان [2] ، فما أحد محجب عن عين الله أعز من الرجل المصبح على ربه ، وما لعز الجبر تحت الشمأل الذليل أظل من التقليد بين يدى صاحب الدليل ، وجامع الروايات المحمولة ، والأحجية عنه مقولة ، أوعر ظهرا من الحطب ، وأسقل زبدة من السبد .

فإن فوتنى ذهب من الحق والبرهان ، فلله درهما مصاحبين ، ولا علمهما مصاحبين من شد بذيه بعروتهما فقد اعتز بعروتهما ، ومن زل عنهما فهو من الذلة أذل ، ومن القلة أقل » [3] .

هذا دان الزمخشرى بالاعتزال ، ونافح عنه ، وطبق على مذهب المعتزلة تأويله للقرآن الكريم — كما سيجىء — وكان يجد راحة نفسية فى إعلان مذهبه ، حتى نقل عنه أنه إذا قصد صاحبا له واستأذن عليه فى الدخول قال لمن يأخذ له الإذن : قل له : أبو القاسم المعتزلى بالباب [4] .

وذكر ابن خلكان أن الزمخشرى لما كتب التفسير قال فى استفتاح الخطبة « الحمد لله الذى خلق القرآن » فقيل له : إن تركته على هذه الهيئة هجره الناس ، ولم يرغب فيه أحد ، فغيره بقوله : « الحمد لله الذى جعل القرآن » لأن جعل

(١) أطواق الذهب ٧١ .
(٢) المقصود الراعى المتقى .
(٣) فلائد الأدبية فى شرح أطواق الذهب ٧٢ .
(٤) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥ ، وشذرات الذهب ٤/ ١٠٠

عند المعتزلة بمعنى خلق . ورأيت كثيراً من النسخ فيها « الحمد لله الذى أنزل القرآن » وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف [1] .

والنسخ المطبوعة تبدأ بهذا التعبير الذى ذكر ابن خلكان أنه من إصلاح الناس « الحمد لله الذى أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما ، وأنزله بحسب المصالح ممحكما ، وجعله بالتعجيد مفتتحا ، وبالاستعاذة مختتما » [2] .

وأرجح أن هذه دعوى لا صحة لها ، لأن الزمخشرى لم يكن ليغير من التعبير بأنزل وهو يعلم أن القرآن الكريم يردد هذا التعبير فى كثير من سوره ، مثل قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات » [3] ، وقوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم » [4] وقوله : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس » [5] .

وقد نفى الفيروزابادى صاحب القاموس المحيط هذه الدعوى فقال فى كتابه على حاشية الكشاف عن بعض الطلبة ، وأثبته بعض المحققين ، ما نصه فى تعليق له عليه : إنه كان فى الأصل كتب (خلق) فكان (أنزل) ، وأخيراً غيره المصنف أو غيره حذراً عن الشناعة الواضحة .

وهذا قول ساقط جداً ، وقد عرضته على أستاذى فأنكره غاية الإنكار ، وأشار إلى أن هذا القول بمعزل عن الصواب لوجهين :

(١) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥ .
(٢) الكشاف ١/٢ .
(٣) سورة آل عمران : ٧ .
(٤) سورة النساء ١١٣ .
(٥) سورة الأنعام ٩١ .

أحدهما : أن الزمخشري لم يكن أهلا لأن تعوته اللطائف المذكورة في أنزل وفي تنزّل في مفتتح كلامه ، ووضع كلمة خالية من ذلك .

والثاني أنه لم يكن يأنف من انتمائه إلى الاعتزال ، وإنما كان يفتخر بذلك ، وأيضاً أتى عُقيبه بما هو صريح في المعنى — إذ قال : أنشأه كتاباً سماه بهذا الاسم[1] — ولم يبال بأنه قبيح .

وقد رأيت النسخة التي بخط يده بمدينة السلام محتبئة في تربة الإمام أبي حنيفة ، خالية من أثر كشط وإصلاح[2] .

(٤) عزة نفسه

لقد كان إلى تقواه وتواضعه أبيّ النفس ، يأنف من الضيم ، ويؤثر العزلة على الذلة ، وفي وصفه بأنه تبوأ المكان اللائق به ، فيرحل إلى حيث يستمتع بالتكريم ، ويشعر بالاعتزاز .

وقد سبق في حياته أنه مدح نظام الملك وشكا إليه ، وتوسم بعلمه وأدبه ، وجعلها قرابة وشجنة بينه وبين الوزير الكبير ، ولم يكتف بهذا ، بل عرّض بتقصير الوزير في رعايته ، وختم القصيدة بالاعتداد المقرون بتحدي نظام الملك أن يجد مثله في جميع من يرى ، ثم هدده بالرحيل عن حوزته كما يريد ، يسمعه بما يريد ، ولامه على أنه صنع آماله ، على حين أن من هم دونه ظفروا بما لم يظفر به .

وما حق مثلي أن يكون مُضيَّعاً ... وقد عظمتْ عند الوزير وسائلي

(١) في المقدمة : أنشأه كتاباً ساطعاً تباهى ناصعاً بردائه .
(٢) كشف الظنون ٢/٣١٥ .

وأعظمها أني نسبتُ بضاعة ... إذا عُرضتْ أنسابُ هدى الفضائل

فكلُّ امرىء آماله عدد الحصا ... وهمتُ بصيري في جميع المحافل

لئن كان أمري في حوارزم ما أرى ... فإنّ رحابي في ظهور الرواحل[1]

فلما صوح أمله اعتزم الرحيل من حوارزم على كره منه ؛ لأن البلد الذي يكفل له الكرامة والتقدير خير له من وطنه الجاحد

أحب بلادي مَنْ بها نشر فضلي ... إليّ التي فيها عُذِيتُ وليداً

وأكرم بيتي مكرمة عنده ... وهذي أرى فيها الهوان عتيداً[2]

ولم يلبث بعد تطوافه بخراسان وأصفهان أن مرض مرضاً سماه ناهكاً ومذراً ، فعاد به إلى بلده جرجانية التي يتصل بسلطان ولا يتبع من أتباع سلطان ، وأن يهب العلم والأدب جهده ووقته .

وهنا قد يخطر هذا السؤال : كيف سوغ الزمخشري لنفسه أن يمدح السلاطين والوزراء ، ويشكو حاله ، ويجهر بمظلمته ؟

والجواب ذلك أنه كما صور حاله — فقير ، وهو إلى فقره عالم أديب ذكي ، غلب عليه في شبابه الطموح إلى الشهرة ، والولوع بالثراء ، والتطلع إلى الجاه ، وكان يرى أنه أحدر بالرعاية ممن تستعين بهم الدولة ، وتوكل إليهم شئونها ، أو تقيمهم وترعاهم بوسائل شتى ، ولخاصة قبل أن يتقدم به السن ، ويغلب عليه الزهد في مباهج الحياة

ولقد رأى المال في عصره بأيدي المتسلطين والمتنهرين ، وفي حوزة الدين

(١) ديوان الزمخشري ٩٥
(٢) الديوان ٣٢

واتهم بالخط بالمناصب والسلطان ، ورأى الجد حسكرة للعيرين إلى الحكام ، والمتزلفين إلى ذوى الجاه .

وما من شك فى أنه كان يوازن بين شقائه وسعدهم ، وبين علمه وجهل بعضهم ، وبين كفايته وعجز الآخرين .

وهذه الموازنات شوقته إلى المال وإلى الجاه ، فطمع فى هبات السلاطين والوزراء على عادة كثير من العلماء والأدباء فى ذلك العصر وفى قبله وبعده

وستأتى فى دراسة شعره موازنة بينه وبين بعض الشعراء فى الطمع الصراح على أن بعض نفسه كانت تتحلى فى مدائحه وشكاواه ، فلا يذلون علمه ، ولا يهينون بكرامته ، ولا يتعدون حدود الشرف ، وصاحب حق على الدولة يعنى أن تقوم به وترعاه .

وإنه ليعزز هذا ما سبق فى التعريف بنظام الملك وزير السلاجقة من حدب على العلماء ، وتشجيع للأكفاء .

ويبدو لى أن الزمخشرى يشبه بعض أصحاب التوحيدى (المتوفى سنة ٤١٤هـ) فى أن كليهما سبق عصره بما نسميه اليوم (منحة التفرغ) ، وهى فكرة كانت بعيدة عن الأذهان فى عصريهما ، ولم تعرف إلا منذ سنوات .

ذلك أن الدولة تكفل اليوم لكثير من أصحاب المواهب أرزاقهم رسماً معيناً ، ليفرغوا لعمل أدبى أو فنى أو علمى ، لأنه ليس أقتل للشغف بالإنتاج من زحمة الوقت بالعمل لكسب الرزق .

والدولة إذ تخصص اليوم أناساً بمنحة التفرغ لا تتوخى إلا ما يعود على الوطن كله بالخيرات ، لأن هؤلاء المتفرغين لا يختصون فرداً أو جماعة بما تجود به قرائحهم من ثمر

(٥) بين الطموح والقناعة

١ — نزال الزمخشرى إلى الخمسة والأربعين من عمره توافا إلى المنصب ، مشوفا إلى المال ، متعلقا بكل سبب ، معتقدا أن علمه وأدبه وكفايته هى الوسائل إلى ظفره بما يأمل

وأغلب الظن أن مرد هذا إلى المنافسات التى علا دويها بين علماء العصر وأدبائه ، فكل منهم يزهى بما نال من حظ وأحرز من منصب ، وإلى أن الزمخشرى كان فى هذه السن يستحيب لآماله ولا يكبحها ، وكان يبغى من الوظيفة والمال والجاه الطمأنينة التى تكفل له التفرغ إلى العلم والأدب ، إذ كان فقيراً أرعاه بذله أستاذه أبو مضر ، كما تحدث هو بذلك[1] ، وطالما شكا الفقر فى قصائده ، وكشف له نظام الملك مكاشفة المعتد بنفسه وبعلمه الذى لا يحد فى الفقر عاراً ، لأنه ليس من صنعه ، كقوله لنظام الملك[2] :

عفى من الأدب المكسبى إذا نصرت فما فى الكف غير الأنامل

وقوله[3] :

أشكو الزمان ولا أرى لى مشتكيا ممن يرى شعثى ورقة حالى

[illegible] فى مقتر والفضل رأس المال

[illegible] والرزق كل الرزق للجهال

[illegible] لأيام فى [illegible] من

[illegible] دون [illegible]

(١) الديوان ٩١
(٢) الديوان ٩٤
(٣) الديوان ٩٥

وكثيراً ما يوه بعلمه وفضله في مدائحه وشكاواه قبل أن يتخطى الخمسة والأربعين من عمره، كقوله في قصيدة مدح بها نصير الملك[1]:

وبما شجاني أنّ بعض مسافتي ... تعنّى بها الركبان بين القوافل
وطرت إلى أقصى البلاد قصائدي ... وسارت مسير الكوكبات بسائل
ولي في دقيق النحو والنقد منطق ... يدقّ عن الفهم الصحيح فحولا

وقوله لخير الدولة[2]:

أمن منبتي بين الرماح تريدني ... كمن عرّض للسيف وهو يصيح
غبت رحى أقمت عليه ... وأنت في مقامي عليه طحين
ويفضح بعض الشعر من مدحي ... إذا صلّدت كل الزناد لقدح
وفي شرح أبيات الكتاب[3] لبعضهم ... يرى في صدقي محملاً أيّ شارح
وأوضح[4] أبيات تضمنت منه حكمة ... رحى أنا فيه وحوه يطحن

ولعله اقتدى في فخره بالمتنبي حيث يقول[5]:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي ... إذ قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمراً ... وغنّى به من لا يغنّي مغردا

وحيث يقول[6]:

[illegible] لأنني [illegible] ... وأسمعت كلماتي من به صمم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم

(١) الديوان ٩٤
(٢) الديوان ٢٣
(٣) يقصد شرح [illegible]
(٤) يقصد كتابه الأعلوج في النحو
(٥) ديوان المتنبي ١/١٩٣
(٦) ديوان المتنبي ٢/٣٦١

والزمخشري يقرن فخره هذا بشعره من حيث [illegible] سواه، ويخصه على الرغم لدى [illegible] وعلماً وكعبية، كقوله[1]:

حبيبيّ هل تحدى عليّ فضائلي ... إذا أنا لم أرفع على كلّ جاهل؟
من ابن دوقص يصيب فضائلاً ... أحو الفضل مخفوق يتيه الفضائل
كذا الدهر كشوهاء في الحيّ حسدها ... وكم جيد حسناء القلّد عاطل
فياليتني أصبحت مسعناً ولم ... أكن فحر حور رئم ورأس الأفاضل
وبي ما [illegible] ومسحط ... عدوي وأني في فهاهة [illegible]
فمن مقصي [illegible] ... كقسّ إياد أو كسحبان وائل

وفي هذه المرحلة من حياته كان يقرّع معاصريه، ويقسو على مواطنيه، ويصفهم باللؤم والعماء والجهل، كقوله في مدح أحمد بن محمد بن علي[2]:

لولاك يا بن الفضل لم أك قاطناً ... في بلدة جارت على أمثالي
في أرض حوران كريم واحد ... ودّع الشام فهم عديد رمال
وإذا وجدت الرتبة [illegible] ... تسوى الكرام فداك رتع حمر

وقوله في مدح نصير الملك[3]:

لئن كان أمري في حوارزم مزري ... فإن رحالي في ظهور الرواحل

وقوله في قصيدة لصدر الملك الوزير[4] يدفع عن نفسه ويبرر رحيله من خوارزم

وترحلي [illegible] ... [illegible] في [illegible]

(١) الديوان ٩٤
(٢) الديوان ٩٥
(٣) الديوان ٩٤
(٤) الديوان ١٢

ونستطيع أن نستشف من لونه نفسه بعد ذلك أنه كان يهش إلى الشاء ، ويروع الصبيان ، ووصفه بالتفوق فى اللغة والنحو والبلاغة والعروض والشعر والنثر والعلوم الشرعية ، مثل قوله فى مقدمة المفصل [1] :

« يا أبا القاسم لا تسمح لقولهم . فصل مبين ، وأدب متين ، واسم فى مروءة مشهور ، وصيت فى إتقانهما جهير ، وفى طيّاك [2] من المناقص والرذائل . . . من مساقب والفضائل ، إن ذِكْرَ مَتْنِ اللغة فَيْشٌ من أخلاسه [3] ، أو قياسها [4] فائش أفراسه ، أو النحو فهو سيبويه وكتابه ، منطق عنه تراجمه وأبوابه ، فى مساجلة ومُسابيه [5] ، ومراوله ومعانيه ، ومن يغوص على معان كمعانيه ؟ أو قد تكلم فى علم من علومهم نقّة [6] ، وقد عاث فيه الدهر الأعقد [7] ، أو أعاد فى صدورهم [8] ، وصلاح أحشائهم ، أو القواق فأيد عنها تقطُّف ثمرات العراب [9] ، وهو فى طيب يحتو التراب فى وجوه أهل الإعراب ، أو الشعر فريادُه [10] وحسانه ، وإحسانه كما تَجّ الروض بيسانه [11] ، أو النثر . . . . أو معرفة الكتابة والخط فقد نجح [12]

(١) راجع ص ٨٠

(٢) طياك من مناقص : تحذر عن خلوه منها وبراءته .

(٣) الفرش من الشاء : ما تفرش من قوائمها لتأوى عليه ، والمعنى أن هذا هو من أخلاس علمه أى شىء فى ثنايه على مثل الفرش الذى يجلس عليه

(٤) أراد هنا بالقياس علم الاشتقاق ، وسمى علم التصريف والاشتقاق قياسا لأنه علم قياسى ، وأما علم التصريف الذى هو أبنية الكلام نحو وعوضيه وولاء فكما حدّه أن يعلم به أحوال عين ذوات الكلام متقدم على علم اشتقاقه .

(٥) المساجلة : المباراة فى السجل وهو الدلو ، والمسابى : مشتقة من السابية .

(٦) نقة : جنس قبيح من النعم .

(٧) الأعقد : المستوى الذنب

(٨) يعنى للدين الذاهب هو ابن بحدتها وهو من محد بالمكان إذا أقام به .

(٩) ثمر العراب مثل فى الطيب المنسى لأنه لا يأكل من الثمر إلا أعلاه وأطيبه .

(١٠) رياده : الناعمة الأعطاف .

(١١) يسانه : المراد الربيع

(١٢) نجح : خاص نجح

وترك الناس على الخطأ ، وحسن ما عاب به فصيّر المسيء محسنا ، وليس عمر من كهول السبع من شهد الشائع »

٢ — سكن الزمخشرى بلخ ، أو غادرها ، فى الوقت الذى مرض فيه مرضه الذى توفى سنة ٥٣٨ هـ ، فبصر بما لم يكن يبصر به من قبل ، وعلم أن المنصب حلية الخامل ، وأن المال ظل زائل ، فندم على ما أنفق من عمره فى طلبهما ، وقصر على الإنتاج العلمى والأدبى جهوده ، وجعله وسيلته وغايته .

وحينئذ بدأت مرحلة القناعة والرضا ، وجعل الزمخشرى يردد نصائح هى أقرب ما تكون إلى الزهد والتصوف ، حتى لقد سمى بعض مقاماته مقامة قناعة ، وسمى أخرى مقامة الزهد ، وسمى ثالثة مقامة العزلة ، وسمى رابعة مقامة الخمول ، وفى هذه المقامة يقول [1] : « يا أبا القاسم ، يا أسفى على ما أمضيت من عمرك ، فى طلب أن يشاد بذكرك ، ويشار إليك بأصابع بنى عصرك ، عسى فى ذلك طويلا ، فما أعسرك عليك فتيلا [2] . وما أدراك يا عاقل ما الكامل ؟ الكامل هو العامل الخامل ، الذى هو عند الناس متروك ، وهو عند الله مذكور » .

وقال فى مقدمته : « اللهم إنى أحمدك .. فكم كشفت عنى ما أسفت عقبى ، ومنعت محل إسارى وضيقى ، ورقيتنى إلى رتبة القناعة وهى رتبة الأعزاء ، وزهدتنى فى حرص هى رأس كل ذلة »

وقال : [3] « آثر الخمول على الشهرة ، واسحب الستر على الوحاهة ، تعش أنعم من أطيار المحن ، وأهنأ من إعتمار الإحن ، وإن ذا الشرف محسود

(١) مقامة الخمول ص ١٧١

(٢) فتيلا : فى سو . وفى ص ... فتيلا

(٣) الكلام لأدب وشرح مقامة ص ٢١ ، وأطواق الذهب ١٤

أو حاسد ، محقود عليه أو حاقد . وقلت بية [illegible] الله فيها ما يشاء »

وقال فى مقدمة القناعة

« يا أبا القاسم قنع[٢] من القناعة[٣] لا من القنوع ، تستغن عن كل معطه ومنوع ، لا تحتق أديم وجهك إلا عند من خلقك ، ولا تسترزق إلا من رزقه وإن شاء رزقك . القناعة مملكة تحتها كل ممكنة ، لا سبيل عليها للملكة ، لا يتوقع صاحبها أن يفتقر بعد غنيته ، ولا يقع النقاد فى كدره وذلته »

(٦) تدين

هذا العلامة النصير نعطة الإسلام ، الخبير بخصائصه ، الغيور على حوزته ، [illegible] يصدر فى هذه كله عن عقيدة وحدة ، ولا عن عقيدة وحدة ، كل نتجه عقله ، فى عمله وفكره ووجدانه العميق وتدينه الراسخ ، حتى إن بعض مؤلفيه ، يحمو فى تدينه بعض [illegible] إلى الاعتزال[٤] .

ولاشك أن بيئته العامة وبيئته الخاصة كان لهما أثر عظيم فى هذا التدين

فأما البيئة العامة فتمثلها مدارس الحديث الكثيرة التى أنشئت بنظام بديع ،

(١) المقامات ٥٨ .
(٢) هنا يكون أمراً من قنع يقنع بمعنى رضى يرضى رضاً ومعنى ، ويكون من قنع يقنع بمعنى سأل يسأل سؤالاً ومعنى
(٣) القناعة : الرضى باليسير .
(٤) لسان الميزان ٤/٦ .

وتمثلها مجالسه التى كان يعمرها القراء والفقهاء وأهل الخير والصلاح ، وكان يقدم لذلك إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القشيرى والإمام أبو المعالى الجوينى يقوم [illegible] ويجلس فى مكانه كما هو ، وإذا دخل عليه أبو على الفارمدى يقوم إليه [illegible] ويجلس فى مكانه ، ويجلس بين يديه ، فقيل له فى ذلك . فقال : إن هذين [illegible] وأمثالهما يدخلون على [illegible] فيريدنى كلامهم عجمتهم ، وهذا الشيخ يدخل [illegible] من الصم ، فيكسر نفسى بذلك ، وأرجع عن كثير مما أريده[١] .

[illegible] مجلسه فى [illegible] محشرى ثمرة طيبة من شجرة طيبة ، فقد ساهم [illegible] فى [illegible] ، إذ كان أبوه عالماً ورعاً صواماً قواماً حريصاً على مكارم الأخلاق ، وقد أشاد المحشرى به ، وبتفوق أبيه للأدب فى قوله [illegible][٢] :

[illegible] فضلاً فاقت مآثره ... [illegible] الأدب المأثور والشعر
[illegible] فضله ... [illegible] فى عصره طبع
[illegible] خرص على دنيا مجتمع ... [illegible] خرص على دنيا مجتمع
[illegible] صام النهار وقام الليل وهو شجٍ ... [illegible] نفسه لله كان وكان ينتفع
قرب عهد بخط الشيب عارضه ... إثر الشباب ووجه غير منتفع
[illegible] ... [illegible] صغير وهو كهل فى [illegible] منتفع

[illegible] خبر [illegible] مقر أبوه ، ولا أحد من أسرته ، وليس شهود على ذلك ، قال : وصه خبر[٣] .

(١) سكان لا [illegible] ١٠/٢٦ ، ٧١ ، وتاريخ آل سلجوق ٤٥
(٢) ديوان المحشرى ٧٢
(٣) ديوان المحشرى ٨٥

[illegible] هات التي طُمًا [illegible] شمس [illegible]

أستغفر الله أني قد [illegible]

ولم [illegible] أني كلا ولا أحدٌ [illegible]

كذلك كانت أمه [illegible] رحيمة القلب [illegible]

أن [illegible] من [illegible] و [illegible]

فهو [illegible] من أحداثه في صباه فيقول [1] [illegible]

[illegible]

فجذبته ، فانقطعت رجله في الخيط ، [illegible] ، وقالت : قطع الله رجلك

كما قطعت رجله . فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم ،

فسقطت من الدابة ، فانكسرت رجلي ، وأصابني ألم أوجب قطعها .

ويظهر أن البرد الشديد أثر في الكسر فاضطره إلى قطع رجله ، لأن الثلج

والبرد — كما يقول [illegible] — كثيراً ما يؤثر في الأطراف في تلك البلاد ،

فتسقط ، خصوصاً في خوارزم ، [illegible] ، ولقد شاهدت خلقاً كثيراً ممن

[illegible] فهم بهذا السبب ، فلا يستبعده من لا يعرفه [2]

ومن [illegible]

مسألة الدامغاني الفقيه الحنفي المتكلم عن السبب فقال : دعاء الوالدة [3]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(١) وفيات الأعيان ٤، ٢٥٥ ، ومعجم الأدباء ١٩/١٢٧ .

(٢) وفيات الأعيان ٢/٢٥٥ .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] فالكعبة البيت المحرم مجرانى

ولا يخلو كتاب من كتبه من دلائل تقواه ، وحضه على الطاعة والعبادة

[illegible] ، وكلامه بالحكمة والموعظة التي تهذب الأخلاق وتسمو بالنفوس .

هذا قال في مقدمة المقامات [1] : [illegible]

[illegible]

[illegible]

ثم قال : إنه [illegible]

[illegible] ، [illegible] عن متابعة الهوى ، وتحثه عليه في علوم القراءات و [illegible]

[illegible] رحمه الله تعالى [illegible]

به المرض [illegible] ، صارفاً عن باطله لمتجدد [illegible]

للمنافسة ، ووسيلة إلى خطوة عند [illegible] في غمرات [illegible]

[illegible]

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

وخاطب نفسه بقوله [1] : « يا أنا القصير ، العمر قصير ، وإلى الله المصير ، فما هذا التقصير ؟ إن زِبْرِج الدنيا قد أصمك ، وشيطان الهوى قد استزلك [2] ، ألا إن الأحمى بك أن تلوذ بالركن الأقوى ، ولا ركن أقوى من ركن التقوى » .

ونهى نفسه في مقدمة العمل عن الاغترار بالثناء عليه ، ووصفه بالبراعة في العلوم والأدب ، وعقب على هذا بأن الأديب هو الداعيه إلى الفضائل ، المبرأ من العيوب ، والعاقل هو الذي ينتهي من أعماله أن يكون عند الله وجيها ، لأن العلم [illegible] كفوس [illegible] عنه [illegible] ولا [illegible] على نفسه [illegible] وحفظه [illegible] لأن [illegible] نفسه [illegible] مع [illegible] من تعلم [illegible] شأنه فيه بها ، ولأديب الفاضل من [illegible] أدب ولا [illegible] إلا أن يكون [illegible] نفسه فضل [illegible] في [illegible] ونهاه [illegible] كفوس ملا وتره ، حاملها حيران مرتبك في العمامة ، لا يهتدي وإن كان بين يقين [3] إلى وجه الرمية . . . . واعلم أن العلم إنما [illegible] لم ، لأنه إلى العمل سلم ، كما أن العمل إلى ما عند الله ذريعة ، ولولاهما ما علم علم ولا شرعت [illegible] » .

وقال في مقدمه (أطواق الذهب) وهي مواعظ أنشأها في مكة :

« أسألك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ، وأن تحفظ فيها ما وجب للجار ، من حق الذمام والذمار ، لأنها وُجدت في حرمك المطهر ، وولدت في حجر بيتك المستر »

وذكر يوسف [illegible] كل [illegible] بيت [illegible] في

(١) [illegible]
(٢) مستزلك : [illegible]
(٣) [illegible]
(٤) [illegible]

الطواف ألف مقالة ، ثم يقوم ويطوف وينشىء مقالة ، ومن ثم على ذلك إلى أن ملأت مئة كاملة [1] .

وذكر ابن خلكان [2] أنه سمع من بعض فضلاء حلب أن الزمخشري أنشده هذه الأبيات ، وأوصى أن تكتب على لوح قبره ، وهي الأبيات التي استشهد بها عند تفسير قوله تعالى : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » [3]

يا من يرى مُدَّ البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها ... ولحْ في تلك العظام المُحَّل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ... ما كان منه في الزمان الأول

وعلى هذى من نديمه ونواه تحدد لنفسه دستور الاتعاظ ، وتترم بمعاصره ، وأثر الوحدة على مخالطتهم ، فأنهم [illegible] سمة والانحراف عن الدين وتعاون على الآثام .

قال في مقامة العزلة [4] : « فاتق الله في هذه الأيام ، فإنهم طلائع الشرور والآثام ، [illegible] ووفودهم نفاق ، تشمئن بألسنتهم لأغراض ، كما يرشق سهامهم لأعراض [illegible] تجمع الندوة كبيرهم فلا يتواصون [illegible] ويتواصون على نقيصة

[illegible] حمدت [illegible] وجدت الوحدة ، فما أنت في

(١) [illegible] الأدب في شرح أطواق الذهب ٩ .
(٢) [illegible] الأعيان ٤/٢٥٩ .
(٣) [illegible] ٢٦ .
(٤) [illegible] ٧٢ .
(٥) [illegible] ينظر بعضهم بعضا بمعنى [illegible] وفي نوابغ الكلم الزيدي [illegible] .
(٦) يتواصون : يأخذ بعضهم [illegible] بعض على صدر المجلس .

[illegible] إذ فوجئت [illegible] بينك وبين ما كنت [illegible] ورماك بغور من تلك الأول مُصدد ، ملقيا أسباب القلق بين يدي افتتانه ، محمّلا للآداب ولسنن وراء استنانه ، لا يدفع في صدره من حياء دافع ، ولا يزعه من دين حَيْق وازع .

وإذا أنشأ يأكل لحم أخيه بالقصة والشَّذب ، ويَسعى في دمه لحرم ولوغ [illegible] وتصفّح في قَرْوته ، ويقوم ويقعد في قَرْع مَرْوته[3] ، وحدّث [illegible] ، واستعراب متدافع ، لم يملك حينئذ عِنانه ، ولم [illegible][4] .

[illegible]

(٧) تواضعه

وهو مع إدلته وعزة نفسه متواضع ، لطيف المعاملة ، ظريف المجاملة .

---

(٣) [illegible] المجرة الصلبة ، والمراد بها الأصل .

(٤) [illegible]

(٥) حلس : جمع أحلس وهو الذئب في لونه حمرة إلى سواد .

قدم إلى بغداد في طريقه إلى مكة ثانى مرة ، فزاره كثير من الناس لتكريمه وللسماع منه ، وكان فيهم الشريف أبو السعادات هبة الله بن الشجرى ، فجاء جلس إليه سيد الزمخشري علما وأخلاقا ، فأنشد ابن الشجرى متمثلا :

كانت مسائلة الركبان تخبرني ... عن أحمد بن دؤاد أطيبَ الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعتْ ... أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وأنشده أيضاً .

وأستكبر الأخبارَ قبل ... [illegible] خبرْ

ثم أخذ يثني عليه . فلما فرغ من كلامه شكر الزمخشري له ، وعظمه ، وتصاغر ، وقال إن زيد الجيل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يصر بالنبي رفع صوته بالشهادتين ، فقال له النبي : يا زيد الجيل ، كل رجل وصف لي وجدته دون الصفة إلا أنت ، فإنك فوق ما وصفت ، وكذلك سيدنا الشريف . ثم دعا له وأثنى عليه[1] .

وكتب إليه الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي من الإسكندرية — وهو مجاور بمكة — يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته ، فردّ جوابه بما لا يشفي الغليل . فلما كان العام الثاني كتب إليه أيضا مع الحُجّاج يستجيره أخرى اقترح فيها مقصوده ، وقال في آخرها : ولا يحوج — أدام الله توفيقه — إلى المراجعة ، فالمسافة بعيدة ، وقد كاتبته في السنة الماضية فلم يجب بما يشفي الغليل ، وله في ذلك الأجر الجزيل .

فردّ عليه الزمخشري ردا حافلا بالتواضع والسلامة من الغرور ومن التعالي والتعالم ، صور فيه نفسه بين العلماء صغير القدر ، ضحل المعرفة ، وذكر أن حظه من الدراية نزر ، ونصيبه من الرواية قليل ، وتنصل من ثناء الناس عليه ، وعلل

---

(١) معجم الأدباء ١٩/١٢٨ وترجمة الأنباه ١/٤٣٠

له بأنه عبار منهم بالظاهر المشوّه، ثم التمس لهم العذر، لأنهم ربما أعجبوا بنصحه للمسلمين، ويترفعه عن حطام الدنيا وسفاسفها، وختم الرسالة متوكيده أنه صادق فيما نقول.

من رسالته قوله: ماعاش مع أعلام العلماء، إلا كمثل الشها[1] مع مصابيح السماء، والحمام[2] الصفر[3] مع الرهام[4]، ومع الوادى العامرة للقيعان والآكام، والسكاكات[5] المخفف مع خيل السباق، والبعاث[6] مع الطير العتاق.

وما التلقيب بالعلامة، إلا كشمة الرقم للعلامة، والعلم عند الله فيما الدراية، والثانى الرواية، وأنا فى كلا الباين ذو بضاعة مزجاة[7]، وحظى فيهما أقنص من خمل حصاة.

أما الرواية فحديثة الميلاد، وحداثة الإسناد، لم تستند إلى علماء نحارير[8]، ولا إلى أعلام مشاهير.

وأما الدراية فثمد[9] لا يبلغ أقواله، وبرض[10] مايبل شفاها.

ثم قال: لايغرنكم قول فلان فىّ ولاقول فلان. وعدد جماعة من الشعراء والعلماء مدحوه بمقاطيع من الشعر، وأوردها كلها.

---

(١) [illegible] وكف حوفى ذات بعض المصرى.

(٢) الحمام: السحاب لا ماء فيه.

(٣) [illegible]

(٤) [illegible] وهو مدر الصغير [illegible]

(٥) [illegible]

(٦) [illegible]

(٧) مزجاة: قليلة.

(٨) نحارير: جمع نحرير وهو الحاذق الفطن الخبير.

(٩) الثمد: الماء القليل.

(١٠) برض [illegible]

ثم قال: فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المموّه، وجهل بالباطن المشوّه. ولعل الذى غرهم منى ما رأوا من حسن قصدى بمساعى، وسعيى فيما فيه مصالح المسلمين، وقطع المطامع عنهم، وإفادة المبرّ والصنائع عليهم، وحبى نفسى، وزهدى فيما عن السعاسف الدنيات، والإقبال على خويصتى، والإعراض عما لا يعنينى، فجللت فى عيونهم، وعظموا فى، وفسحوا لى مالست منه فى قبيل ولا دبير[1].

وما أنا فيما أقول مهاجم لنفسى، كما قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قول أبى بكر الصديق رضوان الله عليه: «وليتكم ولست بخيركم» إن المؤمن ليهضم نفسه، وإنى صدقت الفحص عنى، وعن كنهروبتى ودراتى، ومن لقيت وأخذت عنه، وسمع علمى وفصارى فصلى، وأطلعته طلع أمرى، وأفضيت إليه بخبيئة سرى، وألقيت إليه عجرى وبجرى[2]، وأسمعته حجى وشجرى»[3] وقال بن حسكان [illegible]

[illegible] فى مقدمة الفصل خاصة نفسه «[illegible] تعلمهم قوله [illegible] فصلت فصل [illegible] وهو [illegible] فقل [illegible]

ولم يفس أن يشير بخلق التواضع فى استنباطه بعض الأخلاق من تفسيره

---

(١) فلان ما يعرف قبلا من دبر أى مايعرف الشاة القائمة من المدبرة، أو ما يعرف من يقبل عليه ممن يدبر عنه، أو ما يعرف نسب أمه من نسب أبيه (القاموس المحيط مادة قبل) وأصله من قتل الخيل إذا مسح اليد على النسار علواً فهو قبيل وإذا مسحها عليها سفلا فهو دبير (أساس البلاغة مادة قبل).

(٢) البجر: ما تحدثه على عمدى، وأصل البجر الغروق المتعددة الدائمة، وكثر ما يقع منها على البطن خاصة (أساس البلاغة مادة بجر).

(٣) [illegible] من الثبات على غير ساق

(٤) وفيات الأعيان ٤/٢٥٦ ومعجم الأدباء ١٩/١٣٢

(٥) مقامات الزمخشرى ١٠٩

[illegible] مؤمنين [1]

[illegible] وأن من أوتيه فقد أوتي [illegible] من عباد الله ، كما [illegible]

وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثة [illegible] الشرف والمنزلة ، لأنهم القوّام [illegible]

وفيها أنه [illegible] هذه النعمة [illegible] ما أوتوه من فضلهم على غيرهم ، وفيها التذكير بالتواضع ، وأن معتقد العالم أنه [illegible] كثير [illegible] قول عمر : كل الناس افقه من عمر.

٨) حبه للعرب والعربية

[illegible] وكان كثير من أعاجم قد شهروا ضعف الخلافة العباسية ، وعرق العرب [illegible] على العرب ، و ينتقصون من [illegible] وأخلاقهم ، و يحاولون [illegible] القومية ، [illegible]

(١) [illegible] ١٥
(٢) [illegible] ١١
(٣) الكشاف ٣/١٣٩

[illegible]

وفي نحوه

[illegible] بين العرب والعجم

(١) (٢) [illegible] : الإصابة بالمكروه . [illegible] : [illegible]
(٢) [illegible] ٢/٣–١٦
(٣) [illegible] ٧
(٥) [illegible] العرب : شعر [illegible]
(٦) نوابغ الكلم ٣٨ . (٧) [illegible]

وهجم بالعرب وأخلاقهم ، وسخر بالشعوبية فى قوله[1]:

وقل هل فشا فى الأرض غيرُ لسانهم ... فشوَّ الضوء واليوم شمسٌ ؟

به عجَّ فى أمصارها كل منبر ... وعجَّت به فى حلقتَى مدارس

على طهرها لم يخلق الله أمـــه ... تماسحهم فى حصلة أو تلابس

تقايسُ بين الناس حتى إذا انتهى ... إلى العرب المقياس طاح المقايسُ

أحـــلُّ رسول منهمُ ونشأتهم ... أحـــل كتب فاعتبر يامتفرس

وقـــل للشعوبيين إن حديثكـــ ... أصاليل من شيطانكم ووساوس

ـــكم مذهب فَسْلٌ بُعَرْ تمثله ... أشبّ حقى لا الرحال الأكايس

وردد فى كثير من كتبه إعجابه باللغة العربية وإشادته بها ، وتنديده على ملغائها ، فقال فى مقدمة كتابه (الفائق فى غريب الحديث) إنها أفصح اللغات ، وبلاغتها أتم البلاغات ، وأثنى على عدنان وأبنائه ، وقحطان وأحيائه ، وعلى شعرائهم وخطبائهم الذين سحروا الناس ببلاغتهم .

وقال فى كتابه (مقدمة الأدب) : « الحمد لله الذى فصل على جميع الألسنة لسان العرب ، كما فصل الكتاب المنزل به على جميع الكتب » .

لهذا كان براون محقا فى قوله[2] : إن الزمخشرى من أقوى المعارضين لمذهب الشعوبية ، وهو المذهب الذى يفضل العجم على العرب فى كل شىء .

(١) ديوان الزمخشرى ٦١
(٢) تاريخ الأدب فى إيران ٤٠٩

(٩) قسوته على مخالفيه

كان الزمخشرى مخالفون فى مذهبه أهمهم ثلاث طوائف ، وله مع كل منها موقف .

أما الأولون فهم الشافعية والمالكية والحنابلة ، لأنه كان حنفى المذهب[1] ، وقد ناهى بحنفيته فى قوله[2] :

وأنشد ربى وحده مذهبى ... إلى حنفاء أحترهم وحنائف

حنفيه أديانهم حنفيه ... مذاهبهم لا يتقون الزعانفا

وقال[3] : رضى الله عن العلماء الحنفيين من الله وحسبه ، جمعوا إلى الدين الحنيفى العلم الحقيقى .

ولكنه على الرغم مما كان بين أتباع هذه المذهب من خصومة فى كثير من الأوقات والجهات لم يتعصب للحنفية ، ولم يجرح مخالفيهم ، بل كان يورد لآراء المخالفة بغير تعليق مرة ، وبترجيح مذهب على آخر تارة ، وقد يختار مذهب الشافعية ، كما نجد فى تفسيره للآية الكريمة : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن[4] » وكما فى تفسيره للآية الكريمة : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم[5] » .

وأما الفريق الثانى فهم الشيعة ، وقد قسا عليهم مرات ، وسفه آراءهم ، وضعف رأيهم ، ومن الإنصاف أن نذكر أن أهل السنة طالما خاصموا المعتزلة ،

(١) تاريخ أبى الفدا ٣/١٦
(٢) ديوان الأدب ٧٨
(٣) أصول المذهب ٤٢
(٤) سورة البقرة ٢٢٢ والكشاف ١/١٠٣
(٥) سورة البقرة ٢٣٧ والكشاف ١/١١٤

وحرصوا عليهم ، وكفروهم ، ولا شك أن الزمخشري كان يعلم هذا ، وكان يحد من السنة لمعاصرين له سكرا ومحاصمة ، فلقيهم بمثل ما يلقونه به .

ومن قبيوته على السنة ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم[1] » فقال : « العزيز الحكيم » صفتان مقررتان لما وصف الله به ذاته من الوحدانية والعدل . فإن قلت : ما المراد بأولى العلم الذين عطفهم هذا التعظيم ، حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله ؟ قلت : هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة ، والبراهين القاطعة ، وهم [illegible] العدل والتوحيد [illegible] .

وقوله (إن الدين عند الله الإسلام) جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى ، لأن قوله (لا إله هو) توحيد ، وقوله (قائما بالقسط) تعديل ، فإذا أردفه قوله (إن الدين عند الله الإسلام) فقد أدى أن الإسلام هو العدل والتوحيد ، وهو الدين عند الله ، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين . وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدي إليه كإحراز رؤية ، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الفجور ، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام .

وقد عقب ابن المنير على هذا بما يمائله في القسوة والتجريح[2]

وأما الفريق الثالث فهم المتصوفة ، ولا عجب في محاكمته لهم ، لأن بين المعتزلة والمتصوفة اختلافا حسيا .

ذلك بأن المتصوفة دعوا بأخبر صراحة ، فقد روى عن أبي عبد الله أحمد ابن يحيى الجلاء قوله : « من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد ، ومن حافظ

(١) سورة آل عمران ١٨ ١٩

(٢) الكشاف وهامشه ١ ١٣٧

على الفرائض في أول مواقيتها فهو عابد ، ومن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل فهو موحد لا يرى إلا واحدا[1] » ، على حين أن المعتزلة يدينون بالحرية والاختيار .

والمتصوفة غلوا في تقدير النبي عليه الصلاة والسلام معجزات لم يعرفها المسلمون لأنبيائهم ، ولم يقرها المعتزلة .

والمتصوفة يعتقدون في الولاية والأولياء اعتقادا خاصا ، فالأولياء في نظرهم أنواع وطبقات[2] ، وهم كرامات[3] ، أما المعتزلة فلا يعترفون بالولاية على هذا النحو ، لأن المسلمين الطائعين في نظرهم أولياء الله وأحباؤه .

وقد اشتهر بعض المتصوفة في القرنين الرابع والخامس بمعاشرة المخنثين ، ومرقعة النساء ، وصحبة الأحداث ، وإيثار العزوبة ، على الرغم من أن أكثر الصوفية القدماء كانوا متزوجين[4] ، وفي هذا يقول الهجويري في القرن الخامس : إن شيوخ المتصوفة متفقون على أن العزوبة هي اللائقة بالتصوف ، لتكون قلوبهم خالية من المشاغل ، وطباعهم مبرأة من الشهوات والمعصية ، وأساس التصوف هو العزوبة ، أما الزواج فللضرورة[5]

والمتصوفة يتحدون وحدتهم وإلههم وسيلة بمعرفة ، على حين أن المعتزلة يعدون وسيلتهم ما يفهمونه من القرآن والسنة وما يستنبطون منهما بعقولهم

والمتصوفة [illegible] بالعناية أعمالهم وظاهرهم .

(١) الرسالة القشيرية ٣٠ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٣٧ وكشف المحجوب .

(٣) الرسالة القشيرية ، باب الكرامات .

(٤) الرسالة القشيرية ٢٣ .

(٥) كشف المحجوب (النص الفارسي) .

والمتصوفة يهتمون بالحب الإلهي أكثر من اهتمامهم بالرغبة في ثواب أو رهبة من عقاب ، ولكن المتكلمين والفقهاء يعتمدون على العبادات ، أملا في الثواب وخوفا من العقاب

[illegible]

سبيل الله ولا يخافون لومة لائم [illegible] مرضاته ، وألا يعبدوا شيئا سواه سبحانه وتعالى ، ومحبة الله لعباده أن يهيئهم [illegible] ويعتقدون أن أجهل الناس وأعدمهم بنفسه وأهله ، وأمقتهم لشرعه ، وأسوؤهم طريقة — وإن كانت طريقتهم عند أشباههم من الجهلة والسفهاء شيئا — هم الفرقة المنتحلة [illegible] بالصوف ، يقصد التصوف — وما يتبعه من محبة وتعلق والتعبي على كراسيهم حرسها الله ، وفي مراقصهم عطشى [illegible] في المردان الذين يسمونهم شهداء ، وصفقتهم التي [illegible] ذكر الطيور ، فتعالى الله عن علو كبيرا . ومن كلامهم كما أنه يحبهم كذلك يحبون [illegible] مرجعه إلى الذات دون الصفات والصفة ، ومنها الحب [illegible] كذلك ، لم تكن فيه حقيقة[٢] .

[illegible]

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

للعبد متعلقة بالله تعالى أم لا ؟ إذ المحبة بميل النفس بها إلى أمر لائق ، والذات المحمودة منقسمة إلى مدرك بالحس كلذة الذوق في المطعوم . ولذة النظر . . . . . وإلى لذة تدرك بالعقل كلذة الجاه والرياسة والعلوم ، ثم تتفاوت المحبة بحسب تفاوت المدرك عليها . . . وليس معلوم أكمل ولا أجل من المعبود الحق ، فالتذاذه الحاصلة في معرفته تعالى ومعرفة جلاله تكون أعظم ، والمحبة المتبعة عنها تكون أتم ، وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات والموافقات .

ومعنى هذا أن محبة العبد لربه تعالى واقعة من كل مؤمن ، فهي من لوازم الإيمان وشروطه . والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم ، وإذا كان كذلك وجب تفسير محبة العبد لله بمعناها الحقيقي لغة ، وكانت الطاعات كالتعبير عنها والمظهر لها . ألا ترى إلى الأعرابي الذي سأل عن الساعة فقال له [illegible] . [illegible] . [illegible] ، لأن الأعرابي بفطرته ، وأثبت الحب ، وأقره النبي على ذلك .

ثم إذا ثبت إجراء محبة العبد لله تعالى على حقيقتها لغة ، فالمحبة في اللغة [illegible] ثم [illegible] ظهرت آثاره عليه ، من استيعاب الأوقات في ذكره وطاعته ، فلا يمنع أن تسمى محبته عشقا ، إذ العشق ليس إلا المحبة البالغة . وما أردت بهذا الفصل إلا تخليص الحق ، ولا نضاف لله عز وجل من الزمخشري ، فإنه خبط في كلامه الغث والسمين ، فألصق القول بالفدح الفاحش في المتصوفة من غير أن يتحرى ، ونسب إليهم ما لا يليق [illegible] ، ولا يبعد في البهائم فضلا عن خواص البشر

[illegible] من [illegible] هذا الاسم عاصين له من أهله ، ثم ارتكابهم ما نقل عنهم مما لا يرضى حال المسمين به حقيقة ، أن يؤاخذ الصالح بالطالح ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

كما أن علماء الدين قد انتسب إليهم قوم سمو أنفسهم [illegible] وجعلوا [illegible] في [illegible] أصول الدين مطلقاً ، لأنهم قد انتسب إليهم من لا حيلة لهم في نفيه عن النسبي نفسه ، ولا تكلف الله نفساً إلا وسعها .

ولا شك أن في الناس من أنكر نصوص محبة العبد لله إلا بمعنى عائد له لا غير ، وهو الذي انحاز إليه الزمخشري ... قال العراقي : والمحبون لله يقولون لمن أنكر عليهم ذلك « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون »[1] .

ومن سخريته بهم قوله في تفسير الآية الكريمة : « هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً » « يُنشئ » السحاب الثقال ، « ويسبح الرعدُ بحمده والملائكة من خيفته » ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء[2] » . قال : وسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر ، ومن بدع المصوفة أن الرعد صعقات للملائكة ، والبرق زفرات أفئدتهم ، والمطر بكاؤهم[3] .

(١٠) عروبته

عاش الزمخشري أعرب كما عاش بعض سابقيه من العلماء والأدباء ، مثل محمد ابن جرير الطبري[4] ، وأبي حيان التوحيدي[5] ، وإذا كان سابقوه لم يبرروا إشارهم للعروبة ، ولم يعللوا لها ، فإنه قد برره وعلل لها ، ولكن بسبب غريب .

(١) [illegible] ٢٠٠
(٢) سورة [illegible] ١٣
(٣) [illegible] ٢٠
(٤) الهدى للمؤلف ٤٩
(٥) أبو حيان التوحيدي للمؤلف ١٨٥

فهو مرة يشفق على الآباء الذين يجهدون في تربية أبنائهم ، مؤملين لهم الخير والعلاء ، ومتشوقين إلى أن يسعدوا بهم ، وتقر أعينهم ، ولكن هؤلاء الأبناء يصيرون أدلة ، لا يحققون شيئاً مما أمله آباؤهم ، وهو لهذا آثر العزوبة التي شبهها بالرهبنة في المسيحية ، وارتاحها نفسه ، واستراح إليها ، فقال[1] :

نصحت أولاد الرجال فلم أكد ... أصادف من لا يفضح الأم والأبا
رأيت أباً يشقى لتربية ابنه ... ويسعى لكي يدعى مُكيساً ومنجبا
أراه الدَّنِيُّ الأعرَ فيما يرى ... أيوليه حُرّاً أم يُعِدُّ له سَبَا
أخو شقوة ما زال مركبَ طفله ... فأصبح ذاك الطفل للناس مركبا
لذاك تركت النسل واخترت عيرة ... مسبحة أحسنْ بذلك مذهبا

ولا شك أن هذه محاولة للتبرير ، ولكنها أبعد ما تكون عن الإقناع ، وأرجح أنه هو نفسه لم يكن مقتنعاً بها ، ولعله ساقها مساق المداعبة والمحادثة ، لأن الأبوة والأمومة ميل في الفطرة أصيل ، ولأن أكثر الآباء لا ينطبق عليهم تشاؤمه .

ثم إن الإسلام لا يرتضي هذه الرهبنة من قادر على الزواج .

والمحب أنه دافع عن العزوبة مرة أخرى[2] بأن الابن إذا ارتكب جرماً فاضحاً كانت فضيحة الأب أشنع ، وإذا كان الأبناء محلبة للضرر فإن ترك النسل أصوب ، وأدعى إلى الطمأنينة وسلامة العرض .

كأنكمُ لم تسمعوا أن من له ... عيالٌ ذعيرُ دهره ليس مُفلحا
فمن يشتلي والتون كما أرى ... جنود فساد ليس في ألفٍ مصلح
إذا ارتكب الإبن الجميع فضيحة ... فداك لعمر الله للأب أفضح

(١) الديوان ٨
(٢) الديوان ٢٦

وكل صنيع ليس للنفع حاسب ... وجرّ وحوه الصر فاهرك أروح[1]

وتدسق فى مؤلفته أنه تقدها وامترجت بها نفسه ، فآثرها على الأب ، وهو يكرر هذا ويشفع إلى مؤلفته تلاميذه وقراء كتبه ، ورواة علمه فى قوله[2] :

وحسبى تصابيفى وحسبى رواتها ... بنين بهم سقت إلىّ مطالبى

إذا الأب لم يأمن من ابن عقوقه ... ولا ابن يعق لابن بعض سوانب

فإن منهم من وعيه ... فإنهم أرجوهمُ للعواقب

وهو فى هذه الأبيات يتهم الحياة الزوجية ، ويقرنها بالسباحة فى البحر الذى قد يغرق[3] صاحبه ، فمن يخوض فى الأمواج ، أم من يقوم على الأرزاح ؟

---

(١) أروح : أكثر راحة

(٢) [illegible]

(٣) بوانح الكلم ٣٦

الفصل السادس

فى رحاب التفسير والتأويل

لمحة إلى التفسير قبل الزمخشرى

التفسير الإبانة والتوضيح ، وهو والتأويل بمعنى واحد فى رأى ، وفى رأى آخر أن التفسير كشف المراد عن المشكل ، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر

١ — عاش المفسرون ردحا من الزمن متحرجين من تفسير القرآن الكريم بآرائهم ، مكتفين بالنقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو بالأخذ عن الصحابة ، أو بفهم ما تمليه اللغة وتقتضيه التعبير وروح الشريعة .

فما تقدم الزمن ، وتقدمت الثقافة ، وتطور التفكير ، واحتدم الخلاف السياسى والمذهبى خطا المفسرون من طور الاعتماد على النقل إلى طور الاجتهاد والاعتماد على العقل ، فلم يتحرجوا من تفسير القرآن حسب آرائهم ؛ لأنهم رأوا فى التحرج عدولا عن التفكير والنظر واستنباط الأحكام ، ولو صح ما ذهب إليه المتحرجون لم يستطع أحد أن يستنبط شيئا ، بل لم يفهم كثيرا مما تضمنه كتاب الله .

ورأى هؤلاء أن الحديث الذى ينهى عن التفسير بالرأى — على فرض صحته — مراد به الرأى الذى لا يعتمد على أصل ثابت ، ولا يستند إلى روح الشريعة ، بل يذهب مع الهوى ، ولهذا اجتهد كثير من العلماء فى تفسير القرآن الكريم ، واعتمدوا على آرائهم ، لأنهم مستكملون للعدة التى يجب أن تتوفر

المفسر ، وجعل التفسير منذ القرن الثانى يتأثر باتجاهات المفسرين ، وصبغ بثقافاتهم .

فالنحاة كالزجاج والواحدى وأبى حيان — يهتمون بمسائل النحو وتوجيهها ، ويعربون القرآن إعرابا يساعد على تفسيره ، ويهتمون بالمشكلات النحوية فى مثل قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » وقوله تعالى : « إنّ هذان لساحران » .

واللغويون كأبى عبيدة والفرّاء — يهتمون كذلك فى تفسير القرآن ، ويهتمون بالمشكلات اللغوية .

وهؤلاء وأولئك لهم كتب تسمى معانى القرآن .

وآخرون اتجهوا إلى المجازات فى نحو قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم »

والفقهاء عنوا بآيات الأحكام ، وألفوا كتبا مثل كتاب أحكام القرآن على مذهب مالك ، وكتاب أحكام القرآن على مذهب أهل العراق لأبى بكر الرازى ، وكتاب أحكام القرآن للشافعى .

والمشتغلون بالعلوم العقلية حشدوا آراء الفلاسفة والحكماء فى تفسير بعض الآيات ، مثل الفخر الرازى ، والمتصوفة لوّنوا تفسيرهم بآرائهم كابن عربى الأندلسى

وعلماء الكلام أولوا بعض الآيات تعزيزا لمذهبهم ، مثل الزمخشرى [1]

٢ — وكان لابد للمفسر أن يكون موهوبا وعالما باللغة والنحو والصرف والاشتقاق والمعانى والبيان والبديع والقراءات والأصول وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والحديث والفقه .

ويذكر الزمخشرى أن المفسر يجب أن يكون على معرفة بالعلوم كلها ، —

(١) ضحى الإسلام ٢/١٤٦ وانظر ٩٩ — ١٠٧ للمؤلف .

من أن يكون حفظه [illegible] لما يسمع ، وأن يتمرس بحفظ النصوص الأدبية ، ويتعمق فى الأدب حتى [illegible] ، ويتبصر بمعانى كلام العرب ومناحيهم فى القول ، ومستودعات أسرار بدق نسجها ، علم التفسير الذى لا يتم تحصيله وإجالة النظر فيه كل ذى علم كما ذكر الحاطبى فى كتاب علوم القرآن . فالفقيه وإن برز على الأقران فى أحكام الشريعة ، والواعظ وإن كان أحفظ من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوى وإن عدّ أثبت الناس حجة ، لا يتصدى منهم أحد لولوج تلك الطرق ، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق ، إلا إذا كان قد [illegible] علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، وبرع فى [illegible] وبرع فى التحرير نحوه ، وتلك من سبع علوم هى فى معرفة طوائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون أحدا من سائر العلوم بحظ ، حصل من أدب حسن وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زمانا ورجع إليه ، وردّ وردّ عليه ، فارسا فى علم الإعراب ، مقدما فى حملة الكتاب ، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتمل القريحة وقادها ، يقظان النفس ، درّاكا للمحة وإن خفت شأوها ، متقدا على جمرة ذكاء وإن خبت مكانها ، لا كزّا جاسيا ولا غليظا جافيا ، متصرفا فى فنون [illegible] ، قد علم كيف يرتّب الكلام ويؤلّف ، وكيف ينضد ويرصف ، وكيف يدفع فى مضايقه ، ووقع فى مداحضه ومزالقه » [1]

ويكرر التنبيه على التذوق وخبرته بمعانى العرب والبيان ، ويعلل ذلك

(١) الكشاف ١/٣

القرآن معجز بنظمه لا بالصرفة ، فالنظم هو أم إعجازه ، والقانون الذى وقع عليه التحدى ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر [1] .

ويبدو من كلامه هذا أنه تأثر بما ردده عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، واطمأن إلى ما ذهب إليه الجرجانى من أن الحكم بالمجاز لا قيمة له إذا لم يؤيد بالكشف عن سر هذا المجاز ، إن من الآفة من زعم أن لا سبيل إلى معرفة العلة فى قليل ما تعرف المزية فى كثيره ، وأن ليس إلا أن يعمد لتقديم وهذا التكرير أو هذا العطف أو هذا الفصل حسن ، وأن له موقعا من النفس وحظا من القبول . فأما أن تعلم : لم كان كذلك ؟ وما السبب ؟ فما لا سبيل إليه ، ولا مطمع فى الاطلاع عليه ، فهو تواليه والكسل فيه فى حكم من دل بيت

وزعم أنه ليس بد من أن يمكن معرفة السكل وحب ترك النظر فى السكل . وأن يعرف العلة والسبب فى يمكنك معرفة ذلك فيه وفى كل ، فمتعلقه شاهد فيه ، وصارف أخرى من أن تفسد باب المعرفة على نفسك ، وتأخذها عن الفهم وتعودها الكسل وأهونها .

قال الخاطر : وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس ، وله مصرة شديدة وثمرة مرة ، فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئاً . فلو أن علماء كل عصر مذ حررت هذه الكلمة فى أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم يصل إليه فمن قبلهم لرأيت العلم مختلا .

واعلم أن العلم إنما هو معدن ، فكما أنه لا يمكنك أن ترى ألف وقر — حمل — قد أخرجت من معدن بئر أن تطلب فيه ، وأن تأخذ ما تجد ولو كقدر نواة — لؤلؤة — كذلك ينبغى أن يكون ذلك فى طلب العلم [2] .

(١) الكشاف ٢ / ٢٤
(٢) دلائل الإعجاز ٢٢٦

« إنك لن تعلم فى شىء من الصناعات علما تعرفه وتحظى حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب ، ويفصل بين الإساءة والإحسان ، بل حتى تفاضل بين الإحسان والإحسان ، وتعرف طبقات المحسنين .

وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفى فى [illegible] أن تصفها وصفا مجملا ، وتقول فيها قولا مرسلا ، بل لا بد من أن تعمد فى كل شىء حتى تفصل القول وتحصل ، وتضع اليد على الخصائص التى بها فضل فى كل الكلام ، وتعدها واحدة واحدة ، وتسميها شيئاً شيئاً ، وتكون معرفتك معرفة الصانع الحاذق الذى يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذى فى النسيج كل موضعه من القطع المنحورة فى الثياب المقطعة ، وكل آخره من الآجر الذى فى البناء البديع [1] .

وقد طبق الجرجانى نظريته فى كتابيه الدلائل والأسرار على كثير من الآيات القرآنية والنصوص الأدبية .

ثم جاء الزمخشرى فعنى بالكشف عن الإعجاز الكامن فى عبارات الكتاب

٣ — على نحو سابقيه بالتفسير اللغوى البلاغى ، مثل أبى عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى سنة ٢١١ هـ) ولكن جهود متضاءل إذا قيس بجهد الزمخشرى

٤ — وسبقه إلى التأويل على مذهب المعتزلة كثير من علمائهم ، وإن لم يصل إلينا من إنتاجهم إلا القليل ، فقد أقبلوا على تفسير القرآن الكريم وتأويله إقبالا ، فظهر منهم عشرات منذ ألف واصل بن عطاء (المتوفى سنة ١٣١ هـ) كتابه معانى القرآن [2] وألف قطرب — محمد بن المستنير — (٢٠٦ هـ) خمسة كتب فى الدراسات القرآنية هى : معانى القرآن ، والرد على الملحدين فى متشابه القرآن ، وإعراب القرآن ، ومتشابه القرآن ، ومجاز القرآن [3] وجمع مفسرو كل

(١) الرجع السابق ٣٠
(٢) معجم الأدباء ١٩ / ٢٤٧
(٣) معجم الأدباء ١٩ / ٥٣

بكر عبد الرحمن الأصم (٢٤٠) [١] وأبى على محمد الجبائى (٣٠٣) [٢] وأبى القاسم عبد الله البلخى الكعبى (٣١٩) [٣] وأبى هاشم عبد السلام الجبائى (٣٢١) [٤] وأبى مسلم محمد بن بحر الأصفهانى (٣٢٢) [٥] وأبى الحسن على الرمانى (٣٨٤) [٦] وأبى القاسم عبيدالله الأسدى (٣٨٧) [٧] .

ثم جاء القاضى عبد الجبار (٤١٥) فألف كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن)، وبعده الشريف المرتضى (٤٣٦) فتناول كثيرا من آراء المعتزلة ، وطبق الآيات مؤسسة عليها فى أماليه (غرر الفوائد ودرر القلائد) وهى مطبوعة ، وبعدهما أبو يوسف القزوينى (٤٨٣) الذى ألف تفسيرا كبيرا بث فيه آراء المعتزلة ، ومرجه لمعتقداتهم ، وهو ضخم فى ثلاثمائة مجلد ، منها سبعة مجلدات فى الفاتحة وحدها [٨]

[illegible] كثير من كثرة مفسرى [illegible] من واصل بن عطاء وأبى يوسف القزوينى أكثر من ثلاثين معتزليا ، لهم فى التفسير ومايتصل به مؤلفات تبلغ نحو مائة ، ولكن أكثرها مفقود [٩] .

ومن حق القاضى عبد الجبار على من يدرس الزمخشرى أن يدرس آراءه ،

---

(١) الفهرست ٥١
(٢) طبقات المفسرين ٢٣ والفهرست ٥
(٣) الفهرست ٥١
(٤) طبقات المفسرين ٢٣
٥١ الفهرست ٥ وتسميه الوعاة ٢٣
(٦) طبقات المفسرين ٢٤
(٧) طبقات المفسرين ١٩
(٨) طبقات المفسرين ١٠
(٩) تجد أسماءهم ومؤلفاتهم فى الفهرست لابن الندم وطبقات المفسرين وبغية الوعاة للسيوطى وإشارة الباب القفطى ومعجم الأدباء لياقوت وغيره والأمالى للمرتضى ووفيات الأعيان لابن خلكان وكشف الظنون لحاجى خليفة .

لأن [illegible] بين تفسير الزمخشرى كثيرا من المشابه فى الفكرة وفى الطريقة ، ولكن كتاب هذا لايتسع للدراسة المفصلة ، فسلم منها إلمامة سريعة .

أما القاضى عبد الجبار فهو [illegible] عبد الجبار بن أحمد ابن عبد الجبار الهمذانى الأسدآبادى الشافعى ، كان فى عصر [illegible] بعد [illegible] استدعاه الصاحب بن عباد [illegible] وولاه ، قضاءها [illegible] فى [illegible] ، وكان [illegible]

وله مؤلفات [illegible] الكلام و[illegible] وهذا [illegible]

و[illegible] [illegible] كله ، لأن مؤلفه [illegible] لا [illegible] من [illegible] الناس فى فهم [illegible] [illegible] الكتاب [illegible] أنى عليه من كل [illegible] [illegible] الأسلوب [illegible] عقيدة

فيقول مثلا فى تفسير [illegible] من [illegible] الكتاب لاريب فيه [٣]

مسألة [illegible] قال تعالى (ذلك الكتاب) ولم يعن هذا الكتاب

فحسب [illegible] وحين وعد [illegible] من كتاب عليه لايمحوه الماء ، فقد أين ذهبت فى (ذلك الكتاب) وبين ما وعدتك ، ولو قال هذا الكتاب لم يعد هذا العالم [٤]

مسألة [illegible] ما معنى لاريب فيه ؟ وقد علمتم أن خلقا يشكون فى ذلك ، فكيف يصح ذلك ؟ وإن أراد لاريب فيه عندى وعند من يعلم فلا فائدة فى ذلك

---

(١) شذرات الذهب ٣ / ٢٠٢ وطبقات المفسرين ١٦ .
(٢) مطبوع فى مجلد واحد
(٣) سورة البقرة ٢
(٤) ذكر الزمخشرى رأيين فى استعمال (ذلك) هنا ، أحدهما ما ذكره عبد الجبار (الكشاف ١ / ١٤)

فجوابنا : أن المراد أنه حق يجب ألا يرتاب فيه ، وهذا كما يبين المرء الشيء بخصمه، فيحسن منه بعد البيان أن يقول : هذا كالشمس واضح، وهذا لا يشك فيه أحد ، وهذا كما يقال عند إظهار الشهادتين إن ذلك حق وصدق ، وإن كان في الناس من يكذب بذلك[1] .

وتقول في قوله تعالى : ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾[2]

مسألة : قالوا : فقد قال تعالى (ختم ...) وهذا يدل على أنه منعهم من الإيمان ، ومذهبكم خلافه ، وكيف تأويل الآية

وجوابنا : أن للعلماء في ذلك جوابين: أحدهما أنه شبه حالهم بحال الممنوع الذي على بصره غشاوة، من حيث أزاح كل علتهم فلم تقبلوا، كما قد يعين للواحد حتى . فيوضحه ، فإذا لم يقبل صح أن تقول حار طبع الله على قلبه ،وربما تقول إنه ميت ، وقد قال تعالى للرسول : ﴿إنك لا تسمع الموتى[3]﴾ وكانوا أحياء ، وإنما شبههم بالموتى ، وهو كقول الشاعر

قد أسمعت لو دعوت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

وبين ذلك أنه تعالى ذمهم ، ولو كان هو المانع لهم لما ذمهم ، وأنه ذكر في جملة ذلك الغشاوة على سمعهم وبصرهم ، وذلك لو كان ثابتا لم يؤثر في كونهم متمكنين

والجواب الثاني : أن الختم علامة يفعلها تعالى في قلوبهم ، لتعرف الملائكة كفرهم ، وأنهم لا يؤمنون، فتجتمع على ذمهم،وتكون ذلك لطفا لهم، ولطفا لمن

(١) راجع ما تقدم آنفا عن الطاعن ٦ وفي الكشاف ما شبه هذا ١ / ١٥
(٢) سورة البقرة ٧
(٣) سورة النمل ٨٠

يعرف ذلك من الكفار أو نظره ، فيكون أقرب إلى أن يقلع عن الكفر . وهذا جواب الحسن رحمه الله ، وبهذا قال تعالى ﴿ولهم عذاب عظيم﴾[1] .

وفي وقوع رؤية خلق الله في الآخرة ، فتقول في تفسير قوله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[2] ما نصه ، وهو قوي دليل على أن الله تعالى يُرى في الآخرة

وجوابنا : أن من تعلق بذلك إن كان ممن يعول على الله في جميع ما يأتيه ويذره لا يراعه في أن يرى ، بل في أن يصافح ويعانق ، تعالى الله عن ذلك ، وإن كان ممن يعول على حاسة من حواسه

وإن كان ممن يعول على حاسة من حواسه فلا يعترف أن النظر إلى الله تعالى لا يصح ، لأن ما هو آلة في أن يصح الشيء منه رؤيته ، ولذلك لا يصح إلا في الأجسام

فيجب أن يدل على ما يصح أن يعلم به وهو الثواب إن شاء إلى ثواب يستحق عوضا عليه على ﴿وجوه ناضرة﴾[3] فيدل على أن من لا يصح أن يعلم لصحة ذلك منهم[4]

وعلى مثل هذا النهج يسير القاضي عبد الجبار في تأويله لمعارضه ودفاعه عنه ، مقتصرا على ذكره ، وبعض الدلائل ، وهي الكلام في كثير من الآيات على التشبيه والمجاز .

(١) سورة القرآن عن الطاعن ٩ وفي الكشاف خمسة أوجه في هذه الآية (الكشاف ١/٢١) .
(٢) سورة القيامة ٢٢ ، ٢٣
(٣) سورة يوسف ٨٢
(٤) سورة القرآن عن الطاعن ٣٥٨ وفي الكشاف (٢ / ٥٠٩) أن لمن وجوه يؤيد إلى نعمة الله وكرامته راجيه

الكشّاف

الباعث على تأليفه

١ — السبب الأول في تأليفه أن جماعة من المعتزلة كانوا يرجعون إليه في تفسير بعض الآيات، فيبرز لهم حقائقها، فيغيصون في الاستحسان والتعجب، ويستطيرون شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك، ثم اجتمعوا إليه مقترحين أن يملي عليهم الكشف (أو الكشاف) عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، فاستعفاهم، فأبوا إلا المراجعة، والاستشماع بعلماء الدين وعلماء العدل والتوحيد، فأملى عليهم مسألة في فواتح السور، وطائفة من الكلام على حقائق سورة البقرة، في كلام مبسوط كثير السؤال والجواب

٢ — فلما توجه إلى مكة وجد في البلاد التي اجتازها شوقا إلى ما أملاه على بعض المعتزلة، وحرصا على اقتباسه، فتحرك نشاطه إلى إكماله.

٣ — وحينما بلغ مكة وجد أميرها أبا الحسن علي بن حمزة بن وهّاس أشد الناس شوقا إلى هذا التفسير، حتى إنه كان يحدث نفسه في مدة غيبة الزمخشري عن الحجاز — مع كثرة مشاغله — بالوقوف عليه بحوادثه.

وحينما وجد الزمخشري بغيته في النصوص من تفسير القرآن كله، وهو يتحدث عن هذا يقوله: «فقلت قد ضاقت على المستعفي حيل، وعزّت به العلل، ورأيتني قد أحدثت مني لين، وعطفة شَنّ، وهممت لعشر التي تتلو العرب وفّقة الرغاب[1]، فأحدثت في طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التكثير من الفوائد، والتحص عن السرائر.

(١) هي سن الستين

ووفى الله وسدد، فعرضت منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق، وكان مقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة»[1].

وإذ كان الفراغ من تأليفه يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٢٨ هـ تجاه الكعبة في جناح داره السليمانية التي على باب أحياء الموسومة بمدرسة العلامة[2]، وقد ألفه في سنتين، فإن الذي يفهم من هذا أنه بدأ يؤلفه سنة ٥٢٦ هـ، وهو في التاسعة والخمسين أو في أول الستين من عمره، قبل أن يؤلف أساس البلاغة، بدليل ما ذكره في مادة (حفر) بالأساس.

بعض من نقل عنهم

قرأ الزمخشري تفاسير سابقية من معتزلة وغير معتزلة، ونقل عن هؤلاء وهؤلاء. فمن نقل عنهم القاضي عبد الجبار كما سبق، ومجاهد (المتوفى سنة ١٠٤ هـ) كما نجده في تفسيره لقوله تعالى: «وقال ربكم ادعوني أستجب لكم»[3].

فقال: إن المعنى اعبدوني، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن، ويدل عليه قوله تعالى: «إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين[4]»، والاستجابة الإثابة، وفي تفسير مجاهد: اعبدوني أثبكم[5].

ومنهم عمرو بن عبيد المعتزلي (١٤٤ هـ) فهو ينقل عنه كثيراً، وكتابه لم يصل إلينا، نجده في تفسيره للآية الكريمة «فصارا تهتر كأنها جان ولى مدبراً»[6] ويقول: قرأ الحسن حأن على لغة من يجد في الهرب من التقاء

(١) مقدمة ف ١ ج ١
(٢) خاتمة الكشاف بخط المؤلف ٣ / ٥٢٠
(٣) سورة غافر ٦٠
(٤) نفس السورة والآية
(٥) الكشاف ٣ / ٣٢ ونقل عنه أيضاً في ٣ / ٤٦٥
(٦) سورة النمل ١٠

ما كنين ، فيقول شأنة ودأنة ، ومنها قراءة عمرو بن عبيد « ولا الضألين »[1]

ومنهم أبو بكر الأصم المعتزلى (٢٢٤ هـ) وتفسيره لم يصل إلينا .

ومنهم الزجاج (٣١١) ، كما فى تفسيره لقوله تعالى : « هيهات هيهات لما توعدون »[2] فإنه عقب بقوله : فإن قلت « ماتوعدون » هو المستبعد ، ومن حقه أن يرتفع فى هيهات كما ارتفع فى قول الشاعر فهيهات هيهات العقيق وأهله ، فما هذه اللام ؟

فقد قال الزجاج فى تفسيره : البعد لما توعدون ، أو بُعْدٌ لما توعدون ، فيمن نون ، فنزل منزلة المصدر ، وفيه وجه آخر وهو أن تكون اللام لبيان المستبعد وهو بعد التصورات بكلمة الاستبعاد ، كما جاءت اللام فى (هست لك)[3] لبيان المهيب به[4] . كذلك نقل عنه تفرقته بين الشروق والإشراق ، لأن الزجاج ذكر فى كتابه (معانى القرآن) عند تفسيره قوله تعالى « فأخذتهم الصيحة مشرقين »[5] أن الإشراق طلوع الشمس وإضاءتها ، فقال شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت ، وقيل إنهما بمعنى واحد .

وقال الزمخشرى : الإشراق هو حين تشرق الشمس أى تضىء ويصفو شعاعها ، وهو وقت الضحى ، وأما شروقها فطلوعها ، يقال شرقت ولما تُشرق[6]

---

(١) الكشاف ٢ / ١٣٨
(٢) سورة المؤمنون ٣٦
(٣) سورة يوسف ٢٣
(٤) الكشاف ٢ / ٧٣
(٥) سورة الحجر ٨٣
(٦) الكشاف ٢ / ٢٧٨

وقال مثل هذا فى أساس البلاغة[1]

ومنهم الرمانى المعتزلى (٣٨٤ هـ) صاحب التفسير الذى لم يبق منه إلا جزء عم ، فقد نقل ماذكره فى تفسير قوله تعالى : « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » أن المرء هنا هو الكافر ، لقوله تعالى « إنا أنذرناكم عذابا قريبا ، يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ، وقيل المرء عام وخصص منه الكافر ، وعن قتادة هو المؤمن[2] .

ومنهم عبد الله بن درستويه ، فقد نقل من كتابه (الكتاب للتمم فى الخط والهجاء)[3] .

وكذلك نقل من غير هؤلاء ، مثل سيبويه[4](صاحب الكتاب) ، وأبى على مؤلف (الحجة)[5] ، والجاحظ فقد أحال إلى كتاب (الحيوان) لمعرفة غرائز الإنسان[6] ، والواقدى فقد نقل عنه تعيين الحديبية بأنها طرف الحرم على تسعة أميال من مكة[7] .

على أنا نجد فى تفسيره تردده لأسماء مئات من القراء واللغويين والنحاة والمفسرين ، مثل الحسن بن على ، وعبد الله بن عباس ، وقتادة ، وعلى بن الحسين ، وعبد الله بن عمر ، وجرير بن عبد ، وسعد بن مسعود ، ومقاتل ، ومجاهد ، وعكرمة ومسلمة ، وأبى ذر ، والثورى ، وسفيان بن عيينة ، وابن الصحاك ، وسعيد بن جبير ، والشعبى

---

(١) ... ٤٠٠ :
(٢) سورة النبأ ٤٠ وتفسير جزء عم للرمانى ورقة ٢٨ والكشاف ٢ ، ٤٢٠ .
(٣) الكشاف ١ / ١٢
(٤) الكشاف ١ / ١٢
(٥) الكشاف ١ / ١٠
٦ كشاف ٢ ١٤٢
(٧) الكشاف ١ / ٩٣

وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبي هريرة، وأبي حذيفة، وسعيد بن جبير، وواثلة بن الأسقع، وزيد بن أرقم، وعبد الله بن مسعود، وأنس، وجابر بن عبد الله، وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وغيرهم من الصحابة والتابعين.

وقد حفل كثير من هؤلاء وغيرهم بالحديث والقصص، وجمع كل عدد كبير منهم أحاديث خاصة، أو شروحاً لآيات القرآن، ومسائل كثيرة في الفقه والنحو واللغة، وتخصص بعض آخر في التفسير، وهذه كلها في كل منها

أولاً - في خِضَمِّ الاعتزال

لمحة إلى المعتزلة

المعتزلة فرقة دينية نشأت في العراق، ثم ذاعت آراؤها بالعراق وما حوله

وهي في نشأتها متحدة لفرقة المرجئة، لأن الفرقتين تتشابهان في التوقف عن الحكم على كلا الحزبين من أصحاب الجمل وأصحاب صِفِّين، وفي وصف مرتكب الكبيرة بأنه ليس كافراً، وفي القول بحرية العبد واختياره، إذ أن بعض المرجئة مثل معبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم سبقوا المعتزلة إلى القول بالحرية والاختيار، ودان بهذا الرأي واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، وهما المؤسسان لفرقة المعتزلة.

ثم إنها في تطورها متأثرة بالثقافات الأجنبية ولاسيما الفلسفة اليونانية، إذ كانت ذات سلطان على الفكر العراقي في الشرق منذ زمن بعيد قبل أن يستهل الإسلام بزمن بعيد فلسفة أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق م وهو الذي يطلق العرب على فلسفة مذهب الإسكندرانيين، ويسمونه الشيخ اليوناني، وقد

وقد شرع مذهبه وفريق بالإسكندرية وأثينا، ثم ردت الفلسفة اليونانية مذاهبها وهو عند عهد كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) إذ حوصرت بمدارس المسيحية، وأغلق مدارس الفلسفة في أثينا، واضطهد الفلاسفة، فهاجر بعضهم إلى فارس، حيث رحب بهم كسرى أنوشروان، وأسس لهم مدرسة فلسفية بجنديسابور، فعلموا بها الفلسفة والرياضة والطب ومنطق أرسطو[1]، ثم تنصر بعضهم، وصبغ نصرانيته بفلسفته.

وفي هذا الوقت ألف بولس بوسا المسيحي مختصراً لمنطق أرسطو باللغة السريانية، ليقرأه كسرى «عرض فيه الآراء المختصة بالله والعالم على هذا النحو: لقد وجد من يعتقدون في إله واحد، ومنهم آخرون أنه ليس بواحد، ويقول آخرون إن له صفات متعددة، وينفي آخرون عنه الصفات، وبعضهم يقول إنه قادر على كل شيء، وبعضهم يقول إن قدرته لا تشمل كل شيء، وبعضهم يقول إنه خلق الدنيا وكل ما فيها، وآخرون يقولون إنه ليس خالق كل شيء، وهناك من يقول إن العالم محدث، وآخرون يقولون إنه عالم قديم».

وقد عقب (كاسار بلّي) على هذا بأن المؤلف وصف الآراء الشائعة في عصر مؤلفه لا التي عاشت في الوقت الذي عاشت فيه[2]

وكان السريان يساهمون في نشر الأفلاطونية الحديثة بالعراق وما حوله، إذ كانت لهم مراكز علمية بالرها ونصيبين وحران وجنديسابور، وكانوا يترجمون من اليونانية إلى السريانية، ثم ترجموا من السريانية إلى العربية، واستمر جهدهم هذا من القرن الرابع إلى العاشر الميلادي

---

(١) مرجع سابق في الإسلام ١٨ ... ٢١ دي بور

(٢) ... في عهد ... ١ ... سس

(٣) ... سابق في الإسلام ١٩ دي بور

ومن أشهر رجالهم (ابن دصان إبان دصان المتوفى سنه ٢٢٢ م) الذى كان ينكر بعث الأجسام ، ويعقوب الرهاوى (٢٠ — ٩٠ هـ/ ٦٤٠ — ٧٠٨ م) الذى أباح لرجال الدين أن يعلموا أبناء المسلمين . ومعنى هذا أن بعض المسلمين كانوا يشتاقون إلى دراسة الفلسفة على أساتذة من السريان ، وأن هؤلاء كانوا يترددون فى تعليمهم ولا يقدمون عليه .

وكانت طوائف النصارى فى الأقاليم التى فتحها المسلمون تتجادل فى طبيعة المسيح، وتتجادل فى رجعته، وتختلف فى البعث أيكون بالأجسام والأرواح معاً أم بالأرواح وحدها ؟ وتتنازع فى صفات الله تعالى أهى ذاته أم زائدة على ذاته ، وتختلف فى أعمال الناس أجبرية أم اختيارية ؟ وفى خضم هذا الجدل كانت الفلسفة اليونانية تموج ، ويتقوى بها المجادلون ، إذ كان كثير من رجال المسيحية فلاسفة أو دارسين للفلسفة مثل الأب أوغسطينيوس (٣٥٤ — ٤٣٠ م) وكانت الإسكندرية ملاذ النصرانية المتفلسفة أو الفلسفة المتنصرة .

ثم احتدم الجدل بين المسلمين والنصارى ، فألف يحيى الدمشقى النصرانى (توفى سنة ١٣١ هـ ٧٤٨ م) رسالة فى الرد على المسلمين تجرى على هذا النهج : إذا قال لك العربى كذا فأجبه بكذا .

وأغلب الظن أن كثيراً من آرائه فى هذا الحوار ، وفى مذهبه فى القضاء والقدر ، وحرية الإرادة ، قد تسربت إلى المسلمين ، لأن بعض مناقشاته كانت تدور فى مجلس خصومة

وكان من أثر هذا كله أن تطور الفكر العربى ، فظهرت ألوان جديدة من الثقافة يمازج بعضها بعضاً ، وكانت ينابيع هذه الثقافة عربية وإسلامية ودخيلة ، وصار بعض المسلمين الذين حملوا ألوية التفكير على صلة وثيقة وشبه وثيقة بهذه الثقافات ، واستعانوا بها فى مجادلاتهم لليهود والنصارى وغيرهم ، وكان لمعتزلة أقدر المسلمين على هذه المجادلات ، لأنهم فى طبيعة الدارسين

للفلسفة وللعلوم المختلفة ، شغفاً بالمعرفة ، ورغبة فى الإحاطة بما يعلمه خصومهم ، وليستطيعوا محاجتهم ومناظرتهم ، وليؤيدوا أصول الإسلام بأدلة ليست من القرآن والحديث يضطر أعداء الإسلام إلى التسليم بها .

لهذا قال الجاحظ [١] : « لا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام ، متمكناً فى الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة ، والعلم عندما هو الذى يجمعهما » .

وذكر المقريزى أن المأمون بعث إلى بلاد الروم من عربوا له كتب الفلاسفة ، فقرأها المعتزلة ، وأقبلوا على تصفحها والنظر فيها ، فاشتد ساعدهم بها [٢] .

وجاء فى وصف المرتضى لواصل بن عطاء أنه ليس أحد أعلم بكلام الشيعة ومارقه الخوارج والمرجئة وسائر المخالفين ورد عليهم من واصل [٣] ، وقوله إن جعفر البرمكى ذكر أرسطاليس ، فقال النظام قد نقضت عليه كتابه ، فقال جعفر : كيف وأنت لا تحسن أن تقرأه ؟ فقال أيما أحب إليك ؟ أن أقرأه من أوله إلى آخره أم من آخره إلى أوله ؟ ثم اندفع يذكر منه شيئاً شيئاً ، ويعقضه عليه ، فعجب منه جعفر [٤]

وذكر الشهرستانى عند قول المعتزلة بنفى الصفات القديمة أن هذه المقالة كانت فى مبدأ الأمر غير نضيجة ، وكان واصل بن عطاء يذهب إلى أن من أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين ، وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة ، وانتهى نظرهم إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالماً قادراً ، ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان ، أو حالان ، ومال أبو الحسن البصرى إلى ردهما

---

(١) الحيوان ٧/١٣٤
(٢) الخطط ٤/١٨٣
(٣) المنية والأمل ١٨
(٤) المرجع السابق ٢١

إلى صفة واحدة وهى العلية ، وذلك عين مذهب الفلاسفة [١]

ومعنى هذا أن تيارات عدة من عصرية تعتنقها ، ومن المسلمين المتأثرة ، ومن اليهودية وغيرها ، تسربت إلى مسلمين مختلفين ، وإلى مسلمين يدين بعضهم عن الإسلام ، أو عن رأى من الآراء المذهبية .

وهذا فى رأى كريمر هو التعليل الذى يجب أن يفسر به المشابه الذى يلاحظه فى مظاهر المسيحية البيزنطية والتعاليم الإسلامية .

إن البحث فى كنه الله وصفاته هو أول شىء له بالقدم الأول فى مؤلفات آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين المسلمين ، وهؤلاء المسلمون شغلوا أنفسهم إلى حد كبير بالأبحاث التى تدور حول القضاء والقدر والإرادة ، مثلهم فى هذا مثل آباء الكنيسة الشرقية . ثم يفصل فون كريمر رأيه بعد ذلك فى الصلات والمشابهات التى بين الكنيسة الشرقية والإغريقية فى الشام وبين المرجئة والقدرية [٢] .

أما فى العراق فإن التشابه قوى بين آراء المعتزلة التى عرض الحسن البصرى غراسها الأول وبين آراء السيطرة الدينية المتأثرة بالفلسفة الإغريقية ، وهذا يقول دى بور : « هناك دلائل متفرقة على أن طائفة من المسلمين الأولين الذين قالوا بالاختيار تتلمذوا لأساتذة مسيحيين [٣] .

وقد يعزز هذا ما قيل من أن أول من تكلم فى القدر بصرى من العراق اسمه ، ثم عاد إلى نصرانيته ، وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى القدرى ، وهما من المرجئة [٤] .

(١) الملل النحل ١ / ٥١
(٢) الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ٦٦ فون كريمر .
(٣) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ٤٩ دى بور
(٤) شرح العيون ١٦٦ لابن نباتة وصحيح مسلم كتاب الإيمان

ويروى أن الجعد بن درهم أول من تكلم فى خلق القرآن بدمشق ، ثم طلب فهرب حتى نزل الكوفة ، فتعلم منه الجهم بن صفوان ، ويقال إن الجعد أخذ آراءه عن أبان بن سمعان ، وأبان كان تلميذ لطالوت ، وطالوت كان تلميذ خالته لبيد بن الأعصم اليهودى ، وكان طالوت يقول بخلق التوراة وكان زنديقا [١] ، وهو أول من صنف فى ذلك ، ثم أظهر الجعد بن درهم هذه الآراء ، فقتله خالد القسرى بالكوفة فى عيد هذا من عيد النحر ، كما فعل فى عهده عمال دمشق لأنه كان قدريا [٢] ، وقد كان الجعد من المرجئة وهم — كما سبق — أصل المعتزلة .

ثم طالعت المعتزلة مثل أبى الهذيل العلاف والنظام ومعمر بن عباد والجاحظ كتب الفلاسفة فى زمن المأمون ، واستخرجوا منها ما خلطوه بأوضاع الشرع ، وسموا مذهبهم ، وسميت آراؤهم ، فسميت بحوثهم بعلم الكلام [٣] .

وقد أكد دى بور أن مذاهب المتكلمين تأثرت بعوامل مسيحية أبلغ التأثر ، وتأثرت العقائد الإسلامية فى تكونها بمذاهب الملكانية والنسطورية فى دمشق ، كما تأثرت فى البصرة وبغداد بالمذاهب النسطورية والنسوسطية ، ولم يخلص إلينا شىء من الآراء المكتوبة المتعلقة بتلك الحركة فى أوائل نشاطها ، غير أننا لا نعدم الصوت بأن إن اختلاط المسلمين بالمسيحيين وتلقيهم العلم منهم فى مدارس كان له عظيم الأثر فى ذلك .

ونحن نجد بين مذاهب المتكلمين الأولى فى الإسلام وبين العقائد المسيحية شبها قويا لا يستطيع أحد معه أن ينكر أن بينهم اتصالا مباشرا ، وأول مسألة قام حولها الجدل بين علماء المسلمين هى مسألة الاختيار ، وكان مسيحيون الشرق يكادون جميعا يقولون بالاختيار [٤] .

(١) ابن الأثير ٧ / ٢٦
(٢) شرح العيون ١٦٨ وابن الأثير ٥ / ١٦٦
(٣) الفرق بين الفرق ١٠٩ ونقد العلم والعلماء ١٠٢
(٤) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ٤٨

ولكن المعتزلة مع هذا كله كانوا يسندون أصول آرائهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنهم استقوا من واصل بن عطاء ومن عمرو بن عبيد ، وهذا أخذ عن محمد بن علي بن أبي طالب وهو في هاشمية عبد الله ، وقد أخذ محمد عن أبيه علي ، وأخذ علي عن رسول الله ، وهو ما يذكره محمد بن علي هو الذي روى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وجرجه ، كما يروي أخبار شتى عن مذهبه ، منسوبة إلى أبي بكر وعمر وعثمان والحسن وابن عباس [1] .

كما أنهم أولوا الآيات القرآنية تأويلا يوافق مذهبهم ، ويؤيدهم في رد على مخالفيهم ، وفي نقض الشبه التي أثيرها خصوم الإسلام ، لأن المصدر هو القرآن الذي تستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل [2] .

أما دفاع المعتزلة عن الإسلام فقد بدأ من عهد مبكر ، فعبد الرحمن واصل بن عطاء على مخالفي مذهبه ، وهو في اثنين من عمرو ، وذكر عمرو للجاحظ أنه وضع الجزء الأول من كتاب ألف مسألة في رد على من خالفه من أهل البصرة ، وأحصى في ذلك الجزء ثنتين وثمانين مسألة ، وذكر مناظرات له مع بعض الملاحدة مع محوس والثنوية وغيرهم ، صنفه مقصدة ، وهي ، أسم التي منه أكثر من ثلاثة آلاف ورق [3] .

ولنجاحه في هذا الميدان بلاء عظيم ، فله رسالة في الرد على النصارى [4] ، وله كتاب في الرد على بعض القصاص [5] ، وله ردود ومناقشات شتى في كتب

(١) المنية والأمل ٤
(٢) الكشاف ١ / ٤٨٨
(٣) المنية والأمل ٢١
(٤) ضمن مجموعة (الآثار رسائل للجاحظ نشرها وشرح فسكل طبعة ساسي
(٥) ذكره الجاحظ في رسالة بيان مناقب الشيعة ١٨٩ من مجموعة رسائل الجاحظ

الحيوان ، كرده على المجوس في إنكار عذاب النار [1] ، ورده على زرادشت في تحويف أصحابه بالبرد والثلج [2] ، وإبطاله لإنكار الدهرية ملك سليمان ومسكه ميتا [3] .

والمعتزلة بعامة جهد عظيم في نصر آرائهم ، يتمثل في المناظرة ، وفي تأليف الرسائل والكتب ، كما فعل ابن الخياط في كتابه الانتصار .

أصول المعتزلة وكيف أيدها

للمعتزلة أصول قام عليها مذهبهم [4] ، وقد أيدها الزمخشري بكل ما استطاع من فكر وبيان ، وأول الآيات القرآنية التي يتفق مع هذه الأصول ويؤكدها .

(١) التوحيد

مسلمون جميعا موحدون ، لا يشركون مع الله أحدا ، وكل معتزلة وضع توحيدهم على حد سواء ، وليس هذا أمرا يمكن أحدا من المسلمين أن يعرض لها .

فقد وجدوا في القرآن الكريم آيات تبرهن على مذهبهم ، وآيات من ظاهرها على التجسيم ، ورأوا آيات تدل على أنه تعالى ليس في جهة أو مكان ، وآيات يفهم من ظاهرها الجهة والمكان .

(١) الحيوان ٥ / ٦٩
(٢) الحيوان ٥ / ٦٨
(٣) الحيوان ٤ / ٨٥
(٤) المنية والأمل ٦ والملل والنحل ١ / ٤٩

وكان كثير من المسلمين ينزهون الله عن المماثلة ، ويمسكون عن الكلام فى الآيات التى يدل ظاهرها على المماثلة ، مؤثرين البعد عن التأويل

أما المعتزلة فلم يرتضوا هذا المسلك ، وحملوا يؤولون الآيات التى يوهم من ظاهرها التجسيم أو الحلول فى جهة أو مكان تأويلا يتفق وتنزيه الله سبحانه عن المشابهة ، حتى روى أن النظام ناجى ربه بقوله وهو يحتضر : اللهم إن كنت تعلم أنى لم أقصر فى نصر توحيدك ، ولم أعتقد مذهبا من المذاهب المنتنة — يريد المشبهة — إلا لأنه يوهم التوحيد ، فما كان منها يخالف التوحيد فأنا منه برىء ، اللهم فإن كنت تعلم أنى كما وصفت فاغفر لى ذنوبى ، وسهل على سكرة الموت [1] .

وتواطئوا على هذا التوحيد كثيراً من المعتقدات .

١ — فنفوا عن الله الصفات المستقلة القديمة ، وقالوا إنه عالم بذاته ، قادر بذاته ، حى بذاته ، وليست الحياة والقدرة والعلم صفات غير ذاته ، بل هى صفات قديمة ومعان قائمة به ، لأنه يوصف بالمشاركة فى القدم الذى هو أخص الوصف بالمشاركة فى الألوهية ، وهو سبحانه منزه عن المثل ، لأنه القديم الأزلى وما سواه محدث ، فلا يصح أن تكون له صفات أزلية منفصلة عنه ، لأن القول بها يعدد .

ولهذا سموا أنفسهم أهل التوحيد [2]

ويتصل بالتوحيد رد الصفات كلها إلى كونه عالما قادراً ، والحكم بأنها ليست ذاتيات أو اعتبارات للذات القديمة أو حالات [3]

(١) الانتصار للخياط ١٠١
(٢) الملل والنحل ١ / ٤٩
(٣) الملل والنحل ١ / ٥٩

وذكر الشهرستانى من آراء أبى الهذيل العلاف — وهو من شيوخ المعتزلة — أنه انفرد عن أصحابه بقواعد ، منها أن البارى تعالى عالم بعلم ، وعلمه ذاته ، قادر بقدرة ، وقدرته ذاته ، حى بحياة ، وحياته ذاته

وعقب الشهرستانى على هذا قائلا : إنما قدس هذا الرأى من العلامة الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه ، وإنما الصفات ليست وراء الذات معانى قائمة بذاته ، بل هى ذاته . . . . ثم قال : وإذا أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وجوها للذات ، فهى عنده هى المعبر عنها بالوجوه والأحوال عند أبى هاشم [1] .

٢ — ونفوا المشيئة عن الله سبحانه بمعنى أنه ليس من كل وجهة ، ممكنا وجهة وصورة وجنسا وكيفا وثقلا وتعبيراً ، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة ، وسموا هذا توحيدا [2] .

وقد حرص الجاحظ على تأويل الآيات وغيرها من العقيدة فيما يشبه المعتزلة من بعده .

فقال فى تفسير قوله تعالى : وكلم الله موسى تكليما ، وكلمه ربه قال ربه : أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى [3] .

كلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك ، وكتبه أن يخلق الكلام منطوقا به فى بعض الأحراز كما خلقه محفوظا فى اللوح ، وروى أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة .

وعلق ابن المنير بقوله [4] : هذا تصريح منه بخلق الكلام ، كما هو معتقد معتزلة .

(١) الملل والنحل ١ / ٥٣ يريد أن أبا هاشم قال إن العلم والقدرة حالان للذات الإلهية .
(٢) الملل والنحل ١ / ٤٩
(٣) سورة الأعراف ١٤٣
(٤) سيأتى التعريف به فى قيمة الكشاف وأثره

والذى يخص هذه الآية من وجوه الرد عليه أنها سيقت مساق الامتنان على موسى باصطفاء الله له وتخصيصه إياه بتكليمه ، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها : « إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » فلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف والأصوات فى بعض الأجرام واستماع موسى لذلك لكان كل أحد يساوى موسى عليه السلام فى ذلك ، بل كان آحاد أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام أكثر بهذه المزية وأحق بخصوصيته من موسى ، لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام وأركبها خلقا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت مزيتهم أظهر وخصوصيتهم أوفر ، ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تميز موسى بهذه المزية ، فلا يحمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى بلا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها ، وكما أجزنا من المعقول أن يُرى ذات البارى وإن لم يكن جسما ، فكذلك يجوز أن يُسمع كلامه وإن لم يكن حرفا ولا صوتا[1] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون[2] » : أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكناها ، لنتبين أتعملون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم .

فإن قلت : كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة ؟

قلت : هو مستعار للعلم المتحقق الذى هو العلم بالشىء موجودا أشبه نظر الناظر وعيان المعاين فى تحققه .

---

(١) الكشاف وحاشيته ١ / ٣٤٥
(٢) سورة يونس ١٤

وعلق ابن المنير بقوله :

كنت أحسب أن الزمخشرى يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى ، فضم إلى ذلك إنكار رؤية الله ، والجمع بين هاتين النزعتين عقيدة طائفة من القدرية تقول إن الله لا يُرى ولا يُرى ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا[1] .

وقال فى تفسير قوله تعالى لله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون[2] » :

لله أحسن الأسماء ، لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك ، فسموه بتلك الأسماء ، واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها ، فيسمونه بغير الأسماء الحسنى ، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه ، أو يأتوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى

ويجوز أن يريد بالله الأوصاف الحسنى ، وهى وصف ذاته بالجود والإحسان والنعماء على الخلق ، فصفوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى وصفه ، فيصفونه بضد القبح وبحق الفحشاء والمنكر وبما يدخل فى التشبيه كالرؤية ونحوها .

وعقب ابن المنير على هذا بقوله :

لا يدع حشو العقائد الفاسدة فى غير موضع ، فإن يكن المراد الأوصاف الحسنى مما وصف الله سبحانه به نفسه ولا غرو فى ذلك حتى لا يشرك معه عباده فى خلق أفعالهم ، ويعظم الله تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل ، وأن كل قضائه عدل ، وأنه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بعقولهم ، وأن وعده الصدق وقوله الحق ، وقد وعد رؤيته فوجب وقوعها ، إلى غير ذلك من أوصافه[3] .

---

(١) الكشاف وحاشيته ١ / ٤١٦
(٢) سورة الأعراف ١٨٠
(٣) الكشاف وحاشيته ١ / ٣٥٨

وقال فى تفسير قوله تعالى: «وما قدروا الله حق قدره، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون[1]»: نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل، فقال «والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه».

والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته، والتوقيف على كنه جلاله لا غير، من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز، وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله فقال: يا أبا القاسم إن الله يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول أنا الملك، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبا مما قال، ثم قرأ تصديقا له «وما قدروا الله حق قدره إلى آخر الآية» وإنما ضحك أفصح العرب وتعجب، لأنه لم يفهم منه إلا ما لا يفهم إلا علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شىء من ذلك، ولكن فهمه وقع أول شىء وآخره على الزبدة والخلاصة التى هى الدلالة على القدرة الباهرة، وأن لأفعال العظام التى تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هوانا لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبارة فى مثل هذه الطريقة من التخييل، ولا ترى بابا فى علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب، ولا أنفع وأعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى فى القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإن أكثره تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديما، وما أتى الزلل إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير، حتى يعلموا أن فى عداد العلوم الدقيقة علما لو قدروه حق قدره لما خفى عليهم أن العلوم

(١) سورة الزمر ٦٧

كلها مفتقرة إليه وعيال عليه، إذ لا يحل عقدها المورية، ولا يفك قيودها سكره إلا هو

وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات العنة والوجوه الرثة، لأن من تأول ليس من هذا العلم فى عير ولا نفير، ولا يعرف قدر ما هو فيه

وعقب على هذا ابن المنير فقال:

إنما عنى بما أجراه هاهنا من نمط التخييل التمثيل، وإنما العبارة موهمة منكرة فى هذا المقام، لا تليق به بوجه من الوجوه

وقال فى تفسير قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى»[2]

ما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك ثم ردف ذلك جعوده كما يفعله عتاة الملوك، فقد يستوى فلان على العرش وإن لم يجلس عليه ولم يقعد على السرير البتة، وقالوه أيضاً لشهرته فى ذلك المعنى ومساواته ملك فى مؤداه، وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر، ومحوه قولك يد فلان مبسوطة، ويد فلان مغلولة، بمعنى أنه جواد أو بخيل، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت، حتى إن من لم يبسط يده قط بالنوال، أو لم تكن له يد، قيل فيه يده مبسوطة، ومن لا يده له أصلا يقال فيه هو جواد، وفى قوله تعالى وحكى عن اليهود «يد الله مغلولة»[3] أى هو بخيل «بل يداه مبسوطتان[4]» أى هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط، والتعبير بالنعمة، والتمحل للثنية من ضيق

(١) [illegible] وحاشيته ٢ / ٣٠٥
(٢) سورة طه ٥
(٣) سورة المائدة ٦٤
(٤) سورة المائدة ٦٤

العطف ، والبعد عن علم البيان مسيرة أعوام [١] .

ولم يعلق ابن المنير على هذا شيء .

وقال في تفسير قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم » [٢]

أكد المبايعة على طريق التخييل فقال (يد الله فوق أيديهم) يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله ، والله تعالى منزه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام ، وإنما المعنى تقرير عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما ، كقوله تعالى : « مَنْ يُطِعِ الرَّسولَ فقد أطاعَ اللهَ » [٣] . والمراد بيعة الرضوان [٤] .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ونحن أقربُ إليه من حَبْلِ الوَرِيدِ » [٥] . القرب هنا مجاز ، والمراد قرب علمه منه ، وأنه متعلق بمعلوماته منه ومن أحواله تعلقا لا يخفى عليه شيء من خفياته ، فكأن ذاته قريبة منه ، كما يقال الله في كل مكان ، وقد جل عن الأمكنة [٦] .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلالِ والإكرام [٧] » : وجه ربك : ذاته ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات ، ومساكين مكة يقولون : أين وجه عربي كريم ينقدنا من الهوان .

---

(١) الكشاف ٢ ٢٠٠
(٢) سورة الفتح ١٠
(٣) سورة النساء ٨٠
(٤) الكشاف ٣٨٣/٢
(٥) سورة ق ١٦
(٦) الكشاف ٢ ٤٠٢
(٧) سورة الرحمن ٢٧

وقرأ عبد الله (ذي الجلال) على صفة ربك ، ومعناه : الذي يُجِلُّه الموحدون عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم ، أو الذي يقال له ما أجلك وأكرمك ، أو من عنده الجلال والإكرام لصفوة من عباده .

وعلق على ما مر بقوله :

المعتزلة ينكرون الصفات الإلهية التي دل عليها العقل ، فكيف بالصفات السمعية ؟ على أن من الأشعرية من حمل الوجه واليدين والعينين على نحو ما ذكر ، ولم ير أنها صفات سمعية [١] .

٣ — وأنكروا رؤية الله بالأبصار في الآخرة [٢] ، لأن الحاسة إذا تعلقت انتفت الجهة ، وإذا انتفت جهة تعلقت الرؤية ، وبهذا أولوا الآيات والأحاديث ، وهو بعض الأحاديث ، لأنها أخبار آحاد .

وبمخشري في تفسيره حديث طويل ، منه ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » [٣]

أرني نفسك أنظر إليك ، والرؤية عين النظر ، فكيف قال أرني أنظر إليك ؟ أي اجعلني متمكنا من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك وأراك .

وإذ كانت الطيبة هي الرؤية لا النظر الذي لا إدراك معه ، قال تعالى (لن تراني) ولم يقل لن تنظر إلي .

---

(١) الكشاف وهامشه ٢ ٤٢٥
(٢) الملل والنحل ٤٩/١
(٣) سورة الأعراف ١٤٣

فإن قلت : كيف طلب موسى عليه السلام ذلك ، وهو من أعلم الناس بالله وصفاته ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، وبتعاليه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس ، وذلك إنما يصح فيما كان في جهة ، وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة ، ومنعُ المجبرة إحالته في العقول غير لازم ، لأنها ليست بأول مكابرتهم وارتكابهم ، وكيف يكون طالبه وقد جاء في السورة نفسها : « و[illegible] موسى قومه سبعين رجلا [illegible] [illegible] رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء [illegible] إلا فتنتك [illegible] من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خيرُ الغافرين » (١) فتبرأ من فعلهم ، ودعاهم سفهاء وضلالا ؟

قلت : ما كان طلب الرؤية إلا ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالا وتبرأ من فعلهم ، وليلقمهم الحجر ، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ، ونبههم على الحق ، فلجوا وتمادوا في لجاجهم ، وقالوا لا بد ، ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأراد أن يسمعوا [illegible] [illegible] بنفسه ، [illegible] ويزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة ، فلذلك قال رب أرني أنظر إليك ، وفي ذلك كان في هذا الردع والزجر لموسى عن طلبه ، والإنكار عليه في [illegible] واختصاصه وزلفته عند الله تعالى كانوا هم أولى بالإنكار

[illegible] سبحانه وتعالى [illegible] « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » (٢) ، وقوله « لا تدركه الأبصار (٣) » نفى الرؤية فيما يستقبل ، (ولن تراني) تأكيد وبيان ، لأن المنفى مناف لصفاته . فإن قلت : كيف اتصل الاستدراك في قوله (ولكن انظر إلى الجبل) بما قبله ؟

(١) سورة الأعراف ١٥٥
(٢) سورة الحج ٧٣
(٣) سورة الأنعام ١٠٣

قلت : اتصل به على معنى أن النظر إلىّ محال فلا تطلبه ، ولكن [illegible] نظر آخر ، وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به ، وكيف أجعله دكاً بسبب طلبك الرؤية ، لتستعظم ما أقدمت عليه [illegible]

[illegible]

[illegible] يدكه ويسويه بالأرض

وهذا كلام مدمج بعضه في بعض وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع ، ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك ، ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب [illegible] [illegible]

[illegible] الكلمة على [illegible] ، وقال أنا أول المؤمنين

[illegible]

(١) سورة مريم ٩٠ — ٩١

اتحدوا هذه العظيمة منها ، ولا يعرنك تسترهم بالبلكفة[1] ، فإنه من منصوبات أشياخهم ، والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

لجماعة سموا هواهم سنة ... وجماعة حمر لعمري موكفة

ولقد شبهوه بخلقه وتخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفة[2]

وقد رص شيخ لسنة هذا الذي ... أوردوا عليه .

وأورد الزمخشري من قصيدة من قصيدة في رده على هذين البيتين :

إن الذي سمك السماء بقدرة ... لما لأنبياء هدى ونبوة

قد برأه خلقا لا كخلقك جملة ... وتراه أنت كما تراه الخلقة

وتظنه رجسا كخلقك ربنا ... وهو المنزه عن خلال الرجسة

هو شبهه خلقي كما أشبهته ... إلا مهاوي في الضلالة مثقفه

وقال - حكى أبو حفص بن عمر في هذا البيت :

جهلت صفة الإله وفعله ... وعقلته عقل أخرق

وزعمت أنك قد علمت ... في أمره لأحد ولأمر الخلق

وعلمت من نفسي ومحمد ... وبعلم في الربع أهل الفسقة[3]

وعلق ابن المنير قوله :

ما أشد ما اضطرب كلامه في هذه الآية ، لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة ، ويشين بكفه وجه العراقة . هيهات ، قد تبين الصبح لذي عينين ، فالحق أبلج لا يمازجه ريب إلا عند ذي ريب .

(١) [illegible]
(٢) الكشاف ٣٤٦/١
(٣) الرحلة للمزية ٣٠

أما حظ المعقول من إجازة رؤية الله تعالى فوظيفة علم الكلام ، وأحصر وجه في إجازة ذلك أن الوجود مصحح الرؤية ، بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححا ، وقد شمل الجواز والجوهر والاجتماع بينهما يمكن حمله مصححا سوى الوجود ، وإذا كان الوجود هو المصحح فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده .

وأما سعيد أن يرى ما ليس في جهة فهو وهمي منه عن معقلة ، فعميت أبصارهم حتى أنكروا موجودا إلا في جهة ، ومن بلغ لا وهمه تعسف عهامه الضلال وهو أنه كانت رؤية تتوقف على جهة مرئي كانت معرفته تتوقف على جهة المعروف ، ولا خلاف أنه سبحانه يعرف لا في جهة ، فكذلك يُرى لا في جهة . فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه ، لعلمه بجواز ذلك على الله تعالى .

والقدرية يحرّهم الطمع حتى يرووا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم ، وهم حينئذ لا يعلمون أن موسى قد برأه الله منه وكل عند الله وجيها ﴿ .

وإذ قول موسى ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ فعلى التسليم ، مما تبرؤ من أدعيلهم ، وتسفيها لهم وتضليلا لرأيهم ، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى لجواز الرؤية ، فإن الذي كان الإهلاك بسببه إنما هو عادة العجل في قول أكثر المفسرين

ثم إن كان السبب طلبهم الرؤية فليس لأنها غير جائزة على الله ، ولكن لأن الله من أخبرهم لا تقع في دار الدنيا ، وخبر صدق ، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية ، فلما سألوا وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها كان طلبهم خلاف

المعلوم تكذيبا للخبر ، فمن ثم سفههم موسى وبرأ من طلب ما أخبر الله أنه لا يـ

ولو كان سؤالهم عن الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها فيما سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية العظيمة وتوقيفهم الإيمان عليها حيث قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، ألا ترى أن قولهم : « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا[1] » إنما سألوه فيه جائز ، ومع ذلك قرعوا به لا قتراحهم على الله مالا يتوقف وجوب الإيمان عليه .

فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشري بعين الهوى ، وعدم تدبره عن معنى الآية ، وزعمه أن موسى طلب الرؤية لهم ، فيه مردود بأنه لو كان طلب الرؤية لهم حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممتنعة لكان على هذا لا معنى لقوله ، لأن هؤلاء لا يجوز أمرهم بأن يكونوا مؤمنين بموسى أو كفارا به ، فإن كانوا مؤمنين به فإخباره إياهم بأن الله تعالى لا يرى ولا يجوز عليه ذلك قاف في حصول المقصود من هذا الجواب فلا يبقى لموسى عليه السلام من الله أن يريه ذاته على علم بأن ذلك محال ، وإن كانوا كفارا بموسى فلا يحصل الغرض من ذلك أيضا ، لأن الله إذا منعه مسئوله فيما ثبت ذلك هم بقول موسى عن الله تعالى إنه منعه ذلك ، وهم كفار بموسى ، فكيف يقيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك ؟

فهذا أوضح مصدق لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه دون غيره ، فأخبر الله أن ذلك لا يقع في الدنيا وإن كان جائزا

أما قوله إن (لن) تؤكد النفي فإنها كذلك ، ولكن استنباطه منافاة الرؤية لحال الدنيا عن وجل ، واستشهاده على أنها تشعر باستحالة المنفي عنها

(١) سورة الإسراء ٩٠

عقلا ، مردود بكثير من الآيات ، كقوله تعالى : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا[2] » فذلك لا يحيل خروجهم عقلا ، وقوله « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن[3] » و « لو سمعوا ما استجابوا لكم » فهذه كلها خبر عن عدم وقوعها لا عن امتناعها ، فالرؤية كذلك .

وأما قوله إن الله حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند تسمه الولد إليه ، فإنه مفرع على المعتقد السالف بطلانه ، وليس له في هذا الفصل وجيه إلا تتبع الشبه لامتناع الرؤية بالعقل من كل وجه .

والحق أن ذلك الجبل إنما كان لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء ، ولا تستقر الدنيا من إظهار شيء من ملكوت السماء ، وهذا هو المأثور عن السلف في هذه الآية ، ومعناه عند أبي الحسن (الأشعري) رحمه الله فعل فعلا سماه تجليا ، وكان الغضب إما لأنهم طلبوا رؤية جسمانية في جهة ، وإما لأنهم كفروا بموسى عليه السلام لما أخبرهم أنه لا يرى في الدنيا ، وإما لأنهم كفروا بالاقتراح أو بالمجموع .

وأما قوله إن الله تعالى علق وجود الجبل على وجود ما لا يكون من استقرار الجبل ، فإنه من جنس القدح في دلالة الرؤية ، بقولك قد علقها الله على شرط محال وهو استقرار الجبل حال دكه ، والتعليق على المحال محال . وهذه حيلة باطلة ، فإن المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو مستقر ، وذلك ممكن وجائز ، وتعلق العلم لا يغير المعلوم ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع ولا العكس ، وحينئذ يتوجه دليلا لأهل السنة ، فنقول إن استقرار الجبل ممكن ،

(١) سورة هود ٨٣
(٢) سورة التوبة ٤٧
(٣) سورة هود ٣٦

وقد علق عليه وقوع الرؤية ، والمعلق على الممكن ممكن ، والمعتزلة يعتقدون أنه خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقدورا ، ونحن نقول مقدورا ، ولكن المشيئة لم تتعلق بإيجاده .

وأما توبة موسى وتسبيحه فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا .

ثم ختم رده بأنه مضطر إلى أن يدافع عن أصحاب سنه ، رسول الله كما دافع حسان بن ثابت أعداء رسول الله ، وذكر هذه الأبيات المناقضة لبيتي الزمخشري :

وجماعة كفروا برؤية ربهم ... حقا ، ووعدُ الله مالي يخلفه
وبقصر عدن يجمعون لأجل ... عدلوا بربهم فخسهمُ سعفه
وتلقوا التاجين كلا إنهم ... إن لم يكونوا في لظى فعلى شفه[1]

وقال في تفسير قوله تعالى : « لا تُدركه الأبصارُ وهو يُدْرِكُ الأبصار ، وهو اللطيف الخبير »[2] البصر هو الجوهر اللطيف الذي ركبه الله في حاسة البصر ، به تدرك المبصرات ، فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ، ولا تدركه ، لأنه يستحيل أن يكون مبصرا في ذاته ، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا أو سببا كالأجسام والهيئات ، وهو اللطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك ، وهو يلطف عن أن تدركه الأبصار ، فخبير بكل لطيف هو يدرك الأبصار[3] .

وعلق [illegible] على هذا بقوله

يريد الزمخشري من الإدراك الإحاطة ، ومنه « حتى إذا أدْرَكَهُ

(١) هامش الكشاف ٣٤٦/١
(٢) سورة الأنعام ١٠٣
(٣) الكشاف ٣٠٥/١

الغرقُ »[1] أي أحاط به ، و « إنا لمدركون »[2] أي محاط بنا ، فالمعنى إذاً عن الأبصار إحاطتها به عز وعلا ، لا مجرد الرؤية . ثم إما أن يقتصر على أن الآية لا تدل على مخالفتنا أو تزيد فتقول : يدل لنا أن تخصيص الإحاطة بالمعنى يشعر بطريق المفهوم بثبوت ما هو أدنى من ذلك وأنه مجرد الرؤية ، كما أنا نقول لا تحيط به الأفهام وإن كانت المعرفة بمجردها حاصلة لكل مؤمن ، فالإحاطة للعقل بمنزلة الإحاطة للحس ومادون الإحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للحس ثابت غير منفي .

ولم يذكر الزمخشري على إحالة الرؤية عقلا دليلا ولا شبهة ، فنحتاج إلى القدح فيه ، ثم معارضته بأدلة الجواز ، ولكنه اقتصر على استبعاد أن يكون المرئي لا في جهة ، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود لا في جهة ، إذ اتباع الوهم يبعدها جميعا ، والانقياد إلى العقل يبطل هذا الوهم ويجيزها معا[3] .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وُجُوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ إلى ربها ناظرةٌ »[4] :

تنظر إلى ربها خاصة ، واختصاصهم بالنظر إليه محال ، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص ، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس أنا إلى فلان نظر ما يصنع بي ، تريد معنى التوقع والرجاء ، ومنه قول القائل :

وإذا نظرت إليك من ملك ... والبحرُ دونك زدتني نعما

والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه[5] .

(١) سورة يونس ٩٠
(٢) سورة الشعراء ٦١
(٣) حاشية الكشاف ٣٠٥/١
(٤) سورة القيامة ٢٢
(٥) الكشاف ٥٠٩/٢

: واقتضى فيهم نصفات الأزلية ومنها الكلام أن يدينوا بأن القرآن كلام الله خلقه بعد أن لم يكن، حتى لا يشركه شيء في القدم[1]. وقد اعتقد الخليفة المأمون هذا الرأى، وحمل الناس على أن يدينوا به، وعذب كثيرا من العلماء مثل أحمد بن حنبل، ووجه كتابا إلى إسحق بن إبراهيم سنة ٢١٨ هـ [illegible]
[illegible]
[illegible][2]

[illegible] سنة ٣٣٠ هـ) [illegible] فيسمى الإنسان متكلما باعتبارين: أحدهما بالصوت والآخر بكلام النفس الذى ليس بصوت ولا حرف، وهو المعنى القائم بالنفس المعبر عنه بالألفاظ.

وانتقل من هذا إلى أن كلام الله يطلق بمعنيين [illegible] لمعنى النفسى وهو القائم بذاته، وهو الأزلى القديم وهو لا يتغير بتغير العبارات، وهذا هو الذى يطلق عليه كلام الله حقيقة، أما القرآن بمعنى المقروء المكتوب فهو [illegible][3]

[illegible] تفسير قوله تعالى: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»[4]

والعجب من الثوبت ومن زعمهم أن القرآن قديم، مع اعترافهم بأنه معجز، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة فيقال الله قادر على خلق الأجسام

(١) المنية والأمل ١/٤٩

(٢) تاريخ الطبرى ١٠/٢٤٨

(٣) ضحى الإسلام ٣/٣٢ — ٤٤

(٤) سورة الإسراء ٨٨

[illegible] وأما المحل الذى لا تمكن فيه القدرة ولا مدخل لها فيه [illegible]
[illegible]
[illegible]

مما يدلك على حيد الزمخشرى عن سنن الإنصاف أنه تدلس على الصحب فى مثل هذه المسألة التى طبقت الأرض ظهوراً وشيوعاً، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل عن معتقد القوم، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمة بذات البارى تعالى يطلق عليها قرآن [illegible] وهى هذه الكلمات الفصيحة والآى الكريمة [illegible] الدليل لا المدلول، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين: أحدهما أنه إطلاق موهم، والثانى أن السلف الصالح كفوا عنه، فاتبعوا آثارهم، واقتفوا أنوارهم، وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق، ولا تكفر لمعتقد ذلك والمعتقد بإلزامه[1]

(٢) العدل

من الأصول المهمة للمعتزلة وصف الله تعالى بالعدل، كما وصفوه بالوحدانية، [illegible]

[illegible] قد شغلوا مباحثهم فيما يتصل بالتوحيد فإنهم قد تعمقوا فى [illegible]، وشققوا منه عدة مباحث:

(١) الكشاف وحاشيته ١/٥٥٧

١ — فالله سبحانه وتعالى عادل ، والظلم منفي عنه، قال تعالى: « وما ربك بظلام للعبيد »[1] وقال تعالى : « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »[2]

٢ — وهو سبحانه يريد لعباده خير ما يكون.

٣ — ولا يريد الشر ولا يأمر به .

وذلك أن مريد الخير خيِّر، ومريد الشر شرير ، فلو كانت إرادة الله متعلقة بكل ما في العالم من خير وشر لكان الخير والشر مرادين له ، فيكون المريد موصوفا بالخيرية والشرية ، وذلك محال على الله .

ولهذا قالوا إن الله أراد من كل من الأعمال خيرا أن يكون ، وما كان شرا ألا يكون ، وما لم يكن خيرا ولا شرا فهو تعالى لا يريده ولا يكرهه ، ومعنى هذا أن الله مريد لما أمر به من الطاعات أن يكون، فهو يريد منا الصلاة والزكاة ، ولا يريد منا المعاصي ، وأما المباحات فلا يريدها ولا يكرهها .

وأما غير المعتزلة فيعتقدون أن الله مريد لجميع ما كان، غير مريد لما لم يكن، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وبنفي على هذا أن كفر الكفار وعصيان العصاة لم يرده الله في رأي المعتزلة ، وأراده في رأي غيرهم .

ذكر الزمخشري في تفسير قوله تعالى: « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون »[3]

(١) سورة فصلت ٤٦
(٢) سورة الروم ٩
(٣) سورة الأنفال ٢٢

[illegible] على الأرض أو [illegible] الذين هم على حق لا يعقلونه ، ولو علم الله في هؤلاء الصم البكم [illegible] حتى لا يسمعوا سماع المصدقين ، ولو لطف بهم لما نفع فيهم اللطف ، فبذلك منعهم إلطافه ، أو ولو لطف بهم وصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا .

وعلى هذا فهو [illegible]

إطلاق القول بأن الله تعالى يلطف بالعبد فلا ينفع لطفه مردود ، فإن اللطف هو إسداء الجميل والإلطاف به ، وإسم اللطف من ذلك، فإذا أسدى الجميل إلى العبد بأن أسمعه إسماع لطف به فتلك الغاية المرجوة ، ومعنى اللطف به على هذا أن يخلق في قلبه قبول الحق وحسن الإصغاء إليه والاهتداء به ، ولكن لا يتم ذلك على عقيدة الاعتزال والرأي الفاسد في خلق الأفعال ؛ لأن مقتضاه أن العبد هو الذي يخلق لنفسه قبول الحق والهداية وحسن الاستماع والإصغاء ، وأن لله تعالى لا يشترك العبد في خلق ذلك، بل الذي ينسب إلى الله تعالى إرادة الهداية من جميع الخلق ، ولا يلزم حصول مراده على العموم، ولو تنزل متنزل على هذه القاعدة لما استقام تأويل الزمخشري أيضاً ، فإن حاصله ولو علم الله فيهم خيرا للطف بهم ، ولو لطف بهم لما انتفعوا باللطف ، فيلزم عدم انتفاعهم باللطف على تقدير علم الله الخير فيهم ، وهذا غير مستقيم ، لما يلزم عليه من وقوع خلاف المعلوم لله تعالى ، وذلك محال عقلا .

ولا يرتفع الإشكال إلا بتقدير الإسماع الواقع جوابا أولاً ، خلاف الإسماع الواقع شرطا ثانيا ، كيلا تتكرر لوسط فيلزم المحال المذكور ، وأقرب وجه في اختلاف الإسماعين أن يراد بالأول ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم إسماعا يخلق

هم به الهدى والقبول، ولو أسمعهم إسماعا مجردا من ذلك لتولوا وهم معرضون ، فهذا هو الوجه فى تأويل الآية[1]

٤ - ولم يخلق الله أفعال العباد لا خيراً ولا شرا ، وإنما يفعلون أفعالهم أحراراً، فيثابون على الخير ويعاقبون على الشر .

٥ - وانتهوا من هذا إلى طرية الصلاح والأصلح ، ومعناها أن الله يقصد من أفعاله نفع عباده وصلاحهم . وذهب بعض المعتزلة إلى أن رعاية الله لمصالح عباده واجب عليه ، ولم يكتف بعضهم بهذا فقالوا إن الواجب عليه رعاية الأصلح

وقد وافقهم فى جوهر الفكرة بعض المعتزلة ، ولكنهم عابوا عليهم تعبيرهم بالوجوب ، ورأوا أن الأقرب إلى الأدب التعبير بأن هذا هو القانون أو النظام الذى يقصد الله إليه فى أفعاله .

وخالفهم فريق كبير ، ورأوا أن أفعال الله ليست معللة بغرض ، وليس الداعث عليها غاية ، بدليل أن فى العالم شرورا كثيرة ومعوقات شتى ، كالفقر والمرض، ولا يمكن تفسير ما فيها من المصلحة

قال الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « وعلى الله قصدُ السَّبيل ، ومنها جائرٌ ، ولو شاء لهداكم أجمعين »[2] .

معناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه ، كقوله « إن علينا للهُدَى »[3] فإن قلت : لم غير أسلوب الكلام فى قوله (ومنها جائر)؟

---

(١) الكشاف وهامشه ١/٢٢٠

(٢) سورة النحل ٩

(٣) سورة الليل ١٢

قلت : لتعلم مايجوز إضافته إليه من السبيلين ومما لايجوز ، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقيل : وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو وبعضه جائر وقرأ عبد الله (ومنكم جائر) يعنى ومنكم جائر من يعدل عن قصد السبيل ولو شاء لهدى كلكم أجمعين .

وعلق بن المنير على رأى الزمخشرى بقوله :

أين يذهب به عن تتمة الآية ، وذلك قوله تعالى . « ولو شاء لهداكم أجمعين » ، فلو كان الأمر كما تزعم القدرية لكان الكلام : وقد هداكم أجمعين . ومن [illegible] لا يؤمنون بعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فهذا من تأويل هذه الآية بالقسر والإلجاء هما كأنهم إلا يحرفون الكلم عن مواضعه .

وأما المخالفة بين الأسلوبين فلأن سياق الكلام لإقامة حجة الله تعالى على الخلق بأنه بيّن السبيل القاصد والجائر ، وهدى قوما اختاروا الهدى ، وأضل قوما اختاروا الضلالة لأنفسهم . وقد تقدم فى غير موضع أن كل فعل صدر عن العبد فله اعتباران : فهو من حيث كونه موجودا مخلوقا لله تعالى ومضاف إليه بهذا الاعتبار ، وهو من حيث كونه مقترنا باختيار العبد له ، وتأتيه له ، وتيسره عليه ، مضاف إلى العبد ، وإن تعدد هذين الاعتبارين ثبت فى كل فعل ، فمناسب إقامة الحجة على العباد إضافة الهداية إلى الله تعالى باعتبار خلقه لها ، وإضافة الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له .

والحاصل أنه ذكر فى كل واحد من الفعلين ما غير النسبة المذكورة فى الآخر ؛ ليناسب ذلك إقامة الحجة البالغة[1]

---

(١) الكشاف وهامشه ١/٢٢٠

وقال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: « فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار، فقالوا هذا إلهكم وإله موسى »[1]:

فإن قلت: فلم خلق الله العجل من الحلي حتى صار فتنة لمن يضل وضلالا؟ قلت: ليست تأول محنه محن الله بها عباده، [illegible] بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين، ومن عجب من خلق العجل فليكن من خلق إبليس أعجب[2].

وقال في تفسير قوله تعالى: « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون »[3]:

إذ كانت عادة الملوك والحكمة ألا يسألهم من في مملكتهم عن أفعاله وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم، تهيبا وجلالا، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم، كان ملك الملوك ورب الأرباب وخالقهم ورازقهم أولى بألا يسأل عن أفعاله، مع ما علم واستقر في العقول من أن ما يفعله كله معقول مدعى الحكمة، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح[4].

وعلق ابن المنير بقوله:

سحقا لها من لعظة ما أسوأ أدبها مع الله تعالى، أعني قوله دواعي حكمة، فإن الدواعي والصوارف إنما تستعمل في حق المحدثين، كقولك هو مما توفر دواعي الناس إليه أو صوارفهم عنه.

وأما قولك لا يجوز عليه فعل القبائح فهل تقول إن أحدا شريك الله في ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التي تسميها قبائح فتنفيها عن قدرة الله تعالى

(١) سورة طه ٨٨
(٢) الكشاف ٢ ٢٢
(٣) سورة الأنبياء ٢٣
(٤) الكشاف ٢/٤٢

وإرادته، وما الفرق بين من يشرك الله ملكا من الملائكة وبين من يشرك نفسه ربه حتى يقول إنه يفعل ويخلق لنفسه ما شاء الله أو لم يشأ؟

والقدرية اتصفوا لأنفسهم شرك شريك، لأن غيرهم أشرك بالملائكة، وهم أشركوا بنفوسهم وبالشياطين والجن وجميع الحيوانات[1].

وقال في تفسير قوله تعالى:

« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين[2] »

فإن قلت: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسيع عليهم من إطباق الناس على الكفر، لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟

قلت: التوسعة عليهم مفسدة أيضا، لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دون المدخلين، فكانت الحكمة فيما دبر، حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء، وغلب الفقر على العمى.

وقد علق ابن المنير على هذا بقوله: السؤال والجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين:

إحداهما تعليل أفعال الله تعالى، والأخرى أن الله تعالى أراد الإسلام من

(١) هامش الكشاف ٢/٤٤
(٢) سورة الزخرف ٣٣ [illegible] ٣٥

حسن أحسن ... لا ولى فقد أحرس الله السائل عنه بقوله : لا ... عما يفعل وهم يسألون »

و... بعد ... على هذين الجواب بقوله : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا

... فى تفسير قوله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن »

نعم إن العباد هم المدعون للكفر ، ولكن قد سبق فى علم الحكيم ... إذا خلقهم لم يعملوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره ، فما الذى دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم ؟

وهل حق القبيح وحق فاعل القبيح إلا واحد ؟

قلت : قد علمنا أن الله حكيم عالم بقبح القبيح ، وعالم بغنائه عنه ، فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة ، وحق فاعل القبيح من أفعال الله ، فوجب أن يكون حسنا ، وأن يكون له وجه حسن ، وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح فى حسنه ، كما لا يقدح فى حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعى الحكمة إلى خلقها [٤]

٦ — كذلك انتهوا إلى نظرية الحسن والقبح ، ومعناها أن الحسن والقبح فى الأعمال ذاتيان ، ففى الصدق حسن ذاتى ، وفى الكذب قبح ذاتى ، ولهذا لم يجيزوا على الله الكذب لما فيه من قبح ، وقالوا إنه لابد أن يصدق ، لأن الصدق حسن فى ذاته .

---

(١) سورة ... ٢٣

(٢) سورة يونس ٩٩ و ... ٣٥

(٣) سورة ... ٢

(٤) ... ٢ ... ٣٣

وسواء على هذا أن الشرع يأمر بأشياء ، وينهى عن أشياء ، وفقا لما فيها من حسن أو قبح ، والعقل يستحسن أشياء ، ويستقبح أشياء ، لأنه يدرك ما فى الخمسة من حسن ، ويدرك ما فى القبيحة من قبح ، وليس التحسين والتقبيح راجعين ... الشرع ... هى ... الذى ... بعض حسنه ، فالشرع فى تحسينه وتقبيحه مخبر لا منشىء ، والعقل فى إدراكه كذلك لا منشىء .

واستدلوا على هذا بأن الناس كانوا قبل الشرائع تتحاكم إلى عقولهم ، فيستحسنون إنقاذ الغرقى مثلا ، ويستقبحون العدوان ، وبأن الرسل دعوا الناس إلى تصديقهم ... بأن الفقهاء اجتهدوا فى أمور لم يرد فيها نص ، وعللوا الأحكام ، وهذا من عمل العقل المعتمد على الحسن والقبح الذاتيين

... غير معتد به فهناك ... حسن ... قبيح ... عنه الشرع ، لأن الشرع مثبت لا مخبر ، وليس هناك شىء حسن ... قبيح لذاته ، فالحسن والقبح قد ينعدمان ، فيكون القتل حسنا مرة وقبيحا مرة ، ولو كان الحسن أو القبح ذاتيا ما تبدل حكمه ، وقد يكون الشىء حسنا فى ... وقبيحا فى آخر ، والشرع ... حسن قبيح شيء ... وتحريمها على آخرين ... أمور عوده وتشرع غيرها لسواهم ، فلو كان الحسن والقبح ... الشرع [١]

قال الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »[٢] : كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل ، وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التى يوصل النظر فيها إلى المعرفة ، والرسل فى أنفسهم لا سبيل إلى ... لأنه ... ولا ... رسل الله إلا بالنظر فيها ؟

---

(١) ... ٢٠٥ ...

(٢) سورة النساء ١٦٥

قلت : الرسل مفهون من العقلة ، وباعثون على النظر ، كما يرى علماء أهل العدل والتوحيد ، مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين ، وبيان أصول التكليف ، وتعليم الشرائع ، فكان إرسالهم إزاحة للعلة ، وتتميما لإلزام الحجة ، لئلا يقولوا ، لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقظنا من سِنَة الغفلة ، وينبهنا لما وجب الانتباه له

وعلق ابن المنير على قوله [illegible] بأن الله تعالى [illegible] وعرفهم على بعض أحكامه بمعنى مجرد العقل دون [illegible] فوجبوا عقوبته ، وهو قول [illegible] وقال [illegible] وقد [illegible] الشرع النظر في أدلة المعرفة ، ولا يتوقفون على [illegible] ، وقد [illegible] يزعمون أن من ترك النظر في الأدلة قبل ورود الشرع فقد ترك واجبا استحق به التعذيب ، وقد قامت الحجة عليه في الوجوب وإن لم يكن شرع . [illegible] تليت عليهم هذه الآية صمت آذانهم ، وقالوا إن الرسل تتم حجة الله ، وتنبه على ما وجب قبل بعثها بالعقل [1] .

[illegible] في تفسير قوله تعالى [illegible] وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » [2] :

يعني ما أمر الله باتقائه واجتنابه ، كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه ، وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم ضلالا ، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم ، وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب ، وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين في [illegible] الجزيرة

(١) [illegible] ٣٣٨ : ١

(٢) سورة التوبة ١١٥

فأما ما علم بالعقل كالصدق في الخبر ، ورد ما [illegible] موقوف على [illegible] وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

هذا تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح ، وأن [illegible] كما اشتهر [illegible] لما غمض عليه ، تابع لمقتضاه ، وهذه القاعدة قد [illegible] في [illegible] موضع

وقال في تفسير قوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » [2] :

معنى إلهام الفجور والتقوى إفهامهما وإعقالها ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، وتمكينه من اختيار ما شاء منها ، بدليل قوله : « قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها » فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليهما

وأما قول من زعم أن الضمير في زكّى ودسّى لله تعالى ، وأن [illegible] الراجع إلى (من) لأنه في معنى النفس ، فمن تنكيس القدرية — يريد الجبرية — الذين يزكون على الله قدراً هو بريء منه ، ومتعال عنه ، ويحيلون لياليهم في تعمل فاحشة ينسبونها إليه .

وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

وفي هذا الكلام نوعان من الباطل : أحدهما في قوله معنى إلهام الفجور والتقوى إفهامهما وإعقالها ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، والذي يكمه في هذه الكلمات اعتقاد أن الحسن والقبح مدركان بالعقل . ألا ترى إلى قوله اعقالها ، أي خلق العقل الموصل إلى معرفة حسن الحسن وقبح القبيح ، وإنما اغتنم في هذه الفرصة إشعار الإلهام بذلك ، فإنه وإن يظن أن إطلاقه على العلم للاستفادة من السمع بعيد

(١) [illegible] ٤١ : ١

(٢) سورة الشمس ٧ — ٨

والذى يقطع دابر هذه النزعة أن وإن قلنا إن الحسن والقبح لا يدركان إلا بالسمع ، لأنهما راجعان إلى الأحكام الشرعية التى ليست عندنا بصفات الأفعال ، بل لا ينفى حظ العقل من إدراك الأحكام الشرعية ، بل لابد فى علمه كل حكم شرعى من المقدمة العقلية وهى الموصلة إلى العقيدة ، والمقدمة السمعية المفرعة عليها ، وهى الدالة على خصوص الحكم. على أن تعلقه بظاهر — لو سلم ظهوره — فى قاعدة قطعية يعمل على الصواب .

النزعة الثانيـــة (وهنا تكلم عن أفعال العباد) [1]

(٣) حرية العباد

دان المعتزلة بحرية العباد فى أعمالهم ، بغير توجيه من إرادة الله وقدرته ، ولهذا يثيبهم الله عليها أو يعاقبهم ، فلا جبر ولا اضطرار ، لأن الله تعالى منزه عن الفساد ، وعن خلق أفعال العباد ، فهم يفعلون أفعالهم بالقدرة التى خلقها الله فيهم ، وهو لم يأمرهم إلا بما أراد ، ولم ينههم إلا عما كرهه ، ولو شاء لأجبرهم على طاعته ، ومنعهم من معصيته ، لأنه القادر .

وهذا هو السبب فى أنهم سموا أنفسهم أهل العدل .

لكن خصومهم أطلقوا عليهم القدرية أحياناً ، لأنهم وافقوا القدرية الذين كانوا قبلهم فى القول بحرية العبد وقدرته واختياره ، وأطلقوا عليهم الجبرية أحياناً ، لأنهم وافقوا الجهمية فى نفى الصفات ، وفى القول بخلق القرآن ، وإن خالفوهم فى الحرية والاختيار [2] .

(١) [illegible]

(٢) جهم بن صفوان كان يقول بالجبر ، ويجرد الإنسان من الاختيار [illegible] ، ويزعم أن [illegible] يخالف على أحد فيما ، وإنما تنسب الأفعال إليه على سبيل [illegible] ، كما [illegible] فى الماء وتحركة أغصانه وأثمرت الشجرة ونبتت الشعر ، —

لكن المعتزلة يبرأون من تسميتهم قدرية أو جهمية ، ويردون على القسمية الأولى بأنهم ينفون القدر ، وغيرهم يثبتونه ، فهم أولى بأن يدعوا إليه .

وتبرأ من الجهمية بشر بن المعتمر أحد زعماء المعتزلة بقوله :

نحن عنا ولسنا منهم ولاهم منا ولا نرضاهم

إمامهم جهم ومالجهم وصحب عمرو ذى التقى والعلم [1]

وأدلة المعتزلة على مذهبهم شعور الإنسان بالفرق بين الحركة الاختيارية والاضطرارية ، فالأولى مرادة والثانية غير مرادة ، ودليل آخر أنه لولا الحرية لبطل التكليف وانتفى الأمر والنهى والثواب والعقاب ، ودليل ثالث أن بالقرآن آيات كثيرة تؤكد هذه الحرية .

وكان من خصومهم الجبرية الذين ذهبوا إلى أن الإنسان مجبر ، فهو والجماد سواء ، وإذا كانت الأفعال تنسب إليه فهو مجاز .

وقد [illegible] المعتزلة بالحرية ، ودافعوا عن مذهبهم ، وتأولوا الآيات التى [illegible] المخالفة له .

ثم جاء أبو الحسن الأشعرى فتوسط بين مذهبى المعتزلة والجبرية ، واخترع

(١) عمرو بن عبيد أحد رؤساء المعتزلة الأولين

ـ ومن مذهبه أنه لا يجوز وصف الله بصفة يوصف بها خلقه ، لأن هذا يقتضى شبهه ، فنفى عنهم كونه حيا عالما وأثبت كونه قادرا فاعلا خالقا ، لأنه لا يوصف أحد من خلقه بالقدرة والفعل والخلق ، وكان جهم من مواليان جرير بن سلمان [illegible] وكان مذهبه ، وكان وزير الحارث بن سريج ، فلما خرج الحارث على بنى أمية حاربوه وهزموه وأسروا حيا وقتلوه (الملل والنحل ١ / ٧٩)

ماسماه الكسب ، وهو الاقتران العادى بين القدرة المحدثة (أى قدرة الإنسان) [illegible] أى خلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لا بقدرته العبد وإرادته ، وهذا الاقتران هو الكسب . وقال آخرون إن أفعال العباد تضاف إلى الله باعتبار أنه أقدرهم عليها ، وخلق القدرة فيهم ، وتضاف إلى العبد باعتبار أنه هو المصرف لأعضائه بقدرته المخترعة التى خلقها الله له[1] .

وقد كان الزمخشرى يدين بهذه الحرية فإنه لم يدع آية من القرآن الكريم تتصل بالجبر أو الاختيار إلا أولها وفق مذهبه .

[illegible]

[illegible]

أما أهل السنة فيدعون لله بهذه الدعوة غير محرفة ، لأنهم يوحدون حق التوحيد ، فيعتقدون أن كل حادث من هدى وزيغ مخلوق لله تعالى

وأما القدرية فمذهبهم أن الزيغ لا يخلقه الله تعالى ، وإنما يخلقه العبد نفسه ، فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرفة إلى غير المراد بها كما أولها المصنف ، وبذلك تدعو الله تعالى مصرفا إلى هذه الدعوة ألا يبتلينا ولا يمتحننا لطفه ، لأن الكل فعله وخلقه ولا موجود إلا هو وأفعاله التى نحن وأفعالنا منها[2] .

---

(١) ضحى الإسلام ٣ ٤٤ — ٦١ وعلم الأخلاق لأرسطو ٢٦٥ ترجمة أحمد لطفى السيد وزراداشت لحكيم ٨٤ حامد عبد القادر

(٢) سورة آل عمران ٨

(٣) الكشاف وحاشيته ١ / ١٣٥

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله [illegible] »

ومن يرد الله فتنته تركه مخذولا ، فلن تملك له من الله شيئا ولن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئا ، أولئك الذين لم يرد الله أن يمنحهم من ألطافه ما يطهر قلوبهم لأنهم أصروا على كفرهم ، فمثل هؤلاء لا تنفع فيهم ولا تجدى كقوله تعالى [illegible] لا يؤمنون به لا يهديهم الله »[3] وقوله « لا كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم »[4]

وعلق على المبرد بقوله

هذه الآية منطبقة على عقيدة السنة فى أن الله تعالى أراد الفتنة من المفتونين ، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنة ووصم الكفر ، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى ما أراد الفتنة من أحد ، وأراد من كل أحد الإيمان وطهارة القلب ، وأن الواقع من الفتن على خلاف إرادته ، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد ، ولكن لم يقع .

فحسبهم هذه الآية وأمثالها لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر الدنس ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ وما أبشع صرف الزمخشرى هذه الآية عن ظاهرها بقوله لم يرد الله أن يمنحهم ألطافه ، لعلمه أن ألطافه لا تنجع فيهم ولا تنفع ، وإذا لم تنجع ألطاف الله تعالى ولم تنفع فمطف من ينفع وإرادة من تنجع[1]

وقال فى تفسير قوله تعالى : « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله

---

(١) سورة [illegible] ٤١

(٢) سورة النحل ٤ ١

(٣) سورة [illegible] ٨٦ و [illegible]

(٤) [illegible] الكشاف [illegible]

وعد كم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم »[1]

لا يلومون حيث علم أن ما يعدهم به الشيطان من النصر لا يكون ، وما يعدهم به من الهدى لا يكون ، ولو كان الأمر كما تزعم المعتزلة من أن الله يعد ويأمر ولا يريد إلا ما يكون ، لكان الله قد قضى عليهم بالكفر وأمرهم به .

فإن قلت : قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به .

قلت : وكل ما يعد به الشيطان فهو باطل ، وهو يكذب ، على ما لا أصل له ، فما تعلق به من هذا لا يرد علينا ، لأنا لم نقل إن قوله حق ووعده حق ووعيده حق ، كما أن فيه حقا وصدقا

وفي قوله : « وما كان لي عليكم من سلطان » وهو مثل قوله تعالى : « إن سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون »[2]

وفي قوله :

نحن معاشر أهل السنة المتقين عنده بالخيرة نقول إن هذا وارد هذا الكلام غير رادّ له ولا محطّ فيه الشيطان ، كما قص كلام الكفار في الآية الأولى كذلك ، ونحن معتقدون أن اللائمة إنما توجه على المكلف ، وأما الله تعالى فمقدس عن ذلك ، لأنه يعترف بما خلقه الله للعبد من الاختيار الذي يجده من نفسه عند تجاوب طرق الأفعال الإرادية ، وبذلك قامت الحجة له على

(١) سورة إبراهيم ٢٢

(٢) سورة الحجر ٤٢ ـ الكشاف ١ ٣٠٥

خلقه وإن سلبنا قدرة الخلق تأثيرها في المقدور ، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة وبين صرف اللائمة إلى المكلف [1]

وفي تفسير قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك »[2]

معنى لاضطرهم إلى أن يكونوا على ملة واحدة وهي ملة الإسلام ، وقوله « ولا يزالون مختلفين »[3] وهذا الكلام متصل في الظاهر ، وإنه متصل هو من الأول في الحق ، ولكنه منقطع من الأخير الذي هو مشيئة التكليف ، واختيار بعضهم الحق وبعضهم الباطل ، فاختلفوا ، ولذلك قال « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم ، فاتفقوا على الحق غير مختلفين فيه [4]

وفي تفسير قوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها »[5]

معنى إلهام الفجور والتقوى إفهامهما وإعقالهما وتمكينه من خيرهما وشرهما ، بدليل قوله : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » فجعله فاعل التزكية

وسئل عن قول الله تعالى : « وقد خاب من حمل ظلما »[6] وهل يكون من يحمل الصغير في الكبر ويسقيه ويطعمه ويأتيه بما يرجع إلى الأمة في معنى ظلم ، فمن هكس المعتزلة يريد بخبره

(١) الكشاف ١ ٣٠٥

(٢) سورة هود ١١٨

(٣) سورة المؤمنون ٥٢

(٤) الكشاف ١ ٤٥٧

(٥) سورة الشمس ٧ ـ ١٠

(٦) سورة طه ١١١

(٧) سورة طه ١١١

الذين يوركون على الله قدراً هو بريء منه ، ومتعال عنه ، ويحيون ليالهم في تحمل فاحشه يسمونها إليه [١]

وعلق ابن المنير على هذا الرد على أن الحسن والقبح مدركان بالعقل . ثم قال إن التزكيه وعدمها ليسا مخلوقين لله تعالى بل لشركائه المعتزلة ، وإنما تعارضه في الصدر من فحوى الآيه ، على أنه لم يذكر وجها في الرد على من قال إن الضمير لله تعالى ، وإنما اقتصر على الدعوى مقرونة بسفاهة على أهل السنه ، فتقول لا مراء في احتمال عود الضمير إلى الله تعالى وإلى ذي النفس . ثم عوده إلى الله تعالى أولى لوجهين : أحدهما أن الجمل سيقت سياقه واحده في قوله: « والسماء وما بناها » والضمير فيما تقدم هذين الفعلين عائدة إلى الله تعالى بالإجماع ، وليس هذا ذكر ، وإن قيل بعود الضمير إلى غيره فيما يتحمل نحو هذه الآيه كان ضعيفا واستلزاما لا ذكرا ومنطقا ، وهو خلاف الأصل في عود الضمير [٢]

والثاني أن الفعل المستعمل في الآية التي استدل بها في قوله تعالى « أن يزكى » وهو التعمل الذاتي فعل فاعل فيه ، وليس من شأن الفعل أن يدل له ، لأن الكلام عندنا نحن قد أفصح من تزكاء الله فتزكى ، وعنده الفاعل في الحس واحد أضاف إليه المعنيين المختلفين ، ويحتاج في تصحيح الكلام إلى هذا الأصل وجه ، وحمل عليه في الآية

على أن الأصل في تزكيه وتنميته إلى عند على جريه العادة ، كما يضاف إليه إنباته وإنماؤه ونحو ذلك من أفعال الطبيعيات . لأن الله عندنا حتيراً وقادر بقدرة ، وإن منعه البرهان العقلي الدال على وحدانية الله تعالى ونفي الشريك أن تحمل قدرة العبد مؤثرة حقيقة [٣]

(١) الكشاف ٢/٤٤٦

(٢) حاشية الكشاف ٢/٤٤٦

(٤) الوعد والوعيد

زاد المعتزلة بالوعد والوعيد أن الله صادق في وعده ووعيده ، فقد وعد المتقين الجنه ، وأوعد المشركين والعصاة النار ، وهو سبحانه لا يخلف وعده ولا وعيده ، فمن أطاع فعله استحق الثواب ، ومن عصى فعله استحق العقاب ، فالثواب والعقاب قانون حتمي التزم الله تعالى به .

وإذا مات المسلم العاصي قبل التوبة يخلد في النار ، ولا تنفع فيه شفاعة .

وهم بهذا يخالفون المرجئة ، لأن هؤلاء ذهبوا إلى أن الله لا يخلف وعده ولكنه قد يخلف وعيده ، لأن الثواب فضل من الله لابد أن يفي به ، وإلا كان خلف الوعد نقصاً ، أما العقاب فعدل ، ولله أن يعفو أو يخفف العقوبة ، وليس في هذا نقص .

كما أن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار ، لأنه عمل خيراً هو إيمانه ، وارتكب شراً هو كبيرته ، فيعاقب على كبيرته ، ويثاب على إيمانه .

فلننظر تأويل الزمخشري للآيات المتصلة بهذا الخلاف .

قال في تفسير قوله تعالى [illegible] [١] فدلت على أن من مات مصراً على كبيرة من الكبائر ، فإنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة فما وجه هذه الآية ؟

الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجهين إلى قوله تعالى « لمن يشاء » ، كأنه قيل إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك ، على أن المراد بالأول من لم يتب ، وبالثاني من تاب .

(١) سورة النساء ٤٨

ونظيره قولك إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء ، تريد لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله ، ويبذل القنطار لمن يستأهله .

وعلق ابن المنير بقوله :

عقيدة أهل السنة أن الشرك غير مغفور ألبتة ، وما دونه من الكبائر مغفور لمن شاء الله أن يغفره له ، هذا مع عدم التوبة ، وأما مع التوبة فكلاهما مغفور . وهذه الآية وردت فيمن لم يتب ولم تذكر فيها توبة ، فلذلك أطلق الله تعالى نفى مغفرة الشرك ، وأثبت مغفرة ما دونه مقرونة بمشيئته . فهذا وجه انطباق الآية على عقيدة أهل السنة .

وأما القدرية فإنهم يبطلون التسوية بين الشرك وبين ما دونه من الكبائر فى أن كل واحد من النوعين لا يغفر بدون التوبة ، ولا شاء الله أن يغفرهما إلا للتائبين ، فإذ عرض الزمخشرى هذا المعتقد على هذه الآية ردته ونبت عنه ، إذ المغفرة منفية فيها عن الشرك وثابتة لما دونه ، مقرونة بالمشيئة .

فإما أن يكون المراد فيهما من لم يتب فلا وجه للتفصيل بينهما بتعليق المغفرة فى أحدهما بالمشيئة وتعليقها بالآخر مطلقا ، إذ هما سيان فى استحالة المغفرة .

وأما أن يكون المراد فيهما التائب فقد قال فى الشرك إنه لا يغفر ، والتائب من الشرك مغفور له ، وبعد ذلك أخذ الزمخشرى يقطع أحدهما عن الآخر ، فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة ، ومع الكبائر التوبة ، حتى ينزل الآية على وفق معتقده ، فيحملها أمرين لا تحتمل واحدا منهما ، أحدهما إضافة التوبة إلى المشيئة وهى غير مذكورة ولا دليل عليها فيما ذكر ، ولو كانت مرادة لكانت هى السبب الموجب للمغفرة على زعم القدرية عقلا ، ولا يمكن تعلق المشيئة بخلافها على ظنهم فى العقل ، فكيف يليق السكوت عن ذكر ما هو العمدة والموجب ، وذكر ما لا يدخل له على هذا المعتقد الردىء ؟

الثانى أنه بعد تقريره التوبة احتكم فقدرها على أحد القسمين دون الآخر ، وما هذا إلا من حمل القرآن تبعا للرأى(١) .

وقال فى تفسير قوله تعالى : «ومن يَقْتُلْ مؤمناً مُتَعَمِّداً فجزاؤه جَهَنَّمُ خالداً فيها ، وغَضِبَ الله عليه ولعنَهُ ، وأَعَدَّ له عذابا عظيما »(٢) :

هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ ، ومن ثم روى عن ابن عباس أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة ، وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا لا توبة له ، وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله فى التغليظ والتشديد ، وإلا فكل ذنب ممحو بالتوبة ، وناهيك بمحو الشرك دليلا .

وفى الحديث « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرىء مسلم » وفيه .

والعجب من قوم يقرأون هذه الآية ، ويسمعون هذه الأحاديث وقول ابن عباس بمنع التوبة ، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما يخيل إليهم مناهم أن يطمعوا فى العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟

فإن قلت : هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر ؟

قلت : ما أبين الدليل وهو تناول قوله : « ومن يقتل » أى قاتل كان ، من مسلم أو كافر ، تائب أو غير تائب ، إلا أن التائب أخرجه الدليل . فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله .

وعلق ابن المنير بقوله :

كفى بقوله تعالى فى هذه السورة « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما

---

(١) الكشاف وحاشيته ١ ، ٢٠٨

(٢) سورة النساء ٩٣

[illegible] إلى الله إن شاء أحده ، وإن [illegible]

و[illegible] لطف الأكرمين وأرحم الراحمين ، ولم يقنطوا من رحمة الله ، إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون [1].

وقال فى تفسير قوله تعالى : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون [2] .

فإن قلت : هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة ؟

قلت : نعم ، لأنه فى أن يقضى نفس عن نفس حقا أخذت منها فى نفس أو ترك ، ثم فى أن يقبل منها شفاعة شفيع ، فهو أبلغ فى نفى القبول عن العصاة .

فإن قلت : الضمير فى (منها) إلى أى النفسين يرجع ؟

قلت : إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها ، وهى التى لا يؤخذ منها عدل ، ومعنى لا يقبل منها شفاعة إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها ، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها ، كما لا يجزى عنها شيئا ، ولو أعطت عدلا عنها لم يؤخذ منها [3] .

وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

أما من جحد الشفاعة فهو جدير ألا ينالها ، وأما من آمن بها وصدقها وهم أهل السنة والجماعة فأولئك يرجون رحمة الله ، ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين ، وإنما ادخرت لهم ، وليس فى الآية دليل لمنكريها ، لأن قوله

(١) الكشاف وهامشه ١/٢٢١
(٢) سورة البقرة ٤٨
(٣) الكشاف ١/٥٥

(يوما) أخرجه منكرا ، ولا شك أن فى القيامة مواطن ، ويومها معدود بخمسين ألف سنة ، فبعض أوقاتها ليس زمانا للشفاعة ، وبعضها هو الوقت الموعود ، وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه الصلاة والسلام [1] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « يوم يقوم الروح والملائكة صفا ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » [2] .

هذا شرط صحة أن يكون المتكلم منهم مأذونا له فى الكلام ، وأن يتكلم بالصواب ، فلا يشفع لغير مرتضى ، لقوله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » [3] .

وعلق ابن المنير بقوله :

يعرض بأن الشفاعة لا تحل على مرتكبى الكبائر من الموحدين ، وقد صرح بذلك فى مواضع تقدمت ، ويذهب إلى أنها مخصوصة بالمرتضين ، وذوو الكبائر ليسوا مرتضين ، ومن ثم أخطأ ، فإن الله عز وجل مخصهم بالإيمان والتوحيد ووعدهم عليه إلا وقد ارتضاهم ، بدليل قوله تعالى : « ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم [4] » فجعل الشكر بمعنى الإيمان المقابل للكفر مرضيا لله تعالى ، وصاحبه مرتضى [5] .

(٥) المنزلة بين المنزلتين

دخل رجل على الحسن البصرى فقال : يا إمام الدين لقد ظهرت فى زمننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر هم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب

(١) هامش الكشاف ٢/٥٢٠
(٢) سورة النبأ ٣٨
(٣) سورة الأنبياء ٢٨ والكشاف ٢/٥٢٠
(٤) سورة الزمر ٧
(٥) هامش الكشاف ٢/٥٢٠

الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان ، ولا تضر مع الإيمان معصيه ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، هم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لهما فى ذلك ؟

فقكر الحسن ، وقبل أن يجيب قال تلميذه واصل بن عطاء . أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين. ثم قام واعتزل إلى أسطوانة بالمسجد ، وجعل يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسمى هو وأصحابه معتزلة .

وقد دار خلاف كبير دائم حول وصف مرتكبى الكبيرة ، فالحسن رأى أنه منافق ، وواصل بن عطاء ذهب إلى أنه فى منزلة بين الكفر والإيمان، وتابعه على رأيه عمرو بن عبيد ، ومرجئة وصفوه بأنه مؤمن ، والأزارقة وصفوه بأنه كافر ، وأهل السنة قالوا إنه فاسق (١) .

ودليل المعتزلة أن الإيمان اجتماع التصديق والاعتقاد القلبى وأداء الواجبات ، فمن صدق بأن الله واحد وأن محمدا رسوله ، ولم يقم بالفرائض لم يكن مؤمنا ، لأنه لم يستكمل خصال الخير .

وبنى المعتزلة على رأيهم هذا أن المعاصى قسمان : كبائر وصغائر ، و اختلفوا فى تعريف كل منهما ، وإن كان أكثرهم على أن الكبيرة ما أتى فيها وعيد ، والصغيرة ما لم يأت فيها وعيد ، وقالوا إن بعض الكبائر تصل إلى حد الكفر ، فمن شبه الله بخلقه أو نسب إليه الظلم أو كذبه فى خبر ، فقد كفر .

وهناك كبائر أقل منها منزلة ، يسمى مرتكبها فاسقا ، والفسق منزلة بين

(١) الملل والنحل ١/٥٧ ووفيات الأعيان فى ترجمة قتادة وتاج العروس مادة عزل

الكفر والإيمان ، ولهذا فإن الفاسق ليس مؤمنا وليس كافرا ، وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين (١) .

وعلى هذا الرأى أول الزمخشرى بعض الآيات

١ — فمن تأويله الآيات المتصلة بالمنزلة بين المنزلتين أنه قال فى تفسير قوله تعالى: « الذين يُؤْمنون بالغيب ويُقيمون الصَّلاة ومما رزقناهم يُنفقون » (٢) :

الإيمان الصحيح أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدقه بعمله . فمن أخل بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق ، ومن أخل بالشهادة فهو كافر ، ومن أخل بالعمل فهو فاسق

وعلق ابن المنير بقوله : إنه أراد بالفاسق غير المؤمن وغير الكافر ، وهذا من الأسماء التى سماها القدرية ، وما أنزل الله بها من سلطان .

ومعتقد أهل السنة أن الموحد لله الذى لا خلل فى عقيدته مؤمن وإن ارتكب الكبائر ، وهذا الصحيح لغة وشرعا ، أما لغة فإن الإيمان هو التصديق ، وهو مصدق ، وأما شرعا فأقرب شاهد عليه هذه الآية ، فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان دل على أن الإيمان معقول بدونه ، ولو كان العمل الصالح من الإيمان لكان العطف تكرارا (٣) .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » (٤) :

لما لم يسمعوا قول المثبط ، وأخلصوا النية والعزم على الجهاد ، وأظهروا

(١) الملل والنحل ١/٥٧ .
(٢) سورة البقرة ٣
(٣) الكشاف وحاشيته ١/١٧
(٤) سورة آل عمران ١٧٣

حية الإسلام ، كان ذلك أثبت ليقينهم ، وأقوى لاعتقادهم ، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج، ولأن خروجهم على أثر التثبيط إلى وجهة العدو طاعة قطعية ، والطاعات من حملة الإيمان ، لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل .

وعن ابن عمر : قلنا يا رسول الله هل الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار .

وعن عمر رضى الله عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول : قم بنا نزدد إيمانا . وعنه : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به [١] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « وبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما »[٢] :

إن الله ذكر المؤمنين الأبرار وذكر الكفار ، ولم يذكر الفسقة ، لأن الناس حينئذ إما مؤمن تقى وإما مشرك، وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك [٣]

٢ — ومن تأويله للآيات المتصلة بالكبائر والصغائر أنه قال فى تفسير قوله تعالى : « ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه ، هُدىً للمتقين » [٤] :

المعنى هو الذى يقى نفسه تعاطى ما يستحق من العقوبة من فعل أو ترك. واختلف فى الصغائر ، وقيل الصحيح أنه لا يتناولها، لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر [٥] .

---

(١) الكشاف ١/١٧٦
(٢) سورة الإسراء ٩ — ١٠
(٣) الكشاف ١/٤١٥
(٤) سورة البقرة ٢
(٥) الكشاف ١/١٦

وعلق ابن المنير بقوله : من تمنى القدرية على الله تعالى اعتقادهم أن الصغائر ممحوة عنهم ما اجتنبوا الكبائر ، وأنه يجب أن يعفو الله عنها لمجتنب الكبائر، كما يجب عندهم ألا يعفو عن مرتكب الكبائر ، وهذا هو الخطأ الصراح و مجده لآيات الله البينات وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم الصحاح .

والحق أن غفران الصغائر وإن اجتنبت الكبائر موكول إلى المشيئة ، كما أن غفران الكبائر موكول إليها أيضا .

ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرية يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شرا يره »[١] وهو ناطق بالمؤاخذة بالصغائر ، ويتحيرون عند قوله تعالى : « إن الله يغفر الذنوب جميعا »[٢] فإنه يصرح بمغفرة الكبائر .

أما أهل السنة فقد ألفوا بين هاتين الآيتين بقوله تعالى: « إن الله لا يغفر أن يُشرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » [٣] فإن التقييد بالمشيئة فى هذه تقضى على الآيتين المطلقتين [٤] :

وقال فى تفسير قوله تعالى : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب »[٥] .

أى مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب، ومحله الحال ، بمعنى ظالمين لأنفسهم . وفيه أوجه : أن يريد السيئات المكفّرة لمجتنب الكبائر ، أو يريد الكبائر بشرط التوبة ، أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال .

---

(١) سورة الزلزلة ٧ — ٨
(٢) سورة الزمر ٥٣
(٣) سورة النساء ١١٦
(٤) انظر الكشاف ١/٥١٦
(٥) سورة الرعد ٦

وروى أنها لما نزلت قال النبي عليه الصلاة والسلام : لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحدا العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد[١].

وعلق ابن المنير بقوله : الوجه الحق بقاء الوعد على إطلاقه ، إلا حيث دل الدليل على التقييد في غير الموحد، فإن ظلمه أعني شركه لا يغفر، وما عدا الشرك مغفوره في المشيئة، ولو لم يخشى يمسي على عقيدته التي وضح فسادها استحالة الغفران لصاحب الكبائر وإن كان موحدا إلا بالتوبة، فيقيد مطلقا، ويحمل واسعا[٢].

وقال في تفسير قوله تعالى : « قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم »[٣] :

هي مشروط التوبة ، وقد تكرر هذا الشرط في القرآن ، فكان ذكره في مواضع مغنيا عن عدم ذكره في مواضع ، لأن القرآن في حكم كلام واحد ، ولا يحور فيه التناقض . وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود « يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء » والمراد بمن يشاء من تاب ، لأن مشيئة الله تابعة لحكمه وعدله لا تسكه وحيرته . وفي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وفاطمة رضي الله عنها « يغفر الذنوب جميعا ولا يبالي » ونظير نفي المبالاة نفي الخوف في قوله تعالى : « ولا يخاف عقباها »[٤].

ثم ذكر ما قيل في أسباب نزول الآية[٥] :

وقال في تفسير قوله تعالى « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر

(١) الكشاف ١/٤٨٩
(٢) هامش الكشاف ١/٤٨٩
(٣) سورة الزمر ٥٣
(٤) سورة الشمس ١٥
(٥) الكشاف ٢/٣٠٢

عنكم سيئاتكم »[١] . الكبيرة والصغيرة ، ما وصفا به الكبر والصغر بإضافتهما إما إلى طاعة أو معصية أو ثواب أو عقاب فاعلهما[٢].

وقال في تفسير قوله تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة »[٣] :

الإثم جنس مشتمل على كبائر وصغائر ، والكبائر الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة ، وقيل التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها . والفواحش ما فحش من الكبائر ، كأنه قال والفواحش منها خاصة ، واللمم ما قل وصغر من الذنوب ، وعن أبي سعيد الخدري : اللمم هو النظرة والغمزة والقبلة ، وعن السدي الخطرة من الذنب ، وعن الكلبي كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا ولا عذابا .

والله واسع المغفرة ، حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر ، ويكفر الكبائر بالتوبة[٤].

(٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

رأى المعتزلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على المسلمين ، كما رأى غيرهم .

ولكنهم ذهبوا إلى الاقتصار على القلب إن كفى ، فإن لم يكف القلب فباللسان ، فإن لم يغن القلب واللسان فاليد ، فإن لم تنفع اليد فبالسيف[٥].

(١) سورة النساء ٣١
(٢) الكشاف ١ ٢٠٢
(٣) سورة النجم ٣٢
(٤) الكشاف ٢/٤١٨
(٥) الملل والنحل ١/٤٦ ومروج الذهب ٢/١٩٠

قال الزمخشري إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف ونهى عن المنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في أوقاته، وكيف يباشره، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وقد يغلط في موضع الليين ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا، أو على من الإنكار عليه عيب.

والأمر بالمعروف تابع للمأمور به، إن كان واجبا فواجب، وإن كان ندبا فندب، وأما النهي عن المنكر فواجب كله، لأن جميع المنكر تركه واجب، لا تصفه بقبح. وشرط الوجوب أن يغلب على ظنه وقوع المعصية، نحو أن يرى الشارب قد هيأ شرب الخمر بإعداد آلاته، وألا يغلب على ظنه أنه إن أنكر حقه مضرة عظيمة، ويبتدئ في إنكاره بالسهل، فإن لم ينجع ترقى إلى الصعب، لأن الغرض كف المنكر ....

فمن رأى غيره تاركا للصلاة وجب عليه الإنكار، وأما ما يحتاج إلى قتال فهو يقوم به من في استطاعته القتال، كالإمام وحلفائه، لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها[1].

(١) الكشاف ١/١٥٨

ثانيا - مذاهب فقهية

عرض الزمخشري لمسائل فقهية كثيرة، ولكنه لم يقتصر على مذهبه الحنفي، بل أورد الأحكام في المذاهب الأخرى، وكان أحيانا يرجح مذهب الشافعي على مذهب أبي حنيفة.

وهذه أمثلة مما ذكره:

١ - في معنى «فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم[1]»

الهدي هدي التمتع وهو شاة عند أبي حنيفة، وكل منه وعند الشافعي يجزي مجزي الجنايات ولا يأكل منه.

وينحره يوم النحر عندنا، وعنده يجوز ذبحه إذا أحرم بحجته، فمن لم يجد الهدي فعليه صيام ثلاثة أيام في وقت الحج، وهو أشهره ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، والأفضل أن يصوم يوم التروية وعرفة ويوما قبلهما، وإن مضى هذا الوقت لم يجزه إلا الدم، وعند الشافعي لا يصام إلا بعد الإحرام بالحج، تمسكا بظاهر قوله (في الحج وسبعة إذا رجعتم) بمعنى إذا فرغتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبي حنيفة، وعند الشافعي هو الرجوع إلى أهاليهم[2].

٢ - وفي معنى:

«واذكروا الله في أيام معدودات، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه»[3]

الأيام المعدودات أيام التشريق، وذكر الله فيها والتكبير في أدبار الصلوات وعند رمي الجمرات. (في يومين) هو يوم النحر ويوم النفر، وهو الذي يسميه

(١) سورة البقرة ١٩٦
(٢) الكشاف ١/٢٠٣
(٣) سورة البقرة ٢٠٣

أهل مكة يوم الرءوس ، واليوم بعده بعد فرغ من رمي الجمار كما فعل في اليوم ، وهو مذهب الشافعي. ويروى عن قتادة، وعن أبي حنيفة وأصحابه عن قبل طلوع الفجر (ومن تأخر) حتى رمى في اليوم الثالث ، والرمي في اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزوال عند أبي حنيفة وعند الشافعي لايجوز[١].

٣ — وقال تعالى: « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء في المحيض »[٢].

بين الفقهاء خلاف في الاعتزال ، فأبو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار ، ومحمد بن الحسن لايوجب إلا اعتزال الفرج ، وروى محمد حديث عائشة رضي الله عنها أن عبد الله بن عمر سألها : هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض ؟ فقالت تشد إزارها على سفلتها ، ثم ليباشرها إن شاء ، ومارواه زيد بن أسلم أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : مايحل لي من امرأتي وهي حائض ؟ قال : لتشد عليها إزارها ثم شأنك بأعلاها . ثم قال: وهذا قول أبي حنيفة ، وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة ، قالت : يجتنب شعار الدم وله مسوى ذلك[٣].

٤ — وقال تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف... »[٤]

يجب على الأب إرضاع الولد دون الأم ، وعليه أن يتخذ له ظئرا ، إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه ، وهي مندوبة إلى ذلك ، ولا تجبر عليه ، ولايجوز استئجارها عند أبي حنيفة ما دامت زوجة أو معتدة من نكاح ، وعند الشافعي يجوز ، فإن انقضت عدتها جاز بالاتفاق[٥].

٥ — وقال تعالى : واستشهدوا شهيدين من رجالكم[٦] » .

(١) الكشاف ١/٩٧
(٢) سورة البقرة ٢٢٢
(٣) الكشاف ١/١٠٣
(٤) سورة البقرة ٢٣٣
(٥) الكشاف ١/١٠٦
(٦) سورة البقرة ٢٨٢

اطلبوا أن يشهد لكم شهيدان على الدين من رجال المؤمنين ، والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء ، وعن علي رضي الله عنه : لاتجوز شهادة العبد في شيء ، وعند شريح وابن سيرين وعثمان البتي أنها جائزة . ويجوز عند أبي حنيفة شهادة الكفار بعضهم على اختلاف الملل[١] .

٦ — قال تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا[٢] » .

فسر رسول الله الاستطاعة بالزاد والراحلة ، وكذا عن ابن عباس وابن عمر ، وعليه أكثر العلماء ، وعن ابن الزبير هو على قدر القوة .

ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه ، وروى عنه أن ذلك على قدر الطاقة .

وقد يجد الزاد والراحلة من لايقدر على السفر ، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة .

وعن الضحاك إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع ، وقيل له في ذلك ، فقال إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ فكذلك كل من كان يطيق إليه ، فكذلك يجب عليه الحج[٣] .

٧ — وقال تعالى :

« وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم »[٤] .

(١) الكشاف ١/١٢٩
(٢) سورة آل عمران ٩٧
(٣) الكشاف ١/١٠٠
(٤) سورة النساء ٦

الابتلاء عند أبي حنيفة وأصحابه أن يدفع إليه ما يتصرف فيه ، حتى يستبين حاله فيما يجيء منه .

والرشد التهدي إلى وجوه التصرف ، وعن ابن عباس الصلاح في العقل والحفظ للمال .

وعند مالك والشافعي الابتلاء أن يتتبع أحواله وتصرفه في الأخذ والعطاء ، وتقصر مخايله وميله إلى الدين ، والرشد الصلاح في الدين ، لأن الفسق مفسدة في نفسه

فإن قلت : فمتى لم يؤنس منه رشد إلى حد البلوغ ؟

قلت : عند أبي حنيفة رحمه الله ينتظر إلى خمس وعشرين سنة ، لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثماني عشرة سنة ، فإذا زادت عليها سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغير أحوال الإنسان لقوله عليه السلام « مروهم بالصلاة لسبع » دفع إليه ماله ، سواء أونس منه الرشد أو لم يؤنس . وعند أصحابه لا يدفع إليه إلا بإيناس الرشد [1] .

٨ — وقال تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم » [2] .

ومعنى من أوسط ما تطعمون أهليكم من أقصده ، لأن منهم من يسرف في إطعام أهله ، ومنهم من يقتر . وهو عند أبي حنيفة رحمه الله نصف صاع من بر أو صاع من غيره لكل مسكين ، أو يغديهم ويعشيهم .

(١) الكشاف ١/١٨٩
(٢) سورة المائدة ٨٩

وعند الشافعي رحمه الله مُدٌّ لكل مسكين .

والكسوة ثوب يغطي العورة . وعن ابن عباس كانت العمامة تجزي يومئذ .

وعن ابن عمر إزار أو قميص أو رداء أو كساء . وعن مجاهد ثوب جامع . وعن الحسن ثوبان أبيضان .

وقد اشترط الشافعي في تحرير الرقبة أن يكون العبد مؤمنا قياسا على كفارة القتل .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد جوزوا تحرير الرقبة الكافرة في كل كفارة سوى كفارة القتل ، واشترط أبو حنيفة في الصوم أن يكون متتابعاً ، تمسكاً بقراءة أبيّ وابن مسعود « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » وعن مجاهد كل صوم منسوخ إلا قضاء رمضان ، وخير في كفارة اليمين .

والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه ، ويجوز عند الشافعي بالمال إذا لم يعص الحانث [1]

٩ — وقال تعالى : « إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد عامهم هذا [2] » . بعد عام تسع من الهجرة حين أمَّرَ أبو بكر على الموسم ، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، ويدل عليه قول عليٍّ حين نادى ببراءة « ألا يحج بعد عامنا هذا مشرك » ، ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم .

وعند الشافعي يمنعون من دخول المسجد الحرام خاصة .

(١) الكشاف ١/٢٧٢
(٢) سورة التوبة ٢٨

وعند مالك يمنعون منه ومن غيره من المساجد .

وعن عطاء أن المراد بالمسجد الحرام الحرم ، وأنه على المسلمين ألا يمكنوهم من دخوله .

ونهى المشركين أن يقربوه راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه . وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ، ويعزلوا عن ذلك [1] .

١٠ — وقال تعالى : « الذين يُظاهرون منكم مِنْ نسائهم ما هُنَّ أمهاتِهِمْ إنْ أمهاتُهُمْ إلا اللائى ولدْنَهُم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزُوراً ، وإن الله لعفوٌ غفور » [2]

فإن قلت : هل يصح الظهار بغير اللفظ ؟

قلت : نعم إذا وضع مكان (أنت) عضواً من الزوجة يعبر به عن الجملة، كالرأس والوجه والرقبة والفرج، أو وضع مكان (ظهر) عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ ، أو وضع مكان (أمى) ذات رحم محرم منه بسبب نسب أو رضاع أو صهر أو جمع، نحو أنه يقول أنت على كظهر أختى من الرضاع، أو عمتى من النسب، أو امرأة ابنى أو أبى أو أم امرأتى أو بنتها، فهو ظهر ، وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه .

وعن الحسن والنخعى والزهرى والأوزاعى والثورى وغيرهم نحوه .

وقال الشافعى لا يكون الظهار إلا بالأم وحدها، وهو قول قتادة والشعبى.

(١) الكشاف ٣ / ٤٨٩
(٢) سورة المجادلة ٢

وعن الشعبى : لم يترك الله أن يذكر البنات والأخوات والعمات والخالات. إذ أحير أن الظهار إنما يكون بالأمهات الوالدة دون المرضعات . وعن بعضهم لابد من ذكر الظهر حتى يكون ظهارا [1] .

١١ — وقال تعالى : « يا أيها النبىُّ إذا طلقتم النساء فطلقوهنَّ لعدتهن » [2]

روى عن إبراهيم النخعى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون ألا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضى العدة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً فى ثلاثة أطهار .

وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنهم كرهوا ما زاد على الواحدة فى طهر واحد ، فأما متفرقاً فى الأطهار فلا ، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهى حائض : ما هكذا أمرك الله ، إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا وتطلقها لكل قرء بطلقة، وروى أنه قال لعمر : مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها حتى تحيض ، ثم تطهر ، ثم ليطلقها إن شاء ، فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق بها النساء .

وعند الشافعى رضى الله عنه لا بأس بإرسال الثلاث، وقال لا أعرف فى عدد الطلاق سنة ولا بدعة ، وهو صحيح . فمالك يراعى فى طلاق السنة الوحدة والوقت، وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت ، والشافعى يراعى الوقت والوحدة.

فإن قلت : هل يقع الطلاق المخالف للسنة ؟ .

(١) الكشاف ٣ / ٤٩٠
(٢) سورة الطلاق ١

قلت : نعم وهو آثم ، لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه رجلا طلق امرأته ثلاثاً بين يديه ، فقال : أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ وفى حديث ابن عمر أنه قال يارسول الله أرأيت لو طلقتها ثلاثاً ؟ فقال له : إذن عصيت وبانت منك امرأتك . وعن عمر رضى الله عنه أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته ثلاثاً إلا أوجعه ضرباً ، وأجاز ذلك عليه. وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين أن من حالف السنة فى الطلاق فأوقع فى حيض أو ثنّث لم يقع[1].

(١) ... ٣ ص ٤٦٦

ثالثا - قراءات

الزمخشرى لغوى نحوى أديب ذواقة ، ولهذا أكثر من ذكر القراءات منسوبة إلى أصحابها فى أكثر الأحيان ، وغير منسوبة فى قليل من الأحيان ، وكان فى الأعلب الأعم لا يعقب بشىء ، ولا يفضل قراءة على قراءة ، وأحياناً كان يعقب باختيار أروع القراءات تعبيراً ، وأبلغها معنى ، وأشهها بنظم القرآن الكريم .

وهو يذكر مصحف عبد الله بن مسعود[1] ، ومصحف أبى[2] ، ومصحف الحارث بن سويد صاحب عبد الله ، وهو الذى دفن مصحفه أيام الحجاج[3] ، ومصاحف أهل الكوفة وأهل الحرمين والبصرة والشام[4] ، ومصاحف أهل العراق[5] ، وعكرمة والأعرج وابن يعمر[6] ، وبعض المصاحف[7] ، كما يذكر روايات عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وزيد بن على ونافع وابن جريج وحمزة والحسن وعمرو بن عبيد وغيرهم .

(١) الكشاف ١/٥٥ ، ٥٩ و٢/٢٦٣ ، ٣٦٤
(٢) الكشاف ١/٩٤ و٢/٨٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣
(٣) الكشاف ١ ٣٨٧
(٤) الكشاف ٢/٨٠
(٥) الكشاف ٢/٣٤١
(٦) الكشاف ٢ ٥١٨
(٧) الكشاف ٢/٤٦٠

من أمثلة ذلك ما ذكره في هذه الآيات :

١ — ولا تُسْأَلُ عنْ أصحاب الجحيم[١] .

قرأ عبد الله « ولن تُسْأَل » وقرأ أبيّ « وما تُسْأَل »[٢] .

٢ - « وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه »[٣]

قرأ أبو حنيفة — وهي قراءة ابن عباس — « إبراهيمُ ربَّه » برفع إبراهيم ونصب ربه ، والمعنى أنه دعاه بكلمات من الدعاء[٤] .

٣ — وعلى الذين يُطيقونه فدية طعامُ مسكين[٥] .

قرأ ابن عباس « وعلى الذين يَطَّوَّقونه »[٦] من الطَّوْق أو من الطاقة أو القلادة أي يكلفونه ويقلدونه . وعن ابن عباس يطوقونه بمعنى يتكلفونه أو يتقلدونه ، ويَطَّوَّقون بإدغام التاء في الطاء .

٤ — « وأتموا الحجَّ والعمرةَ لله »[٧] .

قرأ علي وابن مسعود والشعبي « وأقيموا الحج والعمرة لله »[٨] برفع العمرة على أنه قصد بها الابتداء وجعلها خبراً عن حكم الحج وهو وجوب[٩]

---

(١) سورة البقرة ١١٩
(٢) الكشاف ١ ٧٢
(٣) سورة البقرة ١٢٤
(٤) الكشاف ١/٧٣
(٥) سورة البقرة ١٨٤
(٦) الكشاف ١ ٨٨
(٧) سورة البقرة ١٩٦
(٨) الكشاف ١/٩٣
(٩) الكشاف ١/٩٣

٥ — « والوالداتُ يُرضعْنَ أولادَهُنَّ حَوْلَيْن كاملين لمن أراد أن يتم الرَّضاعة[١] » قرأ قتادة (حولين كاملين)[٢] .

٦ — « قل جاءكم موسى من قبلي بالبينات فلم تقتلوهم »[٣] .

قرأ أبيّ والحسن « فلن جاءه »[٤]

٧ — « هو الذي يُصَوِّرُكُمْ في الأرحام كيف يشاء »[٥]

قرأ طاوس « هو الذي تَصَوَّرَكم » أي صوَّركم لنفسه

٨ - « وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلا اللهُ والراسخون في العلم يقولون آمنا به »[٦]

قرأ أبي : « ويقول الراسخون في العلم »[٧] .

٩ — « شهد اللهُ أنه لا إلهَ إلا هو والملائكةُ وأولو العلم قائماً بالقسط »[٨] قال : إن قائماً منصوب على الحال أو المدح ، وقرأ عبد الله « القائم بالقسط » على أنه بدل من هو أو خبر مبتدأ محذوف ، وقرأ أبو حنيفة « قيما بالقسط »[٩] .

١٠ — إنَّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم »[١٠]

---

(١) سورة البقرة ٢٣٣
(٢) الكشاف ١ ١٠٩
(٣) سورة غافر ٢٧٥
(٤) الكشاف ١/١٢٧
(٥) سورة آل عمران ٦
(٦) سورة آل عمران ٧
(٧) الكشاف ١/١٣٥
(٨) سورة آل عمران ١٨
(٩) الكشاف ١ ١٣٧
(١٠) سورة آل عمران ٢١

قرأ الحسن « يقتلون النبيين » وقرأ حمزة « وقد [illegible] وقرأ عبد الله « وقاتلوا » وقرأ أبيّ « يقتلون النبيين والذين [illegible] »[1]

١١ — « قال ربّ اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلّم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا »[2]

قرأ يحيى بن [illegible] إلا رُمُزا بضمتين جمع رَمُوز كرسول ورسل ، وقرئ [illegible] وهو جمع رامز كخادم وخدم ومن الناس كقوله

متى ما تلقنى فردين ترجف [illegible]

على لا مرء يبكى لنفسه [illegible][3]

١٣ — « أم لهم نصيب من الملك ، فإذن لا يؤتون الناس نقيرا »[4]

القراءة العامة على أن (إذن) ملغاة ، كأنه قيل فلا يؤتون الناس نقيرا إذن ، وقرأ ابن مسعود « فإذن لا يؤتوا الناس » . على إعمال إذن[5]

١٣ — « سمّاعون للكذب أكّالون للسُّحْت »[6] قرئ السحت بالتخفيف والتثقيل ، والسَّحْت بفتح السين على لغة المصدر من سحته ، والسُّحْت بضمتين والسُّحْت بكسر السين[7] .

(١) الكشاف ١/١٣٩
(٢) سورة آل عمران ٤١
(٣) الكشاف ١/١٤٤
(٤) سورة النساء ٥٣
(٥) الكشاف ١/٢٩٠
(٦) سورة المائدة ٤٢
(٧) الكشاف ١/٢٥٦

١٤ — « لكلّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا »[1] .

الشرعة الشريعة ، وقرأ يحيى بن وثاب الشَّرْعة بفتح الشين[2] .

١٥ — [illegible] كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم »[3] وقرأ سعد بن أبى وقاص وابن عباس رضى الله عنهم ، وقرأ جعفر بن محمد (أهليكم) بسكون الياء والأهلى اسم جمع لأهل كالليالى فى جمع ليلة ، والأراضى فى جمع أرض ، وقولهم أهلون كقولهم أرضون بسكون الراء . أما تسكين الياء فى حال النصب فللتخفيف ، كما قالوا رأيت معدكرب تشبيها للياء بالألف . وقرئ (كسوتهم) بضم الكاف ونحوه قدوة فى قدوة وأسوة فى إسوة

وقرأ سعد بن المسيب واليمانى (أو كأسوتهم) بمعنى أو مثل ما تطعمون أهليكم إسرافا أو تقتيرا ، وقرأ أبى وابن مسعود « فثلاثة أيام متتابعات »[4]

١٦ [illegible] عنه سوأة أخى هابيل[5]

قرئ أسواء الذى عملوا ، جمع سوء[6]

١٧ « وما هو على الغيب بضنين »[7]

فى مصحف عبد الله بالطاء (بظنين) وفى مصحف أبى بالضاد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها ، وإتقان الفصل بين الصاد والطاء واجب

(١) سورة المائدة ٤٨
(٢) الكشاف ١/٢٥٨
(٣) سورة المائدة ٨٩
(٤) الكشاف ١/٢٧٢
(٥) سورة الزمر ٣٥
(٦) الكشاف ٢/٢٩٩
(٧) سورة التكوير ٢٤

ومعرفة مخرجيها لا بد منه للقارئ ، فإن أكثر المعجم لا يفرقون بين الحرفين وإن فرقوا فرقاً غير صواب . وبينهما بون بعيد ، فإن مخرج الصاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره ، كان عمر بن الخطاب أضبط يعمل بكلتا يديه ، وكان يخرج الصاد من جانبي لسانه . وهي أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين ، وأما الطاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ، وهي أحد الأحرف النطعية أخت الدال والتاء . ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان ، ولا خلاف بين حملة من حملة العلم والقراءة ، ولما اختلف للمعنى ولا لاشتقاق والتركيب[1] .

وقد يفاضل بين القراءات ويختار إحداها .

١٨ — في الآية الكريمة « وإنا لجميع حاذرون »[2] ذكر أن بعضهم قرأ (حذرون) وبعضهم قرأ (حادرون) بالدال غير المعجمة ، وقال إن الحذر اليقظ ، والحاذر الذي يحدد حذره ، وقيل المتقوي بالسلاح إنما يعمل ذلك حذراً ، والحاذر السمين القوي قال :

أحب الصبي السوء من أجل أمه ... وأبغضه من بغضها وهو حادر

أراد أنهم أقوياء أشداء ، وقيل مدججون بالسلاح قد أكسبهم ذلك حذارة في أجسامهم[3] .

١٩ — وعند تفسير قوله تعالى : « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء »[4] قال : فإن قلت هلا قيل كل شجرة طيبة ثبتت أصلها فإن قلت أي فرق بين القراءتين ؟

(١) الكشاف ٢/٥٢٨
(٢) سورة الشعراء ٥٦
(٣) الكشاف ٢/١٢٤
(٤) سورة إبراهيم ٢٤

قلت قراءة الجماعة أقوى ، لأن في قراءة أبي أحرب الصفة على الشجرة ، وقد ضرب مررت برجل أبوه قائم فهو أقوى معنى من قولك مررت برجل قائم أبوه ، لأن المخبر عنه إنما هو الأب لا الرجل[1] .

٢٠ — وفي تفسير قوله تعالى : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم »[2] ذكر أن (كلمة) قرئت بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية ، والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة[3] .

٢١ — على أنه استبعد القراءات الشاذة وأنكرها ، فقال في تفسير قوله تعالى : « أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا »[4] .

أفلم ييأس أي أفلم يعلم ، قيل هي لغة قوم من النخع . . . . ويدل عليه أن عبيد بن عمير وجماعة من الصحابة والتابعين قرأوا أفلم يتبين ، وهو تفسير أفلم ييأس .

وقيل إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السينات ، وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتي الإمام — يريد المصحف الإمام — وكان متقلبا في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله ، المهيمنين عليه ، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه ، حصوصا عن القرن الذي إليه المرجع ، والقاعدة التي عليها البناء ، وهذه والله فرية ما فيها مرية[5] .

(١) الكشاف ٢/٥٠٤
(٢) سورة الكهف ٥
(٣) الكشاف ٢/٦٣٥
(٤) سورة الرعد ٣١
(٥) الكشاف ٢/٤٩٥

رابعًا - آراء نحوية

عرفنا أن الزمخشري ألف كتابه في النحو ، منها المفصل ، وكان كلفا بالنحو بصيرا بدقائقه مثل كلفه باللغة وبصره بها .

ولهذا نعرض كثيرا للإعراب في تفسيره ، فيعرب كلمات ، ويورد آراء النحاة في إعراب كلمات ، ويناقش الآراء ، ويختار ما يراه أصح وأصوب ، وكثيرا ما كان يستشهد بنصوص الأدبية .

وهذه أمثلة من الآيات الكريمة التي عرض فيها للنحو :

١ - قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط »[1]

قال : قائما منصوب على الحال من لفظ الجلالة ، فإن قلت : لم جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه ، ولو قلت جاءني زيد وعمرو راكبا لم يجز ؟

قلت : إنما جاز هنا لعدم اللبس كما جاز في قوله تعالى : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة »[2] إن انتصب (نافلة) حالا من يعقوب ، ولو قلت جاءني زيد وهند راكبا جاز ، لتميز الحال بالمذكورة ، ويجوز أن يكون (قائما) منصوبا على المدح .

فإن قلت : أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة ، كقولك الحمد لله الحمدَ - بفتح الدال - وإنا معشرَ بفتح الراء - الأنبياء لا نورث ؟

(١) سورة آل عمران ١٨

(٢) سورة الأنبياء ٩٢

قلت : قد جاء نكرة كما جاء معرفة ، وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الشنفرى

ولي دونكم أهلون سيد عملس ... وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

فإن قلت : هل يجوز أن يكون قوله بمعنى ، قائما بالقسط لا إله إلا هو ؟

قلت : لا يبعد ، فقد رأيتهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف .

فإن قلت : قد جعلته حالا من فعل (شهد) فهل يصح أن ينتصب حالا من هو في (لا إله إلا هو) ؟

قلت : نعم لأنها حال مؤكدة ، والحال المؤكدة لا تستدعي أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عامل فيها ، كقولك أنا عبد الله شجاعا ، وكذلك لو قلت لا رجل إلا عبد الله شجاعا ، وهو أوجه من انتصابه عن فعل (شهد) وكذلك انتصابه على المدح[1] .

٢ - « ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا »[2]

(الشمس والقمر) قرئا بالحركات الثلاث

فالنصب على إضمار فعل دل عليه جاعل الليل ، أي وجعل الشمس والقمر حسبانا ، أو يعطفان على محل الليل

فإن قلت : كيف يكون لليل محل والإضافة حقيقية ، لأن اسم الفاعل المضاف إليه في معنى المضي ، ولا تقول يزيد ضارب عمرو أمس ؟

(١) الكشاف ١/١٣٧

(٢) سورة الأنعام ٩٦

قلت ما هو فى معنى للقى ، وإنما هو دال على جَعْلٍ مستمر فى الأمنة المختلفة ، وكذلك فالق الحب وفالق الإصباح ، كما تقول الله قادر عالم ، فلا تقصد زمانا دون زمان

والجر عطف على لفظ الليل ، والرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره والشمس والقمر محمولان حسبانا أو محسوبان حسبانا ، ومعنى حملهما حسبانا أن حساب الأوقات يعلم بدورانهما وسيرهما [١] .

٣ — « إن يشأ يُسْكِنِ الريح فيظللن رواكدَ على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يُوبقهن بما كسبوا ، ويَعْفُ عن كثير ، ويعلمَ الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص » [٢] .

فإن قلت : ما وجوه القراءات الثلاث فى (يعلم) ؟

قلت أما الجزم فعلى ظاهر العطف ، وأما الرفع فعلى الاستئناف ، وأما النصب فبعطف على تعليل محذوف تقديره ليبتليكم منهم ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ، ونحوه فى العطف على التعليل المحذوف غير عزيز فى القرآن ، منه قوله تعالى : « ولنجعله آية للناس » [٣] ، وقوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتُجزى كل نفس بما كسبت [٤] »

وأما قول الزجاج : النصب على إضمار أنْ ، لأن قبلها جزاء ، تقول ما تصنع أصنعْ مثله وأكرمَك ، وإن شئت وأكرمُك ، على تقدير وأنا أكرمك ، وإن شئت وأكرمَك جزماً ففيه نظر ، لما أورده سيبويه فى كتابه إذ قال :

(١) الكشاف ١ / ٣٠٢
(٢) سورة الشورى ٣٥
(٣) سورة مريم ٢١
(٤) سورة الجاثية ٢٢

واعلم أن النصب بالفاء والواو فى قوله إن تأتنى آتك وأعطيك ، ضعيف وهو نحو من قوله : وألحَقُ بالحجاز فأستريحا ، فهذا يجوز وليس بحد الكلام ولا وجهه ، إلا أنه فى الجزاء صار أقوى قليلا ، لأنه ليس بواجب أنه يفعل ، إلا أن يكون من الأول فعل ، فما ضارع الذى لا يوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه .

ثم عقب الزمخشرى بقوله : ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ، ليس بحد الكلام ولا وجهه ، ولو كانت من هذا الباب لما أحلى سيبويه منها كتابه ، وقد ذكر نظائرها من الآيات الشكلة [١] .

٤ — « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقيّة ينهَوْنَ عن الفساد فى الأرض [٢] » فهلا كان ، وقد حكوا عن الخليل أن كل « لولا » فى القرآن معناها هلا إلا التى فى سورة الصافات [٣] ، ولكن هذه الحكاية غير صحيحة ، لأن لولا وردت فى سور أخرى وليس معناها هلا ، مثل قوله تعالى : « لولا أن بارَكَتْ نعمة من ربه لنُبِذَ بالعراء » [٤] وقوله « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم [٥] » . وقوله : « ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » [٦]

٥ — « وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سُنبلات خضر وأخر يابسات » [٧] .

(١) الكشاف ٢ / ٣٤٢ (٢) سورة هود ١١٦ .
(٣) يريد قوله تعالى فى شأن يونس : « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون » سورة يونس ٩٨ — ١٤٤
(٤) سورة القلم ٤٩ (٥) سورة الفتح ٢٥
(٦) سورة الإسراء ٧٤ والكشاف ١/٤٥٦
(٧) سورة يوسف ٤٣

فإن قلت : هل من فرق بين إتباع الموصوف صفته المميزة ، وهو نعت دون المميز وهو سمع ، وأن يقال بقرات سمع

قلت : إذا أتبعت صفته المقرات فقد وصفت بها المميز لسمع جنس البقرات لا بنوع منها ، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن .

فإن قلت : هلا قيل سمع عجاف على الإضافة ؟ .

قلت : المميز موضوع لبيان الجنس ، والعجاف وصف لا يقع البيان بوحده .

فإن قلت : فقد يقولون ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب ؟ .

قلت : الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها ، وجاز فيها ما لم يجز في غيرها ، ألا تراك لا تقول عندي ثلاثة صحام وأربعة علاط .

فإن قلت : هذا مما يشكل ، وما نحن بسبيله لا إشكال فيه ، ألا ترى أنه لم يقل بقرات سمع عجاف ، لوقوع العلم بأن المراد بالسبع البقرات ؟

قلت : ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل ؛ وقد وقع الاستغناء بقولك سمع عجاف عما تقترحه من التمييز بالوصف

والعَجَفُ الهزال الذي ليس بعده ، والسمن في وقوع عجاف جمعاً لعجفاء مع أن أفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال حمله على سمان ، لأنه نقيضه ، ومن رأيهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض[1]

٦ — ﴿ هو الذي يُريكُمُ البَرْقَ خوفاً وطمعاً[2] ﴾

(١) الكشاف ١ / ٤٧٢

(٢) سورة الرعد ١٢

لا يصح أن تكون (خوفاً وطمعاً) مفعولاً لهم ، لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف ، أي إرادة خوف وطمع ، أو على معنى إخافة وإطماعاً .

ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق ، كأنه في نفسه خوف وطمع ، أو على ذا خوف وذا طمع ، أو من المخاطبين أي خائفين وطامعين[1] .

٧ — ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ[2] ﴾

وجاء (لا) في فعل نهي مسند إلى ضمائرهم وأشعر بهم قول مروان بن حفص

لا أُبيتُ اللعنَ إن لا ندعي تغلبَ أن أبو

وقول غيره من شعر

ألا نادت أمامةُ باحتمالي لتحزنني فلا بك ما أُبالي

وإنما نهوا تأكيد القسم ، وقالوا إنها صلة (لا) مشبهة في (لا يهتدون) وفي قوله :

في بئر لا حُورٌ سَرَى وما شَعَرْ[3] .

واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد في وسط الكلام لا في أوله ، وأجابوا بأن القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض .

والاعتراض صحيح ، لأنها لم تقع مزيدة إلا في وسط الكلام ، ولكن الجواب غير سديد ، ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته؟ وإنما هي لنفي ما يعلم أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له ، يدلك عليه قول من قال لا وأبي دماء ... ولا أقسم بموقع النجوم ... وإنما أقسم بمواقع النجوم لعظم

(١) الكشاف ١ / ٤٧٩

(٢) سورة النساء ٤٣

(٣) قال ابن يعيش في شرح المفصل ٨/١٣٦ إن الرواية في بئر حور ولا مزيدة ، كذا فسره أبو عبيدة ، والحور الهلكة .

فكأنه بإدخال حرف النفي يقول إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام ، يعني أنه يستأهل فوق ذلك .

وقيل إن (لا) نفي للكلام ورد له قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث فقيل لا ، أي ليس الأمر كما ذكرتم ، ثم ابتدئ أقسم بيوم القيامة .

فإن قلت : قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون » ، والأبيات التي أنشدتها ، المقسم عليه فيها منفي ، فهلا زعمت أن (لا) التي قبل القسم زيدت موطئة للنفي ، ومؤكدة له ، وقدرت المقسم عليه المحذوف هاهنا منفيا ، كقولك لا أقسم بيوم القيامة لا تتركون سدى ؟ .

قلت : لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ، ولكن لم يقصر ، ألا ترى كيف نفى لا أقسم بهذا البلد بقوله لقد خلقنا الإنسان في كبد ، وكذلك فلا أقسم بمواقع النجوم بقوله إنه لقرآن كريم .

وقرئ (لأقسمُ) على أن اللام للابتداء ، وأقسم خبر مبتدأ محذوف بعده لأقسم ، قالوا ويعضده أنه في المصحف الإمام بغير ألف[1] .

(١) الكشاف ٢ / ٤٠٢ .

خامسًا - مسائل لغوية

من الطبيعي والزمخشري لغوي أديب نصير تحقائق اللغة ومجراتها أن يستعين بعلمه وذوقه على تجلية بعض الدلالات الدقيقة للكلمات ، وأن يناقش سابقيه ومعاصريه في بعض الكلمات .

١ — قال في تفسير قوله تعالى: « والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »[1] .

معنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ في فرائضها وسننها وآدابها ، من أقام العمود إذا قومه .

أو الدوام عليها والمحافظة عليها ، كما قال عز وعلا : « الذين هم عن صلاتهم ساهون » و « والذين هم على صلواتهم يحافظون » من قامت السوق إذا نفقت ، لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النافق الذي تتوجه إليه الرغبات ، ويتنافس فيه الحصفون ، وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه .

أو التجلد والتشمر لأدائها ، وألا تكون في مؤديها فتور عنها ولا توان ، من قولهم قام بالأمر وقامت الحرب على ساقها ، وفي ضده قعد عن الأمر وتقاعد عنه إذا تقاعس وتثبط .

أو أدوها ، فعبر عن الأداء بالإقامة ، لأن القيام بعض أركانها ، كما عبر عنه بالقنوت ، والقنوت القيام ، وبالركوع وبالسجود ، وقالوا سمع إذا صلى ، لوجود التسبيح فيها[2] .

(١) سورة البقرة ٣
(٢) الكشاف ١ / ٩٧

٢ — وقال فى تفسير قوله تعالى : « ... الله بنورهم »[1] .

الفرق بين أذهبه وذهب به أن معنى أذهبه أزاله وجعله ذهاباً ، وقال ذهب به إذا اصطحبه ومضى به معه ، وذهب السلطان بماله أخذه ، ومنه ذهبت به الخيلاء ، ومعنى أخذ الله بنورهم وأمسكه وما يمسك الله فلا مرسل له ، وبدأ أنفع من الإذهاب ، وقرأ اليمانى أذهب الله نورهم[2] .

٣ — وقال فى تفسير قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون »[3] .

... ولا تشبهوا ... وهى ... حسب ...

... جعلتم ... وهو ... وهى ... حسب ...

... وقيل ... وهو ... ومعنى قوله ... لا ... معى ... وقيل ...[4] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه »[5] .

فمن تعجل عجّل فى النفر أو استعجل النفر ، وتعجل واستعجل تحيش مطاوعين بمعنى عجّل ، يقال تعجل فى الأمر واستعجل ، وحيث معناه ، يقال تعجل الذهاب واستعجله . والمطاوعة أوفق ، لقوله « ومن تأخر » كما هى كذلك فى قول الشاعر :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

لأجل المتأنى[6] .

(١) سورة البقرة ١٧
(٢) الكشاف ١ / ٣١
(٣) سورة البقرة ٢٢
(٤) الكشاف ١ / ٣٨
(٥) سورة البقرة ٢٠٣
(٦) الكشاف ١ / ٩٧

٥ — وقال فى تفسير قوله تعالى : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون[1] » .

قال : الكتاب والفرقان يعنى الجامع بين كونه كتاباً منزلا وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل ، يعنى التوراة ، كذلك رأيت العيث والليث ، تريد الرجل الجامع بين الجود والحراءة ، ونحوه قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين[2] » يعنى الكتاب الجامع بين كونه فرقانا وضياء وذكرا ، أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات ، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام .

"وقيل الفرقان اهراق البحر ، وقيل النصر الذى فرق بينه وبين عدوه ، كقوله تعالى : « يوم الفرقان »[3] يريد به يوم بدر[4] .

٦ — وقال فى تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين[5] » .

أذلة جمع ذليل ، وأما ذلول فجمعه ذُلُل ، ومن زعم أنه من الذل الذى هو نقيض الصعوبة فقد عنى عنه أن ذلولا لا يجمع على أفعلة . فإن قلت : هلا قيل : أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين ؟

قلت : فيه وجهان .

(١) سورة البقرة ٥٣
(٢) سورة الأنبياء ٤٨
(٣) سورة الأنفال ٤١
(٤) الكشاف ١ ٥٥
(٥) سورة المائدة ٥٤

أحدهما أن يضمن الدلالة معنى الحنو والعطف ، كأنه قيل مخصص عليه على وجه التذليل والتواضع .

والثانى أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ، ونحوه قوله تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » [1] .

٧ — وقال فى تفسير قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » [2]

أى أكاد أخفيها فلا أقول هى آتية لفرط إرادتى إخفاءها ، ولولا ما فى الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به .

وقيل معناه أكاد أخفيها من نفسى . ولا دليل فى الكلام على هذا المحذوف ، ومحذوف لا دليل عليه مطّرح ، والذى غرهم منه أن فى مصحف حفصة أكاد أخفيها من نفسى فكيف أظهركم عليها ؟

وعن أبى الدرداء وسعيد بن جبير (أخفيها) بفتح الهمزة من خفاه إذا أظهره ، أى قرب إظهارها ، كقوله تعالى : « اقتربت الساعة » [3] وقد جاء فى بعض اللغات أخفاه بمعنى خفاه ، وبه فسر بيت امرئ القيس :

فإن تدفنوا الداء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

فأكاد أخفيها تحتمل معنيين [4] .

وقال فى الأساس : خفى الشىء واخفى واستخفى تستر ، وهو يخفى

(١) سورة الفتح ٢٩ والكشاف ١ / ٢٦٣
(٢) سورة طه ١٥
(٣) سورة القمر ١
(٤) الكشاف ٢ / ٢١

صوته ، وخفى الشىء الخفىّ واختفاه أخرجه ، يقال خفيت الحوزة من تحت التراب ، واختفى النباش الكفن [1] .

٨ — وقال فى تفسير قوله تعالى « ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » [2] .

سميت العين زنجبيلا لطعم الزنجبيل فيها ، والعرب تستلذه وتستطيبه . قال الأعشى :

كأن القرنفل والزنجبيـ ـل باتا فيها وأريا مشور

وقال المسيّب بن علس :

وكأن طعم الزنجبيل به إذ ذقته وسلافة الخمر

و (سلسبيلا) لسلاسة انحدارها فى الحلق ، وسهولة مساغها ، يعنى أنها فى طعم الزنجبيل ، وليس فيها لذعة ، ولكن تقيض للذع وهو السلاسة . يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل . وقد زيدت الباء فى التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ، ودلت على غاية السلاسة . قال الزجاج : السلسبيل فى اللغة صفة لما كان فى غاية السلاسة . وقد عزوا إلى على بن أبى طالب أن معناه سل سبيلا ، وهذا غير مستقيم على ظاهره ، إلا أن يراد أن علة قول القائل (سل سبيلا) جعلت عما للعين ، كما قيل تأبط شرا ، وسميت بذلك لأنه لا يشرئ إليها إلا من سأل إليها سبيلا بالعمل الصالح [3] . وهو مع استقامته فى العربية تكلف وابتداع ، وعزوه إلى مثل على رضى الله عنه أبدع .

(١) أساس البلاغة مادة خفى
(٢) سورة الإسراء ١٠٩
(٣) الكشاف ٢/٥١٢

٩ — وفى تفسير الآية الكريمة : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا »[١]

المعصرات : السحائب إذا أعصرت أى شارفت أن يعصرها الرياح فتمطر، كقولهم أجز الزرع إذا حان له أن يجز ، ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض ، وقيل فى الأساس أن السحابة أعصرت واستدل بالآية .

ثجاجا : منصبا بكثرة ، يقال ثجه وثج هو ، وفى الحديث أفضل الحج العج والثج ، أى رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى ، وكان ابن عباس يسأل عن الشئ من القرآن فيجيب عن معنى ثج الكلام ثجا فى خطبته

ألفافا : ملتفة ، ولا واحد له كالأوزاع والأضياف ، وقيل واحدها لف ، وقال صاحب الإكليل : أنشدنى الحسن بن على الطوسى

جنة لف وعيش مغدق ... ودمى كلهم بيض زهر

وزعم قطرب أن عربا واحد ولف جمع لف ثم خفف ، ومنهم من جعله واحدا كعبابيد من جعل حصر وحضر واحدا وأجاز وقفى هو جمع مقفاة بتقدير حذف الزوائد كأن قولا وجيها[٢]

١٠ — وفى الآية الكريمة : « وكذبوا بآياتنا كذابا »[٣]

أى تكذيبا ، وفعال فى باب فعل كله فاش فى كلام فصحاء العرب ، لا يقولون غيره . وسمعى بعضهم أفسر آية فقال : لقد فسرتم شيئا ما سمع بمثله[٤] .

---

(١) سورة النبأ ١٤ — ١٦
(٢) الكشاف ٢ / ٥١٨
(٣) سورة النبأ ٢٨
(٤) الكشاف ٢ / ٥١٩

سادسا - نصوص شعرية

استشهد الزمخشرى بنهج ابن عباس والطبرى وغيرهما فى الاستشهاد بالشعر والاستدلال به على تفسير معانى الكلمات ، فقد روى ابن عباس أن أعرابيا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فتكلم بكلام بين ، فقال النبى إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكما . وكان ابن عباس يسأل عن الشئ من القرآن فيقول . فيه كذا وكذا ، أما سمعت الشاعر يقول كذا كذا . وقال عكرمة : ما سمعت من عباس قصر آية من كتاب الله عز وجل إلا تزع فيها بيت من الشعر . وكان يقول إذا أشكل عليكم شئ من كتاب الله فاطلبوه فى الشعر . فإنه ديوان العرب[١]

أما الطبرى فكثيرا ما اعتمد على الشعر فى بيان المعنى المراد من الكلمة، تارة يذكر اسم الشاعر ، وتارة يذكر البيت مجردا من الاسم .

وفى رأى الزمخشرى ورأى سابقيه أن الإسلام لم يحرم الشعر كله ، بل حرم ما يخالف العقيدة ، وسائر الخلق الكريم . ولهذا قال فى تفسير قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون[٢] » .

إن الله استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاه

---

(١) مقدمة شرح التبريزى للحماسة ١ / ٣
(٢) سورة الشعراء ٢٢٤ — ٢٢٦

القرآن ، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر ، وإذا قالوا شعرا قالوا فى توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة وصلحاء الأمة، ومالا بأس به من المعانى ، لا يتخطون فيه مذهب، ولا يتبعون بشائنة ولا منقصة ، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم ، قال الله تعالى : « لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ من القول إلا من ظُلِمَ »[1] وذلك غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب ، لقوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم »[2]. وعن عمرو بن عبيد أن رجلا من العلوية قال له إن صدرى ليجيش بالشعر ، فقال : فما يمنعك منه مما لا بأس به ؟ .

والقول فيه أن الشعر باب من الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام . وقيل المراد باستثنين عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير، والذين كانوا يناضلون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكافحون هجاء قريش . وعن كعب بن مالك أن النبى قال له: اهجهم فهو الذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من النَّضْح ، وكان قول حسان فى وروح القدس معك[3] .

ولهذا استشهد بالشعر فى الكشف عن دلالات كثير من الألفاظ ، ولم يتقيد بعصر ولا بصفة خاصة فى الشاعر

١ — فى تفسير قوله تعالى : « والمُحْصَناتُ من النساء إلا ما مَلَكَتْ أيمانُكم »[1]

(١) سورة النساء ١٤٨
(٢) سورة البقرة ١٩٤
(٣) الكشاف ٢/١٣٥
(٤) سورة النساء ٢٤

قال إن المراد ما ملكت أيمانكم من الإماء اللاتى بقين وهن أزواج فى دار الكفر ، فهن حلال لفقراء المسلمين وإن كن محصنات ، وفى معناه قول الفرزدق .

وذات حليل أنكحتها رماحنا حلالٌ لمن يبنى بها لم تُطَلَّق[1]

٢ — وفى تفسير قوله تعالى : « فاضربوا فوقَ الأعناق ، واضربوا منهم كلَّ بَنان »[2]. قال إن المراد أعلى الأعناق التى هى المذابح ، لأنها مفاصل، وكل عضو لضرب منها حَزٌّ وبضعة ، وبنوس

وقيل أراد بنوس ، لأنها فوق الأعناق ، يعنى ضرب الرقاب، قال الشاعر :

وأضرب هامة البطل المشيح

وقال آخر

عشيته وهو فى حَوْباء باسلة عَضْباً أصاب سواء الرأس فالتقما

والبنان الأصابع ، يريد الأطراف ، والمعنى فاضربوا المفاصل والشوى[3]

٣ — وقال فى تفسير قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العُسْرة »[4]: إن ساعة العسرة وقتها ، والساعة مستعملة فى معنى الزمان المطلق ، كما استعملت الغداة والعشية واليوم. قال الشاعر :

وكنا حسبنا كلَّ بيضاء شَحْمَةً عشيَّة قارَعْنا لُجَذام وحِمْيَرا

(١) الكشاف ١/١٩٩
(٢) سورة الأنفال ١٢
(٣) الكشاف ١/٣٦٨
(٤) سورة التوبة ١١٧

وقال آخر :

إذا جاء يوما وارثى يبتغى الغنى يجد خمع كف غير ملأى ولا صفر[1]

والعسرة حالهم فى غزوة تبوك[2] .

٤ — ويستشهد ببيت لأبى نواس عند تفسيره قوله تعالى :

« إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين »[3] .

فيقول : فيه وجهان : أحدهما أنه كان وحده أمة من الأمم ، لكماله فى جميع صفات الخير ، كقول الشاعر :

وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد[4] .

ومعلوم أن البيت لأبى نواس كما فى ديوانه وفى أوضح المسالك لابن هشام فى باب أداة التعريف .

وإذا كان لم يصرح باسم أبى نواس فى هذا البيت ، فقد صرح باسمه فى مواضع أخرى ، كما نجد عند تفسير قوله تعالى : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء[5] » .

إذ يقول : ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد ، وهو أن يكون العاصى على صفة لا تجدى عليه المصالح حتى طغت الهوى ، فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا ، ويقع تحت قول أبى نواس :

سقينى حتى قال الورى رأيتك قد مسك الخبل

وزرت فلم تأتنا زورة وكنت تجود فما تبخل

فقلت لهم إن فى كأسه لشغلا لكم أيها الجهل

فدعنى أقبل فى حسنها فحسنا عندى القبيح[6]

---

(١) سورة هود ٤٥

(٢) الكشاف ٢ ٢٢٢

(٣) سورة النحل ١٢٠

(٤) الكشاف ٢ ٥٣٨

(٥) سورة فاطر ٨

(٦) الكشاف ٢ ٢٣٩

٥ — ويستشهد بقول الشاعر :

وكأس شربت على لذة [وأخرى تداويت منها بها]

عند تفسير قوله تعالى : « يطاف عليهم بكأس من معين »[1] .

ويذكر أنه يقال للزجاجة فيها الخمر كأس ، وتسمى الخمر كأسا[2] .

٦ — ويستشهد بقول طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد[3]

عند تفسير قوله تعالى : « وإنه لحب الخير لشديد[4] » .

ليوضح أن الشديد هو البخيل الممسك[5] .

٧ — واستشهد بشعره وإن لم يصرح بأنه له .

فعند تفسيره لقوله تعالى : « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها »[6] .

ذكر هذه الأبيات على أنها لبعضهم :

فمن يرى مد البعوض جناحها فى ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى عروق نياطها فى نحرها والمخ فى تلك العظام النحل

سبحان من تاه من فرطانه ما كان منه فى زمان الأول

وهذه الأبيات له ، كما يبين من ديوانه[7] .

وعند تفسير قوله تعالى : « ولتنذر أم القرى ومن حولها »[8] .

ذكر هذا البيت على أنه لبعض المحدثين

فمن لى فى بعض القرى وحالة فأم القرى ملقى رحالى ومثوانى[9]

---

(١) سورة الصافات ٤٥

(٢) الكشاف ٢ ٢٢٢

(٣) سورة الحديد ٨

(٤) سورة العاديات ٨

(٥) الكشاف ٢ ٥٤٧

(٦) سورة البقرة ٢٦

(٧) ديوان الزمخشرى ٩٦

(٨) سورة الأنعام ٩٢

(٩) الديوان ٥ والكشاف ١/٣٠٣

سابعًا - بلاغة ونقد

تمهيد

سارع المعتزلة إلى دراسة اللغة والأدب والعلوم الدينية والفلسفة والمنطق ، لأن مكانتهم الدينية أملت عليهم أن يحيطوا باللغة وأدبها ، ليتخيروا التعبير الجيد الملائم للفكرة ، وليتفهموا النصوص ، ويغوصوا إلى أسرارها ، ولأنهم كانوا يمدون أنفسهم للانتصار في الجدل الدائر بينهم وبين اليهود والنصارى ، وبينهم وبين مخالفيهم من المسلمين ؛ وفي هؤلاء وأولئك أصحاب ديانات وأصحاب فلسفة .

لهذا كثر في المعتزلة العلماء والفلاسفة ، فكان منهم أساتذة المناظرة ، وأعلام الخطابة وحسن البلاغة وحضور البديهة ، وكان منهم رواة الشعر وجامعوه ، وكان بشر بن المعتمر أرواهم له [1] ، وله قصيدة من ألف بيت ضمنها عصارة علمه ، يحفظها ، وشهد الجاحظ أنه لم ير أحدا استطاع من النظم والنثر ما استطاعه بشر [2] ، وله قصيدتان أخريان [3]

كذلك كان للجاحظ حظه من الشعر الكثير لاستدلال به في مؤلفاته كلها ، وكان يستطيع نظمه

ولهم في وضع أصول البلاغة سبق لا ينكر ، منذ كتب بشر بن المعتمر وصيته للأدباء [4] ، ومنذ كتب الجاحظ فصولا في البلاغة منثورة في كتبه ولخصه بين و تبين

(١) الحيوان ٦/٤٠٥ (٢) نفسه والأمل ٣٠
(٣) الحيوان ٦/٢٨٤ — ٢٩٧
(٤) البيان والتبيين ١/١٣٥

ولهذا ازدهى الجاحظ ببلاغة المعتزلة في قوله: [1] «فإن عبر الخطيب عن شيء من صناعة الكلام، واصفاً أو محيياً أو مسائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحسن، وبها أشغف، لأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا كثيراً من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف، وقدوة لكل تابع، ولذلك وقع الغرض في كلامهم، والتباس وخلس، وقعوا بين الظلان والتلاشي، وذكروا هذيه وهوية وهويه [2] وأشباه ذلك»

وقد عني المعتزلة بالكشف عن وجوه الإعجاز البلاغي، فألف الخطابي (المتوفى سنة ٣٨٨هـ) كتاباً فيه سماه (بيان القرآن) لم يصل إلينا، وعني بالمعنى الرماني (٣٨٤) رسالة سماها (النكت في إعجاز القرآن) [3] وعد من سمعه أسباب لإعجازه منها: البلاغة، والعجز عن معارضته، والصرفة بمكاوه

ثم ألف أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي قاضي قضاة الدولة البويهية (٤١٥هـ) [4] كتابه (المغني في أبواب التوحيد والعدل [5]) تناول في الجزء السادس عشر منه إعجاز القرآن، فأرجعه إلى فصاحة الأسلوب.

ثم جاء الزمخشري فطبق في تفسيره آراء المعتزلة والأشعرية [6] إذ عرض

(١) البيان والتبيين ١/١٣٩
(٢) الهذيه نسبة إلى هذا، والهوية نسبة إلى هو، والهويه نسبة إلى ما هو
(٣) معجم الأدباء ١٤/٧٣ ونشرت الرسالة ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن
(٤) طبقات الشافعية ٣/١١٤
(٥) تنشره وزارة الثقافة والإرشاد القومي
(٦) ألف الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ كتابه إعجاز القرآن بين فيه وجوه الإعجاز التي يعتقدها هو وأصحابه الأشاعرة ورجعها إلى أسباب منها ما هو في البلاغة خاصة بالنظم أو التصوير، وقد طبع كتابه مرات.

ما ألفه سابقوه ، وتأثر بما كتبه عبد القاهر الجرجانى (٤٧١ هـ) فى كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) .

وكان من آثار هذا أنه عنى بعلوم البلاغة ، وبخاصة بالمعانى والبيان ، وكشف عن كثير من ألوانهما فى الآيات القرآنية ، وجلا أسرار ما فيها من روعة وجمال ، ليبين سر الإعجاز .

وقد نبه على هذه النزعة فى مقدمة الكشاف ، فقال : إن طبقات العلماء تتساوى وتتدانى فى متن كل علم وعمود كل صناعة ، ولكنهم يتفاوتون ويتفاضلون فى إدراك ما وراء العلوم والصناعات من محاسن النكت ، ولطائف المعانى ، وغوامض الأسرار .

ثم قال إن علم التفسير حاصل بما يعمر القرائح ، ويبهر الألباب ، من غرائب النكت ودقائق الأسرار ، ولهذا لا يستطيع أن يحيل النظر فيه كل ذى علم ، كما ذكر الجاحظ فى كتاب نظم القرآن ، فلعقبه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام ، ولمتكلم وإن برز أهل الدنيا فى صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار ، والواعظ الحلاب ، والنحوى المدقق واللغوى المتعمق ، لا يتصدى أحد منهم لسلوك تلك الطرائق ، إلا إذا كان بارعا فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، متمهلا فى ارتيادهما والتنقير عنهما ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، كثير التحقيق والحفظ[1] .. إلخ .

وتلاحظ أنه فرق بين علمى البيان والمعانى فى قوله[2] .. لا يتصدى منهم

(١) المقدمة ٣

(٢) أطلق ابن المعتز وقدامة بن جعفر وأبو هلال العسكرى وابن رشيق كلمة البديع على مباحث علم البيان ، فخلوا من البديع لاستعارة والمجاز والكناية والتعريض ، وهم لا يريدون علم البديع الذى يريدون بتعريف الخطيب ، وكذا عبد القاهر فى أسرار البلاغة إذ قال فى صفحة ١٣ «وأما ما يرجع إلى الطبع ... ولاستعارة وسائر أنواع البديع ... إلخ

أحد لسلوك تلك الطرائق ... إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة ، ونعب فى التنقير عنهما أزمنة .

وذكر هذه التفرقة فى مقدمة كتابه (أعجب العجب فى شرح لامية العرب) وفى مقدمة كتابه (أساس البلاغة)[1] .

والحق أن عبد القاهر الجرجانى كان يريد بالنظم علم المعانى أى الأسلوب ، وكان قد ردد فى كتابه أسرار البلاغة كلمة البيان ، فجاء الزمخشرى وأطلق علم المعانى وعلم البيان على ما يطلقان عليه اليوم ، وبهذا فصل العلمين بعضهما عن بعض .

أما علم البديع فهو فى رأى الزمخشرى تابع للمعانى والبيان ، وليس علما قائما بذاته .

وقد تأثر السكاكى (٦٢٦ هـ) برأى الزمخشرى ، فصله ودال عليه ، وفصله على غيره من الآراء[2] فقال : إن السبب فى الإعجاز هو ما يحسه أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، ولا طريق لك إلى هذا الأمر إلا طول خدمة هذين العلمين — المعانى والبيان — بعد فصل إلهى من هبة يهبه بحكمته من يشاء ، وهى النفس المستعدة لذلك ، فكل ميسر لما خلق له . ولا استبعاد فى إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه ، فلكم سجينا

(١) أما قوله بعد تفسير الآية الكريمة (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) هذا من الصنعة البديعية التى بلغ بها الذروة العليا ، وهو أن تشترى كلمة بمعنى تستبدل ، ثم تبنى على شاكلتها وأخواتها ، وهو المعنى الراجح (الكشاف ٢٩/١) فإنه لا يريد بالصنعة البديعة عين ما يريد كلهم بعض الدارسين

(٢) أرجع الزمانى وجوه الإعجاز إلى ستة : الأول ترك المعارضة مع توافر الدواعى وشدة الحاجة ، والثانى ... بحسب السكاكى ... الصرفة ، والرابع البلاغة ، والخامس الأنباء بالغيوب عن الأمور المستقبلة ، والسادس نقض العادة ، والسابع تأثير القرآن بكل معجزة [النكت فى إعجاز القرآن] ورجع ... البلاغة ... بالأمور السبعة ، والقصص الدالة وأخبار الأنبياء ، وجعل البلاغة أصلا لبحث (إعجاز القرآن)

الذيل فى إنكاره ، ثم صحصح الذيل ما إن نشكره ، فله الشكر على جزيل ما أولى ، وله الحمد فى الآخرة والأولى[1] .

وقال : ولاسبيل إلى إدراك هذه البلاغة وهذا الإعجاز إلا بالذوق والتشبع من علمى البيان والمعانى ، والإماطة اللثام عن الأسرار البلاغية لجلائها ، أما نفس وجه الإعجاز فلا يدرك[2] .

ثم تأثر به يحيى بن حمزة العلوى (٧٤٩ هـ) فقال فى مقدمة كتابه (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز) : إن الباعث على تأليف كتابه هو أن جماعة من الإخوان شرعوا فى قراءة كتاب الكشاف تفسير الشيخ العالم المحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشرى ، فإنه أسسه على قواعد هذا العلم ، فتضح عند ذلك وجه الإعجاز من التنزيل ، وعرف من أجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل ، وتحققوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه والوقوف على أسراره وأغواره ، ومن أجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير ، لأنى لم أعلم تفسيرا مؤسسا على المعانى والبيان سواه ، فسألنى بعضهم أن أملى فيه كتابا مشتملا على التهذيب والتحقيق ، فالتهذيب يرجع إلى اللفظ ، والتحقيق يرجع إلى المعنى ، إذ كان لامندوحة لأحدهما عن الثانى[3] .

ويحسب الزمخشرى من التقدير أن ابن خلدون أرجع تفوق المشارقة على المغاربة فى الدراسات البلاغية إلى أن المشرق أوفر عمرانا من المغرب ، وإلى عناية العجم - وهم معظم أهل المشرق — بعلوم البلاغة وبخاصة المعانى والبيان ، كما صنع الزمخشرى فى تفسيره لأنه كله مبنى على البلاغة ، وهو أصل لها .

(١) مفتاح العلوم ٢٤٣
(٢) مفتاح العلوم ١٩٦
(٣) الطراز ١/٥

ثم قال : واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هى فى فهم الإعجاز من القرآن . . . وأكثر المفسرين المتقدمين غفل عنه ، حتى ظهر الزمخشرى ووضع كتابه فى التفسير ، وتتبع آى القرآن بأحكام هذا الفن ، بما يبدى للعين من إعجازه ، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير ، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ، ولأجل هذا يتجاهاه كثير من أهل السنة ، مع وفور بضاعته من البلاغة[1] .

أما بعد فقد عرض الزمخشرى لمسائل بلاغية كثيرة فى توضيح وتفصيل وتجلية لأسرار الجمال ، وتنظير بآيات قرآنية أخرى ، وتمثيل بنصوص من الشعر البديع والنثر الرائع .

ولست أريد استقصاء ماعرض له ، بل أريد التمثيل ببعضه ، فمنه ما يتصل بعلم البيان ، ومنه ما يتصل بعلم المعانى .

(١) فى علم البيان

١ التشبيه

عرض للتشبيه المفرد فى آيات كثيرة ، منها قوله فى تفسير الآية الكريمة : « إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر »[2] : إنها ترمى بشر عظيم كالقصور أو كالشجر الغليظ أو مثل القَصَر — على وزن سبب — وهى أعناق الإبل أو أعناق النخل ، كأنه جمال تضرب إلى الصفرة .

وفى شعر عمران بن حِطّان الخارجى :

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم ... بمثل الجمال الصُّفْر زَعْزَعةُ الشَّوَى

(١) مقدمة ابن خلدون ١٢٦٥ (٢) سورة المرسلات ٣٢

وقال أبو العلاء :

حمراء ساطعة الذوائب فى الدُّجَى ترمى بكل شرارة كطراف

فشبهه بصاحب وهو بعيد لأنه فى العظم والحمرة، وكأنه قصد بحثه أن يزيد على تشبيه القرآن، ويتحققه أنه بعيد، فجاء فى صدر بيته بقوله حمراء، بوطئة لها، وممادة عليها، وتنبيها للسامعين على مكانه. ولقد عمى — جمع الله له عمى الدارين — عن قوله عز وعلا (كأنه جمالة صفر) فإنه بمنزلة قوله (كبيت أحمر) على أن فى التشبيه بالقصر وهو الحصن شيئا من جهتين من جهة العظم، ومن جهة الطول فى الهواء، وفى تشبيه الجمال شيئا من ثلاث جهات. من جهة العظم والطول والصفرة، فتعد الله إعرابه فى طرافه، وما نفخ به شدقيه من استطرافه»[1].

ولست أحد مبررا لهذه الحملة العنيفة على المعرى، لأنه شبه الشررة الكبيرة بالحيمة، والقرآن الكريم شبه الشرر بالجمال أو بالشجر العبيط أو بأعناق الإبل أو بجذوع النخل، وسواء أكان تشبيه المعرى جيدا أم غير جيد فإنه لا يدانى تشبيه يسامى تشبيه القرآن الكريم، ولا يستطيع أحد أن يدعى له ذلك.

٢ — تشبيه التمثيل :

عرض له فى قوله تعالى :« أولئكَ الذين اشتَرَوُا الضلالةَ بالهدَى فما رَبِحَت تجارتُهُم، وما كانوا مُهتدين. مثلُهم كمَثَلِ الذى استوقَدَ ناراً، فلمَّا أضاءت ما حولَه ذهبَ اللهُ بنُورِهم، وتركَهم فى ظُلُماتٍ لا يُبصِرُون، صُمٌّ بُكمٌ عُمىٌ فهُم لا يَرجِعُون. أو كصَيِّبٍ منَ السماء فيه ظُلُماتٌ ورَعدٌ وبَرقٌ، يجعلون أصابعَهُم فى آذانِهم من الصواعق حذرَ الموت، واللهُ محيطٌ بالكافرين[2]»

(١) الكشاف ٢/٥١٦ (٢) سورة البقرة ١٦ — ١٩

فقال : الصحيح الذى عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة، لا يتكلف لواحد واحد شىء يقدر شبهه به، وهو القول الفصل والمذهب الحرل.

وبيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض لم يأخذ هذا بحجزة ذاك، فتشبهها بنظائرها[1]، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى مثلها، كقوله تعالى «مثل الذين حُمِّلُوا التوراة ثم لم يَحمِلوها كمثل الحمار يحمل أسفارا»[2] العرض تشبيه حال اليهود فى جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار فى جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوى الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ماسواها من الأوقار، لا يشعر من ذلك إلا بما يمر بدفتيه — لما سوء من الكد والتعب.

وكقوله تعالى « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح[3] » شبه حالة بهجة الدنيا وزهرتها الدنيا كحالة بقاء الخضر.

فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد، غير منوط بعضها ببعض، ومصيرا شيئا واحدا.. فلا، فكذلك لما وصف وقوع المنافقين فى ضلالتهم، وما تخبطوا فيه من الحيرة والدهشة، شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها فى ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء فى الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق.

وذكر بعد ذلك أن التشبيه يجىء بأداة وبغير أداة.

(١) هذا هو التشبيه المفرد
(٢) سورة الجمعة ٥
(٣) سورة الكهف ٤٥

وفى تعليقه على الآيات نفسها ما يدل على أن التشبيه التمثيلى يطلق أيضا على تشبيه حال بحال، وهو ماسماه التمثيل[1] أو ضرب المثل، لأن المثل يشمل الحال والصفة والقصة، فإنه قال فى تفسير « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا »:

لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة فى الكشف وتتميما للبيان.

وتضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر، شأن ليس بالخفى فى إبراز خبيئات المعانى، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل فى صورة المحقق، والمتوهم فى معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبى، ولأمر ما أكثر الله فى كتابه المبين وفى سائر كتبه أمثاله، وفشت فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء. قال الله تعالى: « وتلك الأمثالُ نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون[2] »

والمثل فى أصل كلامهم بمعنى المِثل وهو النظير، يقال مثل ومثيل كشبه وشبيه وشبه[3]

فإن قلت: ما معنى مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً؟ وما مثل المنافقين؟ ومثل الذى استوقد ناراً حتى شبه أحد المثلين بصاحبه؟

قلت: قد استعير المثل استعارة الأسد للمقدام، للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل حالهم المحيية الشأن كحال الذى استوقد ناراً، وكذلك قوله تعالى « مثل الجنة التى وعد المتقون »[4].

أى وقع قصصهم عجيبا من بعض قصص الجنة العجيبة، ثم أخذ فى بعض عجائبها.

(١) ذكر فى شرحه لمفتاحه صفحة ١٥٦ أن الذى يسمى تمثيلا نحو قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) حيث حاله فى ذلك وإلى أنه يحسن موسوما على آخر موضع منه

(٢) سورة العنكبوت ٤٣

(٣) الكشاف ٣ ٥ ٤

(٤) سورة الرعد ٣٥

وقال فى تفسير قوله تعالى: « يوم نقول لجهنم هل امتلأت . وتقول هل من مزيد؟ »[1]:

إن سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذى يقصد به تصوير المعنى فى القلب وتثبيته، وفيه معنيان: أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها، حتى لا يسعها شىء، ولا يزاد على امتلائها، لقوله تعالى: « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »[2]

والثانى أنها تمتلئ حتى يدخلها من يدخلها وفيها موضع لمزيد[3]

وقد فرق السكاكى بين التشبيه والتمثيل، ورأى أن التمثيل هو ما كان وجهه وصفاً غير حقيقى ومنتزعاً من عدة أمور[4]

٣ - الاستعارة

عرض الاستعارة وفقا فى تفسير الآية الكريمة: « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى »: إن الضلالة الجور عن القصد، وفقد الاهتداء، استعير للذهاب عن القصد فى الدين[5].

وقال فى تفسير قوله تعالى: « ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون[6] »

أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكناها، لننظر أتعملون

(١) سورة ق ٣٠

(٢) سورة السجدة ١٣

(٣) الكشاف ٣ ٥ ٤

(٤) مفتاح العلوم ١٨٥

(٥) الكشاف ١/٢٩

(٦) سورة يونس ١٤

خيراً أم شراً ، فعاملكم على حسب أعمالكم ، والبصر هنا مستعار للعلم المحقق الذى هو العلم بالشىء الموجود ، شبه نظر الناظر وعيان المعاين فى تحققه .

ويصح من حيث اللغة فى الآية الكريمة « أضاءت لهم » فى قولهم لا مصروف ، أنه لا يصح الاستعارة إلا فى ما يصح أن يطلق عليه ، فلا بد فيها من حذف مشبه أو مشبه به ، لأنه يفترض ما لا يسوغ فى حقيقته فى لغة العرب .

ويجيب على هذا بأن الحكم مختلف فيه ، ولكن المحققين على تسميته مجازاً لأنه سببها طبقاً لا استعارة ، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون ، والاستعارة إنما تطلب حيث يطوى ذكر المستعار له ، ويجعل الكلام خلوا عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه أو المنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام ، كقول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف ... له لبد أظفاره لم تقلم

وليس لقائل أن يقول : طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ ، فتسلق بذلك إلى تسميته استعارة ، لأنه فى حكم المنطوق به ، نظيره قول من يخاطب الحجاج :

أسد على وفى الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر

وعرض للاستعارة المكنية فى قوله تعالى : « وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه[1] » فقال : النقض الفسخ وفك التركيب ، فما بالك من أين ساغ استعماله فى إبطال العهد ؟ قلت : من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة ، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين . . . ومن أسرار البلاغة ولطائفها أن تسكتوا عن ذكر الشىء المستعار ثم يرمزوا إليه

(١) سورة البقرة ٢٧

بذكر شىء من روادفه ، فتنبهوا بتلك الرمزة على مكانه ، ونحوه قولك شجاع مفترس أظفاره ، وعالم يغترف منه الناس ، لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر[1] .

ونبه إلى الترشيح فى الاستعارة فى تعقيبه على قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » فقال : إن قلت هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً فى معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح والتجارة ، كأن ثم مبايعة على حقيقة ؟

قلت : إن هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الدرجة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقفى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه وضاحة وأكثر ماء ورونقاً ، وهو المجاز المرشح . وذلك نحو قول العرب فى البيد : كأن أذنى قلبه خطلاوان — مستر خيتان — جعلوه كالحمار ، ثم رشحوا ذلك رومًا لتحقيق البلادة ، فادعوا لقلبه أذنين ، أو ادعوا لهما الخطل — الاسترخاء — ليمثلوا البلادة تمثيلا يلحقها بلادة الحمار مشاهدة معاينة فكذلك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيه وما يكمل وتتم بانضمامه إليه ؛ تمثيلا لخسارهم وتصويرا لحقيقته[2] .

كذلك عقب على الآية الكريمة : « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم » بأن النار يصح أن تكون مجازية كنار الفتنة والعداوة للإسلام ، ويصح أن تكون ناراً حقيقية أوقدها العواد ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصى ، فأطفأها الله . وجاز فى النار المجازية أن توصف بإضاءة ما حول المستوقد على طريقة المجاز المرشح فما حسن مذهبه[3] .

(١) الكشاف ١/٤٨
(٢) الكشاف ١/٢٩
(٣) الكشاف ١/٣١

وقد ذكره السكاكى فى شرحه الاستعارة فى قوله تعالى: « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون[1] » وزاد عليه أن الكلام يحتمل أن يكون على الحقيقة[2].

٤ — الكناية

ذكر الكناية، وفرق بينها وبين التعريض[3]، فالكناية فى رأيه أن تذكر الشىء بغير لفظه الموضوع له، كقولك طويل النجاد والحمائل لطويل القامة.

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شىء لم تذكره، ويسمى التلويح، لأنه تلوح منه ما يريده[4].

قال فى تفسير الآية الكريمة « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم »[5]: هو أن يقول: إنك لجميلة، أو صالحة، أو نافعة، ومن غرضى أن أتزوج، وعسى الله أن ييسر لى امرأة صالحة. ولا يصرح بالنكاح ... فإن قلت: أى فرق بين الكناية والتعريض؟

قلت: الكناية أن تذكر الشىء بغير لفظه الموضوع له، كقولك طويل النجاد والحمائل لطويل القامة، وكثير الرماد للمضياف.

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شىء لم تذكره، كما تقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا.

(١) سورة النحل ١١٢ والكشاف ٢/٣٧٠.
(٢) مفتاح العلوم ٢٠١
(٣) جعل الزمخشرى كل نوع من هذه مستقلا عن الآخر، على حين أن السكاكى أدخل فى الكناية التعريض والتلويح والإيماء (مفتاح العلوم ٢١٨)
(٤) الكشاف ١/١١١
(٥) سورة البقرة ٢٣٥

وحسبك بالتسليم على قصبة

وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على العرض، ويسمى التلويح، لأنه تلوح منه ما يريده[1]

وقال فى تفسير قوله تعالى: « الرحمن على العرش استوى[2] »

لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك، فقالوا استوى فلان على العرش، يريدون تملك، وإن لم يقعد على السرير البتة، وقالوا أيضاً لشهرته فى ذلك المعنى ومساواته ملك فى مؤداه، وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر[3]

وقال فى تفسير قوله تعالى: « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم، ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان، ينفق كيف يشاء[4] »

على اليد والبسط مجاز عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى: « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط[5] »: ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة، حتى إنه يستعمله فى ملك لا يعطى عطاء قط، ولا يعلمه إلا بإشارته، من غير استعمال يده وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا: ما أبسط يده بالنوال، لأن

(١) ٢ ب ١١١/١
(٢) سورة طه ٥
(٣) الكشاف ٢/ ٣
(٤) سورة المائدة ٦٤
(٥) سورة الإسراء ٢٩

بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود، وقد استعملوهما حيث لا يصح اليد كقوله:

جاد الحيا نُسُط اليدين يوابل شكرت نداه قلاعه ووهاده

ولقد جعل لبيد يشكر بذلك فقال: إذ أصبحت بيد الشمال زمامها.

ويقال بسط اليأس كفيه في صدري، فجعلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفين. ومن لم يبصر في علم البيان عجز عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية[1].

وقال في تفسير قوله تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد[2]»: هذا مجاز، والمراد قرب علمه منه، أي يتعلق بأحواله تعلقاً لا يخفى عليه فيه شيء من خفياته، فكأن ذاته قريبة منه، كما يقال الله في كل مكان، وقد جل عن الأمكنة[3].

وقال في تفسير الآية الكريمة: «إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، وقال الإنسان: مالها؟ يومئذ تحدث أخبارها، بأن ربك أوحى لها[4]»: فإن قلت ما معنى تحديث الأرض والإيحاء له؟

قلت: هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان، حتى ينظر من يقول مالها إلى تلك الأحوال، فيعلم أن زلزلت، وأخرجت الأثقال، وقال الإنسان: مالها، كل ذلك بإحداث الله تعالى فيها ما كانت الأنبياء يخبرون به ويحذرون منه.

وقيل يبطقها على الحقيقة، وتخبر عما عمل عليها من خير وشر[5].

وقال في تفسير الآية الكريمة: «قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين[6]»:

(١) الكشاف ١/٢٦٤ (٢) سورة ق ١٦
(٣) الكشاف ٢/٤٠٢ (٤) سورة الزلزلة ١ — ٥
(٥) الكشاف ٢/٥٥٦ (٦) سورة يوسف ٤٤

أضغاث الأحلام تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفسي أو وسوسة شيطان، وأصل الأضغاث ما جمع بين اختلاط النبات وحزمه، والواحد ضِغْث، فاستعيرت لذلك[1].

وقال في الأساس: الضغث القبضة من قضبان صغار أو حشيش بعضه في بعض، وضَغَثه جعله أضغاثاً. ومن المجاز: هذه أضغاث أحلام، وهي ما التبس منها، ويقال للمحال: أضغثت رؤياك حتى ما هي بمستقيمة وضغث حديث حلطه[2].

٥ — المجاز المرسل

هو كل كلمة استعملت في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، ومن علاقاته السببية والمسببية والجزئية والكلية والمحلية والحالية وغير ذلك مما سيكون موضع عرض وبحث في كثير من الأبواب.

ومن في تفسير قوله تعالى: «فإن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى»[3]

في هذه العبارة لنهي من لا يؤمن عن صد موسى، والمقصود نهي موسى عن التكذيب بالبعث، أو أمره بالتصديق، فكيف صحت هذه العبارة لأداء المقصود؟

قلت: فيه وجهان أحدهما أن في صد الكافر عن التصديق بها سبب التكذيب، فذكر السبب ليدل على المسبب، والثاني أن صد الكافر سعى في دعوة الرجل

(١) الكشاف ٢/٤٧٣ (٢) أساس البلاغة مادة ضغث
(٣) سورة طه ١٥ — ١٦

في ... وبين كلامه ... سبب ... على السبب ... كقوله ... ثك ... عد ... ده ... ، وذلك سبب ... ، فكل ذكر سبب ... على السبب ... فيه ... ، فكل شدة ... الكلمة حتى لا ... منك لمن تكفر بالنعمة أن يطمع في صدك عما أنت عليه[1].

وقال في تفسير الآية الكريمة «كل شيء هالك إلا وجهه[2]»:

كل شيء ... إلا إياه ، والوجه يعبر به عن الذات[3].

وقال في تفسير قوله تعالى «كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام[4]»: ... وجه يعبر به عن الجملة والذات، وما كان منكم عرضة لأن يوجه عرضة للفناء فهو ...[5].

٦ - المجاز العقلي

هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، لعلاقة مع قرينة مانعة من ... الإسناد الحقيقي وهو أن يكون إلى سبب الفعل أو ... أو مكانه أو مصدره أو ... إسناد المبني للفاعل إلى المفعول أو المبني للمفعول إلى الفاعل . وقد اعتمد الزمخشري على هذا المجاز كثيرا في تأويل الآيات المتصلة بحرية العبد واختياره وفقا لمذهب المعتزلة.

فقال في الآية الكريمة «يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا[6]»: في إسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب، لأنه ... مثل ... قوله وهدى قوم ... فأضلهم وهداهم ، وعن ... من ... رحمه الله أنه دخل على محبوس فقد أحدث عليه وقيد ، فقال : يا أبا يحيى ما ترى ... من القيود؟ فرفع ... رأسه ، فرأى سقفا ، فقال : من هذه السقوف ؟

(١) ... ٢ ف ٢٢

(٢) سورة القصص ٨٨ (٣) الكشاف ٢/١٧٣

(٤) سورة الرحمن ٢٦ (٥) الكشاف ٢ ٤٢٠

(٦) سورة المدثر ٣١

فقال الرجل : لي ... فتحويها تنزل ، فإذا دجاج وأخيصة[1]، فقال مالك : هذه وضعت القيود على رجلك[2].

وقال في تفسير قوله تعالى «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين[3]» أسند الخسران إلى التجارة ، وهو لأصحابها على طريقة الإسناد المجازي ، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له ، كما تسند التجارة لمشترين

فإن قلت هل يصح رجع عودته وخسرت تجارته إلى الإسناد المجازي؟ قلت: نعم إذا دلت الحال ، وكذلك الشرط في صحة رأيت أسدا ، وأنت تريد الغلام ، إن لم تقم حال دالة لم يصح

وقال في تفسير قوله تعالى: «الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار[4]»

(١) في الأفعال الثلاثة : إما موصولة . وإما مصدرية ، فإن كانت موصولة فالمعنى أنه يعلم ما تحمله من الولد على أي حال من ذكورة وأنوثة ... ويعلم ما تغيضه الأرحام ، أي تنقصه ، يقال غاض الماء ، وغضته أنا ، ويعلم ما تزداده أي تأخذه زائدا ، ومنه قوله تعالى: «وازدادوا تسعا[5]».

وإن كانت مصدرية فالمعنى أنه يعلم حمل كل أنثى ... وغيض الأرحام وازديادها ويجوز أن يراد غيض ما في الأرحام وزيادته ، فأسند الفعل إلى الأرحام ، وهو لما فيها[6].

(١) أخيصة : جمع خيص وهو المعمول من السعف والخوص.

(٢) الكشاف ١/٤٧ (٣) سورة البقرة ١٦

(٤) سورة الرعد ٨ (٥) سورة الكهف ٢٥

(٦) الكشاف ١ ٤٨٩

٢ — فى علم المعـــانى

تدارل كثيرا من موضوعات علم المعانى ، مثل :

١ — القصر

قال فى تفسيره لقوله تعالى «وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون » [١]

إنما القصر الحكم على شىء ، كقولك إنما ينطلق زيد ، أو قصر الشىء على حكم كقولك إنما زيد كاتب ، ومعنى « إنما نحن مصلحون » أن صفة المصلحين خصت لهم وتمحضت من غير شائبة قدح فيها [٢] .

وقد رد الله عليهم أبلغ رد فى قوله : «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» لما فى ألا من التأكيد ، وتعريف الخبر ، وتوسيط الفصل — الضمير هم .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » [٣] . قدم المفعول لقصد الاختصاص ، كقوله تعالى : « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » [٤] : والمعنى نخصك بالعبادة ونخصك بطلب المعونة .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » [٥] . اختص هداهم بالاقتداء ، أى لا تهد إلا بهم ، وهذا معنى تقديم المفعول ، والمراد بهداهم طريقهم فى الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة [٦]

---

(١) سورة البقرة ١١ ، ١٢ (٢) الكشاف ١ / ٢٦
(٣) سورة الفاتحة ٤ (٤) سورة الزمر ٦٤
(٥) سورة الأنعام ٩٠ (٦) الكشاف ١ / ٣

وقال فى تفسير قوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » [١]

تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره ، وهذا معنى تقديم المفعول ، ألا ترى إلى قوله : « إلى ربك يومئذ المستقر » [٢] .

و : « إلى ربك يومئذ المساق » [٣] .

و : « إلى الله تصير الأمور » [٤] .

و : « إلى الله المصير » [٥] .

و : « إلى الله ترجعون » [٦]

و : « عليه توكلت وإليه أنيب » [٧] .

كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص [٨] .

٢ — الفصل والوصل

عرض لها [٩] ، فقال فى تفسير قوله تعالى : « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » [١٠] الذى هو أرسخ فى البلاغة عرقا أن يضرب عن هذه المحال صفحا يريد المحال المعونة — وأن يقال إن قوله (الم) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، و« ذلك الكتاب » جملة ثانية ، و« لا ريب فيه »

---

(١) سورة القيامة ٢٢ (٢) سورة القيامة ١٢
(٣) سورة القيامة ٣٠ (٤) سورة الشورى ٥٣
(٥) سورة النور ٤٢ (٦) سورة القصص ٧
(٧) سورة هود ٨٨ (٨) الكشاف ٢ / ٥
(٩) اعتبره من علم البيان كما صرح بذلك فى الكشاف ١ / ٤٠٢
(١٠) سورة البقرة ١

[illegible] وقد أصيب بترتيب معصل لا [illegible] وموجب [illegible] حيث جيء [illegible] هكذا من غير حرف عطف، وذلك يجيء [illegible]

[illegible] لآية الكريمة «قالوا [illegible] معكم، إذ جاءتهم رسلهم»[1]

[illegible] توكيد الأولى، لأن فحواها [illegible] معكم، فهو [illegible] لنفوذ على [illegible] وفحواها [illegible] من مسلم أن مراد [illegible] وقع [illegible] لأن مستهزئ [illegible] يعتقد به منكر له، أو يدل منه، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر [illegible] يعتقدون أنهم [illegible] حين قالوا لهم إنا معكم، فقالوا: أتكم لكون على [illegible] تواقعون أهل الإسلام؟ فقالوا: إنما نحن مستهزئون[2].

[illegible] الجملة الثانية مؤكدة للأولى، أو بدل منها، أو استئناف، أو جواب عن سؤال مقدر، وهذه الأساليب هي التي سماها علماء البلاغة الفصل لكمال الاتصال أو لشبه كمال الاتصال.

وفي تفسير قوله تعالى «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون»[3]:

فإن قلت: «والذين يؤمنون» غير الأولين أم هم الأولون؟ وما وسط العاطف، كما وسط بين الصفات في قولك هو الشجاع والجواد وفي قوله.

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

(١) الكشاف ١/١٦
(٢) سورة ١٥ الآية ١٤
(٣) الكشاف ١/٢٨
(٤) سورة البقرة ٢ ـ ٤

قلت: يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه، فيكون المعطوف غير المعطوف عليه، ويحتمل أن يراد وصف الأولين، ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه[1].

٣ — التوكيد

قال في تفسير قوله تعالى «واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما، فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون. قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا، وما أنزل الرحمن من شيء، إن أنتم إلا تكذبون، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون»[2].

فإن قلت: لم قيل «إنا إليكم مرسلون» أولا و «وإنا إليكم لمرسلون» آخرا؟ قلت: لأن الأول ابتداء إخبار، والثاني جواب عن إنكار، وقوله «يعلم» جرى مجرى القسم في التوكيد[3].

والمعروف في علم المعاني أن الخبر إن كان خاليا الذهن لا يؤكد، فإن كان [illegible] يؤكد واحدا، فإن كان لمنكر أكد بمؤكدين أو أكثر.

فهل أراد الزمخشري بالخبر الأول أنه خالي الذهن؟ لا، لأن الرسل إليهم كانوا في شك من صدق الرسل، ولكنه أراد بقوله إن الأول ابتداء إخبار أي بالنسبة لهؤلاء الشاكين.

٤ — التقديم للتأخير

قال في تفسير الآية الكريمة: «قل أغير الله أتخذ وليا»[4].

(١) الكشاف ١/١٨
(٢) سورة يس ١٣ — ١٦
(٣) الكشاف ٢/٢٤٩
(٤) سورة الأنعام ٩

إن «غير الله» وليت همزة الاستفهام دون الفعل (أتحد) لأن الإنكار في اتخاذ غير الله وليا، لا في اتخاذ الولي، فكان أولى بالتقديم [1]

ونحوه: «قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون» [2]

والتقديم هنا للاهتمام بسبق المنكر.

وقال في قوله تعالى: «ذلك الكتاب لا ريب فيه» [3] بعد الوقف على ريب كما وقف عليه من وقف على قوله تعالى «لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون» [4]. لأن القصد في إيلاء ريب حرف النفي في ريب عنه، إنما هو أن يحمل وصدق لا باطل وكذب، كما كان المشركون يدعون، ولو جاء الوقف بعد حرف النفي لبعد النفي عن المراد، وهو أن كتابا آخر فيه الريب لا هذا الكتاب، كما قصد في قوله «لا فيها غول» تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا لا نفي العقول كما تفعله هي، كأنه قيل ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والمنقصة» [5]

وقال في تفسير قوله تعالى: «وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله» [6]:

إن الفرق بين ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم، وبين الظن الذي جاء عليه أن في تقديم الخبر على المبتدأ دلالة على شرط وثوقهم بحصانتها ومنعتها إياهم، وفي عصر ضميرهم مرتين لأن هذا يؤيد خبر إنهم، ويدل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يرام معها أحد بتعرض لهم، وليس ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم [7].

---

(١) الكشاف ١/٢٨٥
(٢) سورة الزمر ٣٩
(٣) سورة البقرة ٢
(٤) سورة الصافات ٤٧
(٥) الكشاف ١/١٥
(٦) سورة الحشر ٢
(٧) الكشاف ٢/٤٤٥

٥ — الحذف

قال في تفسير قوله تعالى: «فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون» [1]:

إن مفعول تعلمون متروك، كأنه قيل وأنتم من أهل العلم والمعرفة، والتوبيخ فيه أوكد، أي أنتم العارفون، المميزون، ثم بين ما أمر به ونهى عنه في أمر دينكم من جعل الأصنام لله أندادا هو عليه حمق ومما يقضي العقل، ويحور أن تقدر وأنتم تعلمون أنه لا ند له، أو وأنتم تعلمون قبحه وبعده من التعوت، أو أنتم تعلمون أنهم لا فعل لشيء فضلا عن أفعاله، كقوله «هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء» [2]

وقال في تفسير قوله تعالى «والضحى والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى» [3]

حذف الضمير من بلى كحذفه من «والذاكرين الله كثيرا والذاكرات» [4].

يريد والذاكرته، ونحوه فآوى، فهدى، فأغنى، وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف [5]

٦ — الالتفات

عرض للالتفات [6]، فقال في الآية الكريمة «إياك نعبد وإياك نستعين» فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟

---

(١) سورة البقرة ٢٢
(٢) الكشاف ١/٣٨
(٣) سورة الضحى ١
(٤) سورة الأحزاب ٣٥
(٥) الكشاف ٣/٤٩٠
(٦) يعبر الالتفات من علم البيان ويعتبره اللاغيون بعضه من علم المعاني

قلت: هذا يسمى الالتفات فى علم البيان، وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم ، كقوله تعالى: « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم[1] » ، وقوله تعالى : « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه[2] »

وقد التفت امرؤ القيس ثلاثة التفاتات فى ثلاثة أبيات :

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلى ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة كليلة ذى العائر الأرمد[3]

وذلك من نبأ جاءنى وخبرته عن بنى الأسود

وذلك على عادة افتنانهم فى الكلام ، وتصرفهم فيه ، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد . وقد تختص مواقعه بفوائد ، ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الخليق بالحمد ، وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالقطع وغاية الخضوع والاستكانة به فى المهمات ، فخوطب ذلك المعلوم ، التفت تلك الصفات ، فقيل إياك يا من هذه صفته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ، ولا نستعينه ، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التمر الذى لا تحق العبادة إلا له[4] .

ومما يدل على تأثر السكاكى بالزمخشرى أنه عرف الالتفات بأنه نقل الكلام من الحكاية والتكلم والخطاب والغيبة إلى واحد منها ، وقال إن العرب يستكثرون منه ، ويرون أن الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب

(١) سورة يونس ٢٢ (٢) سورة فاطر ٩

(٣) العائر كل ما أمرض العين والرمد والقذى فى الجفن الأسفل

(٤) الكشاف ٢/٨

[illegible]

[illegible] محمرى

[illegible] أصح إلى قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » بعد تلاوتك لما قبله. تعرف موقعه، وكيف أصاب المحز ، وطبق مفصل البلاغة، لكونه منها على أن العبد لنعم عليه بتلك النعم العظام الفائقة للحصر إذا قدر أن يثنى على من هو مولى الحق إذا أحب فى القرب أن تكون ثناؤه على وجه يليق بعظمة شأنه تحرى به الإنس على من يحمد[1]

٧ التعبير بالمضارع عن الماضى

[illegible]

[illegible] تحكى حال الريح وهى تثير السحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة بما فى المضارع من الدلالة ، وهكذا يفعلون فيما هو مبنى على الخطاب أو الغيبة أو غير ذلك، كما قال أبو شراعة

وإن امرأ غرت لعوب تثوى بشهب كالصحيفة صحصحان[3]

(١) مفتاح العلوم ٧ أ .

(٢) سورة فاطر ٩

(٣) ثوى حبس وحز وشهب : بلاد مختلفة ، وأرض مستوية .

وأُضْرِبُها بلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ صريعاً لليدين وللجِرانِ[1]

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها نزعه على ضرب العول، كأنه يبصرهم إياها، ويطلعهم على كنهها، مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدة. وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها، ما كان من الدلائل على القدرة الباهرة قبل (فسقناه) (وأحيينا) معدولا بهما عن نقطة الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه[2].

وقد نقل السكاكي ما قاله الزمخشري تعقيباً على هذه الآية[3].

٨ — التعبير بالماضي عن المستقبل

قال في تفسير الآية الكريمة: «أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه[4]» «هم كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم، فقيل لهم «أتى أمر الله» الذي هو بمنزلة الآتي الواقع، وبين كل منتظر لك وقوعه[5]

وقال في الآية الكريمة: «ويوم يُنفَخُ في الصُّورِ ففزِعَ من في السموات ومَن في الأرض إلا مَن شاء الله[6]»: إنه عبر بالماضي لمكنته، وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به، والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون[7]

(١) الجران: مقدم عنق البعير.
(٢) الكشاف ٢، ٢٣٩
(٣) مفتاح العلوم ١٣٣
(٤) سورة النحل ١
(٥) الكشاف ١/٥١٩
(٦) سورة النمل ٨٧
(٧) الكشاف ٢/١٥٣

٩ — الجملة الاسمية والفعلية

ذكر أن الجملة الاسمية والفعلية تدل على الدوام والاستمرار، والجملة الفعلية تدل على التجدد.

قال في تفسير الآية الكريمة: «يا أيها الناس اتقوا ربكم، واخشوا يوما لا يَجْزي والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئا»[1]: إن الجزء الثاني من الآية وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه الجزء الأول، لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية، والسبب في مجيئه على هذا النحو أن الخطاب للمؤمنين، وعليهم قبض آبائهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي، فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة، وأن يشفعوا لهم، وأن يغنوا عنهم من الله شيئا، فلذلك جيء به في الطريق الآكد[2].

وقال في تفسير الآية الكريمة: «وإذا خلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، الله يستهزئ بهم[3]»:

فإن قلت: فهلا قيل: الله مستهزئ بهم طبقا لقوله إنما نحن مستهزئون؟

قلت: لأن يستهزئ يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتاً بعد وقت، وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم[4].

(١) سورة لقمان ٣٣
(٢) الكشاف ٢/١٩٩
(٣) سورة البقرة ١٥
(٤) الكشاف ١/٢٨.

٣ — فى علم البديع

١ - الجناس:

قال فى تفسير قوله تعالى: «وجئتك من سبأ بنبإ يقين»[١]: إن هذا من جنس الكلام الذى سماه المحدثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذى يتعلق باللفظ، بشرط أن يجىء مطبوعا، أو يصممه عالم بجوهر الكلام، يحفظ معه صحة معنى وسدده

ولقد جاء هاهنا زائدا على الصحة، فحسُن وبدُع لفظا ومعنى. ألا ترى أنه لو وضع مكان (بنبإ) بخبر لكان المعنى صحيحا، ولكنه كما جاء أصح، لما فى النبأ من الزيادة التى يطابقها وصف الحال[٢].

وقال فى تفسير الآية الكريمة «وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى»[٣]: إن علماء البيان استفصحوا هذه الآية، ورقصوا لها رءوسهم، لا لتجانس الكلمتين وهما ابلعى وأقلعى، وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن فهو كغير ما نعت به بإزاء المحاسن التى هى اللب وما عداها قشور، وقد بين محاسن الآية[٤]

٢ — الطباق

فى الآية الكريمة «ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون[٥]» ذكر السفه وهو الجهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقا له[٦].

(١) سورة النمل ٢٢ (٢) الكشاف ٢/١٥٢
(٣) سورة هود ٤٤ (٤) الكشاف ١/٤٤١
(٥) سورة البقرة ١٣ (٦) الكشاف ١/٢٧

٣ — تأكيد المدح بما يشبه الذم

قال فى تفسير قوله تعالى: «وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد»[١]: وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان، كقوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وقال ابن الرقيات

وما نقموا من بنى أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا[٢]

٤ — اللف والنشر:

هو ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من آحاد هذا المتعدد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرد كل شىء إلى ما هو له، معتمداً على قرينة لفظية أو معنوية.

ذكر عند تفسير قوله تعالى: «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدًى للناس وبيِّنات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمْه، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر، يريد الله بكم اليُسر، ولا يريدُ بكم العسر، ولتكملوا العدة، ولتكبروا الله على ما هداكم، ولعلكم تشكرون»[٣]

إن قوله تعالى (لتكملوا) عدد الأمر بمراعاة العدة، و(لتكبروا) علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدته عطف عليه، (ولعلكم تشكرون) علة الترخيص والتيسير، وقال إن هذا نوع من اللف لطيف المسلك، لا يكاد يهتدى إلى تبيينه إلا النقّاب المحدث من علماء البيان[٤].

(١) سورة البروج ٨
(٢) الكشاف ٢/٥٣٥
(٣) سورة البقرة ١٨٥
(٤) الكشاف ١/٨٩

• — المشاكلة

هى ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، نحو قول الشاعر .

قالوا اقترح شيئا نُجِدْ لك طبخه قلت اطبخوا لى جُبَّة وقميصا

أى خيطوا ، وذكر خياطة الجبة بلفظ الطبخ لوقوعها فى صحبة طبخ الطعام . ومنه قوله تعالى : « تَعْلَمُ ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى ، لوقوعه فى صحبة نفسى .

وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره للآية الكريمة : « إن الله لا يَسْتَحِى أن يَضْرِبَ مثلاً مّا بعوضةً فما فوقها » [1] أنه يجوز أن يقول الكفرة : أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ؟ فجاءت على سبيل المقابلة ، وإطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلامهم بديع ، وطراز عجيب ، منه قول أبى تمام :

من مبلغ أفناء يَعْرُبَ كلها أنّى حَلَلْتُ الجارَ قبلَ المنزلِ

وشهد رجل عند شُرَيْح فقال : إنك لتسْبِط الشهادة ، فقال الرجل : إنها لم تجمد عندى . فقال لله بلادك ، وقبل شهادته . فالذى سوغ بناء الجار ، وتحميد الشهادة هو مراعاة المشاكلة ، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار ، ولولا سيوطة الشهادة لامتنع تجميدها . ولله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشُعَبِها ، لا تكاد تستعرف منها فنًّا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه ، وأسد مدارجه [2] .

وقال فى تفسير الآية الكريمة : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » [3] :

(١) سورة البقرة ٢٦
(٢) الكشاف ١/٤٥ (٣) سورة المائدة ١١٦

المعنى تعلم معلومى ، ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة ، وهو من فصيح الكلام وبليغه [1] .

وقد نقل كلام الزمخشرى بهاء الدين السبكى فى كتابه (عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح) [2] .

(١) الكشاف ١ ٢٨١
(٢) شروح التلخيص ٤/٣١٢

ثامنًا - تعليل وتمحيص

١ — [illegible] معتز في ذكي ممن مرنوا على الجدل والمحاجة، واستكنه ما وراء الصواهر، وهو أديب ذوافة، قدير على التعبير عما يختلج بنفسه، وهو إلى هذا كله غيور على الإسلام، غيور على القرآن، لا يألو جهدا في الدفاع عنهما، ولا يدع تعليلا موصولا بتفسير الآية أو تأويلها إلا ذكره

[illegible] هو متشابه عن وصف أهل الجنة كما قال: ﴿وأتوا به متشابها﴾، ولهم فيها أزواج مطهرة، وهم فيها خالدون» (١).

قال: فإن قلت: لأي غرض تتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة؟ وما بال ثمر الجنة لم يكن أجناسا أخر؟

قلت: لأن الإنسان يتألوف آنس، وللمعهود أميل، وإذا رأى مالم يألف نفر عنه طبعه، وعافته نفسه، ولأنه إذ ظهر شيء من جنس ما سلف له به عهد، وتقدم له معه إلف، ورأى فيه مزية ظاهرة، وفضيلة بينة، وصفوتا بينه وبين ماعهد، أفرط ابتهاجه واغتباطه، وطال استعجابه واستغرابه، وتبين كنه النعمة فيه، وتحقق مقدار الغبطة به. وإن كان جنسا لم يعهده — وإن كان فائقا — حسب أن ذلك لجنس لا يكون إلا كذلك، فلا يتبين موقع النعمة حق التبيّن.

(١) سورة البقرة ٢٥

وتردیدهم هذا القول وطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها، دليل على تناهي الأمر، وتمادي الحال في ظهور المزية وتمام الفضيلة، وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذي حملهم على تعجبهم، واستدعى تعجبهم في كل أوان (١).

وفي تفسير قوله تعالى: «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام (٢)».

قال (٣): فإن قلت: لم يأتيهم العذاب في الغمام؟ قلت: لأن الغمام مظلة الرحمة، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أتم، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير؟

لذلك كانت الصاعقة من العذاب [illegible] لجنسها من حيث موقع نعمة، ومن هذا عدّ المفكرين في كتاب الله قوله تعالى: «وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (٤)».

وقال في تفسير قوله تعالى: «يوصيكم الله في أولادكم، للذكر مثل حظ الأنثيين (٥)» فإن قلت [illegible] ولأي وصف حظ الذكر؟

قلت: ليبدأ ببيان حظ الذكر لفضله، كما ضوعف حظه لذلك، ولأن قوله (للذكر مثل حظ الأنثيين) قصد إلى بيان فضل الذكر، وقوله للأنثيين مثل حظ الذكر قصد إلى بيان نقص الأنثى، وما كان القصد منه بيان فضل الذكر أدل على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره عنه، ولأنهم كانوا يورثون الذكور

(١) الكشاف ١/٤٤
(٢) سورة البقرة ٢١٠ (٣) الكشاف ١/٩٩
(٤) سورة الزمر ٤٧ (٥) سورة النساء ١١

دون الإناث ، وهو السبب لورود الآية ، فقيل كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث ، فلا يتعدى في حرمانهن مع إدلائهن من القرابة مثل ما أدلى به الذكور [1] .

وقال عند تفسير قوله تعالى «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم [2]» لا تسبوا لآلهة الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عدوا بغير علم ، وقرئ «عدوا» وهما لغتان كالعرب والعرب ، وقيل كان المسلمون يسبون آلهتهم ، فنهوا ، لئلا يكون سببا لسب الله سبحانه .

فإن قلت : سبب آلهتهم حق وطاعة ، فكيف صح النهي عنه ، وإنما يصح النهي عن المعاصي ؟

قلت رب طاعة علم أنها تكون مفسدة ، فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهي عنها لأنها معصية ، لا لأنها طاعة ، كالنهي عن المنكر ، وهو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر انقلب معصية ، ووجب الكف عنه كما يجب الكف عن المنكر .

فإن قلت : فقد روي عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا جنازة ، فرأى محمد نساء فرجع ، فقال الحسن : لو تركت الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك في دينك .

قلت : ليس هذا مما نحن بصدده ، لأن حضور الرجال الجنازة طاعة ، وليس كذلك حضور النساء ، فإنهن يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا ، بخلاف سب الآلهة ، وإنما حيل إلى محمد أنه مثله حتى نبهه عليه الحسن [4] .

(١) الكشاف ١/١٩٤ (٢) سورة الأنعام ١٠٨
(٣) سورة الأنبياء ٩٨ (٤) الكشاف ١/٥ ٣

٢ وهو معتزلي يحتكم إلى العقل ، ويستند إلى التفكير في تخصص مدرسته وما تسمح ، فني رؤية الناس للجن ، ورفض الحسد على أنه قد ورد في الحث على التأثير في المحسود ، ولم يصدق السحر بمعنى التأثير في المسحور ، ونفى مدرسته السحر .

قال في تفسير قوله تعالى «إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم [1]» : دلت هذه الآية على أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم ، وأن زعم من يدعي رؤيتهم زور ومحرقه [2] .

وقال في تفسير قوله تعالى : «ومن شر حاسد إذا حسد [3]» يريد شر حسده وعمل بمقتضاه من عين أو سحر مكروه ، لأنه إذا لم يضر المحسود فما أضر إلا نفسه فلا ضرر يعود منه على من حسده ، بل هو الضار لنفسه ، لاغتمامه بسرور غيره . وعن عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد .

ويجوز أن يراد شر الحاسد إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهاره أثره [4] .

وقال في تفسير آية أخرى : «ومن شر النفاثات في العقد [5]» .

النفاثات النساء أو النفوس أو جماعات السواحر اللاتي يعقدن عقدا في خيوط ، ويتفلن عليها ويرقين ، والنفث النفخ مع ريق

ولا تأثير لذلك ، اللهم إذا كان إطعام شيء ضار ، أو سقيه ، أو شمه ،

(١) سورة الأعراف ٢٧ (٢) الكشاف ١/٣٢٤
(٣) سورة الفلق ٥ (٤) الكشاف ٢/٥٦٨
(٥) سورة الفلق ٤

أو مباشرة المحظور به على بعض الوجوه . ولكن الله قد جعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذى يتميز به المثبت على الحق من الحشوية والجبهة من القدرية ، فيسمه حشوه ويرجع إلى نفسه ، والثانون بالقول الثالث لا يسلمون بى ذلك ، ولا هم ولا به

فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟

قلت فيها ثلاثة أوجه : أحدها أن يسعه من فتنهن الذى هو صنعه السحر أو من إثمهن فى ذلك . والثانى أن يسعه من فتنهن بالسحر ومايحدثن به من باطلهن . والثالث أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن ويعوذ [illegible] الكيدات من قوله [illegible] كيدهن عظيم »[1] ، لشدة كيدهن السحر والغث فى العقد ، أو لأن نفثهن رجز تتعرضهن به ، ورجسهن يحسبن [illegible] سحرهن به[2]

٣ — وكثيراً ما يخص الأحبار والقراء التى ذكرها سابقوه تمحيصاً دلا على قلة علمه ، وحرصه على نقاء العقيدة وتصفيتها من شوائب الإسرائيليات والأساطير

وفسر قوله تعالى فى سورة يوسف : « ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه »[3] تفسيراً معضلا انتهى إلى أنها همت بمخالطته وهم بمخالطتها ، لولا أن رأى برهان ربه

ثم ذكر ما قاله سابقوه من المفسرين ، فقال إن بعضهم فسر همّ يوسف [illegible] به حل بإزاره ، وجلس منها مجلس المجامع ، ورآه جبريل على سراويله ، وقعد بين

(١) سورة يوسف ٢٨ (٢) الكشاف ٢/٣٦٨ه
(٣) سورة يوسف ٢٤

شعبها الأربع ، وهى مستقبلة على قفاها ، وفسر البرهان بأنه سمع صوتا إياك وإياها ، فلم يكترث له ، فسمع ثانياً ، فلم يعبأ به ، فسمع ثالثاً ، فأعرض عنه ، فلم يمنع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على أنامله . وقيل ضرب بيده فى صدره ، فخرجت شهوته من أنامله ، وقيل كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولدا إلا يوسف ، فإنه ولد له أحد عشر ولدا من أجل ما نقص من شهوته حين همّ .

وقيل صيح به يايوسف لا تكن كالطائر كان له ريش ، فلما وقعت لأريش له ، وقيل زيدت كف فيما بينهم ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين »[1] فلم ينصرف ، ثم رأى فيها « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا »[2] ، فلم ينته ، ثم رأى فيها « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله »[3] فلم ينجع فيه ، فقال الله لجبريل : أدرك عبدى قبل أن تصب حصته . فانحط جبريل وهو يقول يايوسف أتعمل عمل السفهاء ، وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء ؟

وقيل رأى تمثال العزيز ، وقيل قامت المرأة إلى صنم كان هناك فستر ته ، وقالت : أستحى منه أن يراناء فقال يوسف : استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا أستحيى من السميع البصير العليم بذات الصدور ؟

وعلق الزمخشرى على هذا بقوله : وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم تهمة الله تعالى وأنبيائه . وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم — بحمد الله — بسبيل .

(١) سورة الانفطار ١ (٢) سورة الاسراء ٣٢
(٣) سورة البقرة ٢٨١

ولو وحدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه ، وذكرت توبته واستغفاره ، كما نعيت على آدم زلته ، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذى النون ، وذكرت توبتهم واستغفارهم .

كيف وقد أثنى الله عليه وسماه مخلصاً . فسلم بالقطع أنه ثبت فى ذلك المقام الدحض ، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم ، ناظرا فى دليل التحريم ووجه القبح ، حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأنبياء ، ثم فى القرآن الذى هو حجة على سائر كتبه ومصدق لها .

وقد استوفى القرآن الكريم قصته ، وضرب سورة كاملة عليها ، ليجعل له لسان صدق فى الآخرين ، كما جعله لجده الخليل إبراهيم عليه السلام ، وليقتدى به الصالحون فى العفة وطيب الإزار ، والتثبت فى مواقف العثار . فأجرى الله أولئك فى إيرادهم ما يؤدى إلى أن تكون إنزال الله السورة ليقتدى نبى من أنبياء الله فى القعود بين شعب الزانية ، وفى حل تكته للوقوع عليها ، وفى أن ينهاه ربه ثلاث كرات ، ويصاح به من عليه ثلاث صيحات ، بتوارع القرآن ، وبنسخ العظيم ، وبالوعيد الشديد ، وبالتشبيه بالطائر الذى سقط ريشه حين سعد عن شاهق ، وهو حاثم فى مأكله لا ينهى ولا نهمة حتى يتداركه الله بخير من وجه .

ولو أن أوضح الرواة ، وأحذقهم حذقة ، وألحنهم وجها ، لقى بأدنى مالقى به نبى الله مما ذكروا لما بقى له عرق ينبض ، ولا عصو يتحرك

فيالله من مذهب ما أفحشه ومن ضلال ما أبينه (١) .

كذلك استقبح ما ذكروه عن تعلق داود عليه السلام بامرأة ، وذكر أن

(١) الكشاف ١ / ٤٦٥

على بن أبى طالب قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته منه ستين جلده ، وهو حد الفرية على الأنبياء (١) .

وعلق على ما يروى فى الحديث : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد ، فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه ، إلا مريم وابنها » فقال : الله أعلم بصحته ، وإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان فى إغوائه ، إلا مريم وابنها كانا معصومين ، وكذلك كل من كان فى صفتهما ، لقوله تعالى : « ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » (٢) .

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا ، ولو سلط الشيطان على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخا وعياطا مما يبتلون به من نخسه (٣) .

٤ — على أنه لم يسلم من أغلاط كان المفروض ألا يقع فيها كما وقع غيره ، وذلك أنه ذكر بعض الإسرائيليات بعد أن قدم لها أو عقب عليها بطلانها ، ولكنه ذكر بعضها بغير أن يبدى رأيه فيها ، وكان المرجو منه أن يهملها إهمالا ، أو يذكرها على أنها من الأساطير .

قال فى تفسير الآية الكريمة : « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً » (٤) : إن بعضهم قالوا : خرجت حتى جاوزت الصين ، فسألت عن هؤلاء ، فقيل لى : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ، فسألتهم فإذا أجسامهم كأجسام الناس ، وهم أعرى منهم ، ومعى صاحب يعرف لغتهم فكلمهم ، فقلت لهم : كيف طلوع الشمس عليكم ؟ فإنا نحن كلما طلعت علينا طلعت كأشد ما تكون ، فمشى على ، ثم أفاق وهم يتسحبون بين أيدينا ، فإذا طلعت الشمس على أحدهم هوى فوقع كأشد ما يكون ، فإذا جاوزه ارتفع ، فإذا ارتفع التهب حر

(١) الكشاف ٢/٢٧٩ (٢) سورة الحجر ٣٩ - ٤٠
(٣) الكشاف ١/١٤٢ (٤) سورة الكهف ٩٠

العباس بن عبد المطلب كان أجهر الناس صوتا ، ويروى أن غاره [illegible] فصعق الفرس [illegible] وسقطت حوامل شدة صوته

و[illegible] أن عدوه كان يرجع الصدى عن الجبل فيقضى مرة السمع في جوفه[1]

وكله يروى في الأخبار عن العباس ، وكلمة رغمت [illegible] في الإخبار عن [illegible] ، لا سيما الزمخشري ، لأن هذا من الأساطير التي كان من واجبه أن يهملها ، إذ أنها من الاستطراد الذي لا علاقة له بتفسير الآية ، وبعد عليها بنفيها .

(١) الكشاف ٢/٣٩٠

إلى البحر يصطادون السمك ، ويطرحونه في الشمس فيصح لهم[1] .

وعند تفسير قوله تعالى : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ، فأوقد لي يا هامان على الطين ، فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى »[2] .

ذكر أنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال ، حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ، وأمر بطبخ الآجر والجص ونحر الخشب وضربه المسامير ، فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق .. فبعث الله جبريل عند غروب الشمس ، فضربه بجناحه ، فقطعه ثلاث قطع ، وقعت قطعة على عسكر فرعون ، فقتلت ألف ألف رجل .

ويروى في هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابه إلى السماء ، فأراد الله أن يفتنهم ، فردت إليه ملطوخة بالدم ، فقال : قد قتلت إله موسى ، فعندها بعث الله جبريل لهدمه ، والله أعلم بصحته[3] .

وفي تفسير قوله تعالى : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق »[4] قال إن السحاب من السماء ينحدر ، ومنها يأخذ ماءه ، لا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر ، ويؤيده قوله تعالى : « وينزل من السماء من جبال فيها من [illegible] »[5] .

وذكر عند تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض »[6] أن

(١) الكشاف ٤/٤٢٧ (٢) سورة القصص ٣٨
(٣) الكشاف ٢/١٦٣
(٤) سورة البقرة ١٩
(٥) سورة النور ٤٣ ، والكشاف ٢/٤٣
(٦) سورة الحجرات ٢

قيمة الكشاف وأثره

من هذه الجولة فى رحاب الكشاف يتبين أنه موسوعة فى التفسير حافلة بموضوعات كثيرة فى الاعتزال واللغة والنحو والبلاغة والأدب والفقه والقراءات، وما يتصل بها من تعليل وتدليل وتمحيص.

ويبدو أن الزمخشرى أعجب بتفسيره بعد إكماله، كما كان معجبا بأوائله التى أملاها على بعض المعتزلة، فافتخر بقوله[1]:

وباهيك بالكشاف كرا نضارُه ... يعلم تمييزَ الحبيـــارِ الصيارفا

وتحفق أوراق المصاحف هرةً ... لهن معانٍ يزدهين المصاحفا

تدوى بلاد الشرق والغرب ناقد ... يقلبها دهرا فيخرج زيفـــه

وكرر ثناءه على الكشاف فى قوله[2]:

إن التفاسير فى الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمرى مثل كشاف

إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكشاف كالشافى

وبعد كل الكشاف دون مقدمته صحته، طهرت قلوب قرأوه فى شتى عصوره، كما طهرت فى العناية به اختصاراً وشرحاً وتعليقاً وردوداً.

فمن الذين أثنوا عليه ابن خلدون، إذ قسم كتب التفسير قسمين: نقلى مستند إلى الآثار المنقولة عن السلف، ووصف آخر معتمد على اللغة والإعراب والبلاغة.

(١) ديوان الأدب ٢٨ (٢) بغية الوعاة ٣٨٨

ثم قال: ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشرى من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال فى العقائد، فيأتى بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة، حيث تعرض له فى آى القرآن الكريم من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة.

وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية، محسنا للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فتسلم مضمنته من ذلك ويكون فى اللسان[1].

وعرض له مرة أخرى فأثنى عليه، مقوفه على عيوبه بالكشف عن أسراره البلاغية، ثم عقب بقوله: لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة، ولأجل هذا يتحامله كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة.

فمن أحكم عقائد السنة، وشارك فى هذه الفنون بعض المشاركة حتى يقف على الرد عليه من جنس كلامه، أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا يضر معتقده، فإنه يتعين عليه النظر فى هذا الكتاب، للظفر بشىء من الإعجاز مع السلامة من البدع والأهواء[2].

ومنهم يحيى بن حمزة العلوى، فقد ذكر فى مقدمة كتابه [الطراز] أن الباعث على تأليف كتابه هو ما رآه من حاجة طالبى تفسير الكشاف إلى المحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشرى، الممتاز بأنه مؤسس على قواعد علم المعانى والبيان، وتحققوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه، والوقوف على أسراره وأغواره، ومن أجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير، لأنى لم أعلم تفسيرا مؤسسا على المعانى والبيان سواه، فحدى بعضهم أن أملى فيه كتابا يشتمل على التهذيب والتحقيق، فالتهذيب يرجع إلى

(١) مقدمة ابن خلدون ٩٩٨. (٢) مقدمة ابن خلدون ١٢١٦

اللفظ ، والتحقيق إلى المعانى ، إذ كان لامندوحة لأحدهما عن الثانى[1] .

ومن اختصروه البيضاوى بعد أن جرده من الاعتزال ، وقرر آراء أهل السنة ، ثم جاء النسفى فاختصر الكشاف وتفسير البيضاوى .

أما المقصون على الكشاف ، منهم أحمد بن محمد بن منصور الجذامى الإسكندرى المالكى قاضى الإسكندرية المشهور بأبى العباس بن المنير ، كان إمامه فى النحو والأدب والأصول والتفسير ، وله يد طولى فى علم البيان والإنشاء ، خطب بالإسكندرية ودرس فيها وناب فى الحكم بها ، ثم اشتغل بالقضاء . توفى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) وله مصنفات منها الانتصاف من صاحب الكشاف[2] ، ناقش فيه الزمخشرى ، وعارضه ، ونصر مذهب أهل السنة على مذهب المعتزلة ، بدليل قوله : الحمد لله الذى أهّل عبده الفقير إلى التوَرُّك عليه ، لأن آخذ من أهل البدعة ، أهل السنة ، وأصحّ أفئدتهم من قواطع البراهين بمقدمات الأسنة[3]

ولكنه مع ذلك اعترف بفضل الزمخشرى فى الكشف عن وجوه إعجاز القرآن البلاغية التى تؤكد أنه كلام الله سبحانه[4] .

ومنهم شرف الدين الحسن بن محمد الطيبى ٧٤٣ هـ (١٣٤٣ م) فى كتابه (فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب) وقد ذكره ابن خلدون فى قوله : لقد وصل إلينا فى هذه العصور تأليفه الذى شرح فيه كتاب الزمخشرى ، وتتبع ألفاظه ، وتعرض لمذاهبه فى الاعتزال بأدلة تزيفها ، وتبين أن البلاغة إنما تقع فى الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة . فأحسن فى ذلك ماشاء ، مع إمتاعه فى سائر فنون البلاغة ، وفوق كل ذى علم عليم[5] .

وهناك كثير غير هؤلاء[6] .

---

(١) الطراز للعلوى ١/٥ (٢) بغية الوعاة ٤٦٨ . (٣) هامش الكشاف ١/٣٩٩
(٤) هامش الكشاف ١/٥٧٣ (٥) مقدمة ابن خلدون ٦٩٩
(٦) كشف الظنون ٢/٢٠٩ — ٢١٦

الفصل السابع
فى بحر اللغة

تفوق الزمخشرى فى اللغة كما تفوق فى التفسير ، وقد تحدث عن عنايته باللغة وحقائقها ومجازاتها ونصوصها ونحوها فى تفسيره الكشاف

ولكن له جهودا عظيمة أخرى فى اللغة العامة ، بين من مؤلفاته فيها ، حسبنا أن نذكر منها ما يلى

(١) أساس البلاغة

كان الخليل بن أحمد (١٨٠هـ) أول من دون معجما لغويا سماه كتاب العين ، جمع فيه كثيرا من مادة اللغة ، ورتبها حسب مخارجها من الحلق فاللسان فالأسنان فالشفتين ، ووضع أحرف العلة فى آخر الكلمات ، وقد سمى كتابه العين ، لأنه بدأه بحرف العين

ثم سار كثير من مؤلفى المعاجم على طريقه الخليل ، كما نحا فى النوع لأبى على القالى[1] (٣٥٦ هـ) وفى تهذيب اللغة الأزهرى (٣٧٠ هـ) وفى المحكم لابن سيده (٤٥٨ هـ) .

ولكن بعض اللغويين اتجهوا اتجاهين جديدين فى ترتيب معاجمهم ، فألف الجوهرى (٣٩٨ هـ) « تاج اللغة وصحاح العربية » مراعيا فى ترتيب أبوابه أواخر الكلمات ، كما فعل ابن منظور والفيروزابادى فى معجميهما

ورتب أحمد بن فارس (٣٩٠هـ) كتابه المجمل فى اللغة ، على أساس الحرف الأول والثانى والثالث ، ثم التزم فى ترتيبه الهجائى ما بعد الحرف الأول من حروف

---

(١) هذه هى النسخة التى فى مكتبة برلين

... إلى أن يبلغ الباء ، ثم يعود فيذكر ما بعده من الهمزة إلى ذلك الحرف ، فمثلا عقد فصلا للراء ، ولكنه لم يذكر الراء مع الهمزة ثم مع الباء ثم مع التاء وهكذا ؛ بل ذكر الراء مع الزاى ، ومع السين ، ومع الشين ، ومع الصاد إلى الياء ، ثم عاد فذكر الراء مع الهمزة وما بعدها إلى الزاى .

طريقته

١ — ثم جاء الزمخشرى ، فألف كتابه أساس البلاغة على نهج هجائى أرق وأسهل من نهج ابن فارس ، إذ التزم الحرف الأول وما يليه من حروف الهجاء ، فعقد بابا للهمزة ، فرع منه الهمزة مع الباء (أب ، أبر ، أبس ، أبش ، أبص ، أط وهكذا إلى أى) وفرع منه الهمزة مع التاء (أتب ، أتم ، أتى) وفرع منه الهمزة مع الثاء (أثر ، أثف ، أثل أثم الخ) وفرع الهمزة مع الجيم (أج ، أجد ، أجر الخ) وفرع الهمزة مع الحاء ومع الخاء ومع الدال وهكذا ؛ وسار على هذا النهج فى كل حرف .

ولا شك أن هذا الترتيب الدقيق السهل حدير بقوله فى المقدمة : « وقد رتب الكتاب على أشهر ترتيب متداولا ، وأسهله متناولا ، يهجم فيه الطالب على طلبته موضوعة على طرف الثمام وحبل الذراع ، من غير أن يحتاج فى التفتيش عنها إلى الإيحاف والابضاع ، وإلى النظر فيما لا يوصل إلا بإعمال الفكر إليه ، وفيما دق النظر فيه الخليل وسيبويه » .

٢ — شرح المعانى الحقيقية للكلمات ، وأضاف إلى هذه المعانى الاستعمالات المجازية ، فقال مثلا فى مادة ثقب : ثقبت الشئ بالمثقب ، وثقبت اللآل الدر ، ودر مثقب ، وعنده درٌّ عذارى لم تثقب ، وثقبن البر فى ميومهن .

ومن المجاز : كوكب ثاقب ودرى : شديد الإضاءة والتلألؤ ، كأنه يثقب الظلمة فيها ويدرؤها ، وقد ثقب ثقوبا ، وكذلك السراج والنار وثقبتها وأثقبتها ، وأثقب نارك ثقوب ، وهو مثقب نار جيد ومد وخوص ورجل ثقيب ومرأة ثقيبة ، مشبهان للهب النار فى شدة حمرتهما ، وفيه ثقبة ، وحسب ثاقب : شهير ، ورجل ثاقب الرأى إذا كان جزلا نطارا ، وأنتى عينك عين ثاقبة أى حبر يقين ، وثقب الطائر إذا حلق كأنه يثقب السكاك (الجو) وثقب الشيب فى اللحية أخذ فى نواحيها .

وقال فى مادة حلف : حلف بالله على كذا حلفا ، وهو حلاف وحلافة ، وحلف حلفة فاجرة ، وأحلوفة كاذبة ، وحالفه على كذا ، وتحالفوا عليه واحتلفوا ، وحلف خصمه وأحلفه ، واستحلفه القاضى .

ومن المجاز : بينهم حلف أى عهد ، وهم حلفاء بنى فلان وأحلافهم ، وهذا حليق ، وهو حليف الندى وحليف السهر ، وفلان محالف لفلان لازم له ؛ وسنان حليف ، ورجل حليف اللسان يوافق صاحبه على ما يريد لحدته كأنه حلفه ... الخ .

وقال فى مادة كبد : هو يأكل كبود الدجاج وأكبادها ؛ وكبدته : أصبت كبده ، وكبد فلان فهو مكبود ، ورجل أكبد ؛ وأصابه الكباد .

ومن المجاز : بلغ كبد السماء وكبيداء السماء ، وتكبدت الشمس توسطت السماء ، وتكبدت الفلاة : توسطتها ، وتكبد اللبن : حثر ، وفرس وجمل أكبد : واسع الجوف ناهد موضع الكبد ، وهو يبحث عن كبد الأرض وأكبادها : وهى معادنها ، ورمت إليه الأرض بأفلاذ كبدها : بكنوزها وذخائرها ، ووقع فى كبد : فى مشقة ، وتقول للحصباء إنهم لفى كبد من أمرهم وبعضهم يكابد بعضا ، والمسافر يكابد الليل إذا ركب هوله وصعوبته .

وقد تعمق [illegible] كتبه في مادة بطح « تطلحت الكبش و تطحت » ومن المجاز : تطاحت الأمواج والسيول ، وأصابه بطح : أمر [illegible] من البطيح والمطاح : وهو المستقل مما يؤجر . ومن مجاز [illegible] حين صبح مشئوم

وفي مادة صبح « السيف والصبح » ومن المجاز : صبح في كلامه إذا [illegible] ومن مجاز المجاز تصبح الصانع : تحذق في صناعته .

[illegible] ذكر تصاريف الكلمات ومشتقاتها وجموعها ومزيداتها ومعاني كل منها ، مرتبا بعضها على بعض ، ومتدرجا بعضها وراء بعض ، وسلكها في عبارات عذبة تنصح عن معانيها ، وتميز مجازاتها من حقيقتها ، سواء أكانت هذه العبارات شعرا أم نثرا ، قديمة أم محدثة ، وسواء أكانت من عصر الاحتجاج — من الجاهلية إلى القرن الثالث — أم مما بعده ، لأنه أراد أن يبين دلالات الكلمة في نصوص بليغة ، وليس معنيه أن تكون هذه النصوص قديمة أم حديثة .

على أنه في كثير من الأحيان لم يقتصر على نصوص من كلام غيره ، بل أدار الكلمات في عبارات من عنده ، لأنه طبق ما قاله في المقدمة : « ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع في عبارات المبدعين ، وانطوى تحت استعمالات المفلقين ، أو ما جاز وقوعه فيها و نطوائه تحتها ، من التراكيب التي تملح وتحسن ، ولا تنقص عنها الألسن »

وقد [illegible] من أحد كتبه الأدبية التي ألفها قبل الأساس

وهذه أمثلة من أساس البلاغة على غير عمد :

قال في مادة حصد : حَصَدَ الزرعَ : جزّه فهو حصيد ، وجمعه حصائد ، وهذا زمان الحصاد . « وآتوا حقه يوم حصاده »[1]

ومن المجاز : حَصَدَهم بالسيف : قتلهم ، « وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم »[2] .

وقال في مادة (بلو) [illegible]

[illegible]

ومنه قولهم : لا أباليه أي لا أختبره لقلة اكتراثي له ، وهو أفصح من لا أبالي به ، قال زهير :

[illegible]

وقولهم أبليته عذرا بمعنى [illegible] حقيقته جعلته [illegible] عذري ، أي حتى [illegible] وكذلك أبليته ثنائي ، قال جرير

[illegible]

وابتليت الأمر : تعرفته ، قال :

تسائل أسماء الرفاق و تنثني ومن دون ما يهوى تُوَحِّشُ وحشُ

وهذا محسوس

ومن مجاز [illegible] شيء شممته ، قال عبد الله الأحمر القيسي

[illegible]

وفي مادة [illegible] الكتاب كله كتابة حسنة ، و تزوجت [illegible] قيس ، وفي رؤيته :

---

(١) سورة الأنعام ١٤١ (٢) حديث شريف .

دار كخط الكاتب المُرقِّن

وفى نوابغ الكلم : العلم درس وتلقين ، لا طِرْسٌ وتلقين [٢] .

وقال فى مادة رنح : رنّح فلان وترنح إذا دِيرَ به وتمايل كالسكران ، ورنّحه الشراب ، قال :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأخرى تُرَنِّحُ منْ ذاقهـــا

ومن المجاز : رنّحت الريح الغصن فترنح ، ولقد ترنح علىّ فلان إذا مال عليك بالتطول والترفع ، قال أبو القريب البصرى :

تُرَنِّحُ بالكلام علىّ جَهْلاً كأنك ماجدٌ من آل بَدْرِ

وقول فى مادة شب . شببتُ النار : رفعتها ، وشبّ الصبى شباباً ، وقوم شبّ وشبّان وشبّانه ، وقول : كان عصر شبابى أحلى من العسل الشبابى ، منسوب إلى شبابة من أهل الصعيد ، وتقول لمرء فى شبّه كأنه فى شبابه .

ومن مجاز والكتابة شببتُ الحرب بينهم ، وسمعت من يُحَيِّى الدار وهو يقول

شبّى تشبُّبَ النَّميمه تسعى بها زُهْراً إلى تميمه

وهو كقولهم : أوقد بالنميمة ناراً ، قال عمر بن أبى ربيعة :

ليس كالعهد إذ علمت ولكنْ أوقدَ الناسُ بالنميمة نارا

وشبّ الخمارُ وجهها ، وهو شَبوبٌ لوجهها ....

(١) نوابغ الكلم ٢٥

وقال فى مادة نقد . نقول انتقده ، بيد أنهم انتقد ، وقد جاء فى حديث الأعقد [١]

وقال فى مادة مرى : ومن المجاز قَرَعَ مَرْوَتَه [٢]

ويلاحظ أنه يذكر موضوع النص أحياناً كقوله فى مادة : نصع .

قال أوس بن حجر فى صفة القوس :

ومنضوعةٍ مثل رأس القَرَعْ شَظِيَّةٍ نطوْتُ تراه فى السحاب مكللا

وقوله فى مادة خرج : قال زهير يصف الخيل :

وخَرَّجها صواوخ كلَّ يوم فقد حمت عرائكها سمين

أراد وأدمها كما يُخَرَّج المتعلم .

وقال فى مادة طفل : هو طفل بين الطفولة ، وامرأة وظبية مِطْفِل ، وطَفَلَتْ ولدها : رشحته ، قال الأحطل يصف سحابا .

يذر رعته ريح حرٍّ دبوره كما رحَتْ عُوذٌ ثقالٌ تُطَفِّلُ

وقال فى مادة نتج . نتجتُ الشوكة من رجلى بالمنتاش ، ونتج الدرى بحب بمنشاره ، ونَتَجَ القَلاَّعَ الضرس : نزعه . قال زهير يصف غزواته

تنتِجُ أفلاءها فى كل منزلة تَنْتُجُ أعيُنُها المِقْمانُ والرُّخَمُ

وفى كثير من الأبيات لم نذكر القائل ، مكتفيا بكلمة قال ، وأغلب الظن أن القائل لم يكن معلوما له ولا لسابقيه الذين نقل عنهم .

كقوله فى مادة جرد . ومن المجاز : كيف حرثك أى امرأتك ، قال :

(١) هذه العبارة من مقامات الزمخشرى ١٠٠ النقد : جنس من الغم قبيح . الأعقد : الملتوى

(٢) وردت فى المقامات ٧٢

إذا أكل الجرادُ حُروثَ قومٍ فحرثي همُّه أكلُ الجـــراد

وقوله فى مادة دمج : وبلا نمس مدّاح وهو مُشْنٍ ومقرظ ، قال

يلاحى لوَشْيٍ على شَيْبه ما أفلحَ المدّاحُ على الشيح

وقوله فى مادة همج : وكانوا يقولون : هيئالك النافجة ، وهى البنت ، لأنه كان يجهرها فيمجح ماله أى يوسعه ويعظمه ، وأنشد الخليل :

وليس تلادى من وراثة والدى ولا شأنُ مالى مُشْعرى المتوهج

٤ — على أنه أغفل بعض المواد التى تجدها فى لسان العرب وفى القاموس المحيط ، ولعله وجدها ليست من المواد الكثيرة المعانى والمشتقات ، فذكر مثلا فى الجيم مع الهاء : جهرثم جهش ، ولم يذكر جهز .

وذكر فى الحاء مع القاف حقل ثم حقن ولم يذكر حقم

وذكر فى الراء مع التاء رتل وبعدها رتم ولم يذكر رتن ولا رثل .

وذكر فى السين مع الواو سود وبعدها سور ، ولم يذكر سوء .

وذكر فى العين مع الكاف عكف وبعدها عكم ولم يذكر عكل .

وذكر فى النون مع التاء نثأ وبعدها نتج ولم يذكر نتف

قيمته وأثره

١ — هذا الكتاب معجم لغوى جمع المفردات ومعانيها الحقيقية والمجازية ، وكثيرا من النصوص البينة التى وردت فيها ، فلم تجىء المفردات جوامد منقطعة عن الاستعمال ، بل جاءت فى سياق من التركيب أضفى عليها حياة .

وقد كان الزمخشرى يبتغى من تأليفه الكشف عن أسرار اللغة ، للوقوف على وجوه الإعجاز ، وليس من المستطاع هـــذا الكشف إلا بتذوق معانى المفردات فى تواليها ، ومعرفة حقائقها ومجازاتها كما قال فى المقدمة .

٢ — وهو إلى هذا ينوع غذاء الملكة الأدبية ، ويزود الشداة بنفائس اللغة وآدابها ، وقد كان الزمخشرى أديباً بصيراً بما ينهض بأساليب الأدباء والمنشئين ، لأنه جرب هذه الأمور من قبل ، وقد قال فى مقدمته : فمن حصّل هذه الخصائص ، وكان له حظ من الإعراب ... وأصاب ذَرْوًا من علم المعانى ، وحظى برشّ من علم البيان ، وكانت له قبل ذلك قريحة صحيحة وسليقة سليمة ، فحُلْ نثره ، وحرِّ شعره ولم يطل عليه أن يباهز المقدمين ، ويخاطر المقرمين

٣ — وقد سلك مؤلفو المعاجم بعد الزمخشرى طريقتين ، فبعضهم حاكى الجوهرى فى ترتيبه كتابه الصحاح ، وبعضهم تأثر طريقة الزمخشرى فى الترتيب الهجائى الذى التزمه ، وكان أبرع فيه وأدق وأسهل .

أما الفريق الأول فيمثله ابن منظور (٦٣٠ — ٧١١ هـ) مؤلف لسان العرب ، والفيروزابادى (٧٢٩ — ٨١٧ هـ) مؤلف القاموس المحيط ، فإنهما عدلا عن الترتيب الهجائى إلى نظام الحرف الأخير من الكلمة الذى سار عليه الجوهرى فى الصحاح .

ولعل كان سبب ذلك أنهما لم يرتضيا طريقة الزمخشرى فى ترتيب الكلمات ولا مسلكه فى التفريق بين الحقيقة والمجاز ، ولا طريقته فى الاستشهاد بنصوص من الملحاء بعد عصر الاحتجاج ، وليس بمستبعد أن يضاف إلى هذين السببين سبب ثالث هو أن الزمخشرى زعيم معتزلة فى عصره ، وأن مصنفى والفيروزابادى من أهل السنة ، وبين الفريقين ما بينهم من خصومة وعداء .

وأما الفريق الثانى فيمثله الفيومى (توفى سنة ٧٦٦ هـ) مؤلف المصباح المنير ، ثم اللجنة التى شكلتها وزارة المعارف المصرية برياسة محمود خاطر بك فرتبت مختار الصحاح للرازى (توفى عام ٧٨٠ هـ) ، وبطرس البستانى مؤلف محيط المحيط ،

وسعيد الشرتوني مؤلف أقرب الموارد ؟ ومجمع اللغة العربية في المعجم الوسيط .

٤ — ولازال أساس البلاغة في صدارة معاجمها اللغوية . نستشيره ، ونستبط منه ، ونأنس إليه ونثق به ، لأن مؤلفه كما قال ابن حجر العسقلاني : « في غاية معرفة فنون البلاغة ، وتصرف الكلام ، وكتابه من أحاسن الكتب ، وقد أجاد فيه ، وبيّن الحقيقة من المجاز في الألفاظ المستعملة إفراداً وتركيبا [1] »

(٢) المستقصى في أمثال العرب

منذ زمن مبكر عني كثير من اللغويين والأدباء بتدوين أمثال العرب ، مثل أبي عبيدة ، والأصمعي وأبي عمرو وأبي زيد والمفضل بن محمد والمفضل بن سلمة .

ثم جاء الزمخشري والميداني (٥١٨ هـ) فألفا كتابيهما في زمن واحد .

أما كتاب الزمخشري فهو (المستقصى في أمثال العرب) فرغ من تأليفه سنة ٥٩٩ هـ .

وأما كتاب الميداني فهو (مجمع الأمثال) .

وقد رتب الزمخشري كتابه ترتيبا هجائيا ، كما صنع في أساس البلاغة ، فبدأ بالأمثال التي أولها همزة ، ثم باء وهكذا إلى الياء ، مراعياً في الترتيب الحرف الثاني وما بعده ، فذكر مثلا في حرف السين مع الراء : سرق السارق فانتحر ، وبعده سرك من دمك ، فهو أعقل لك ، ثم ذكر أمثلة في حرف السين مع الميم : عند الشدائد تذهب الأحقاد ، وبعده عند الصباح يحمد القوم السرى .

---

(١) لسان الميزان ٤/٦

ولكنه ذكر في باب الهمزة جميع الأمثال المبدوءة بهمزة ، سواء أكانت الهمزة أصلية ، مثل إنك لا تجني من الشوك العنب ، أم همزة وصل مثل : احمل العبد على فرسه احتط الحبل بالنائل ، أم كانت الكلمة مبدوءة بأل مثل الحمد معنم ، واللذمة مغرم ، أم كانت الكلمة على وزن أفعل مثل : أحمق من بعامة .

وقد شرح الزمخشري الأمثال ، وبيّن مواردها وأصلها وملابساتها ، وذكر مضارب كثير منها ، والأحوال التي يصح أن تقال فيها ، وأضاف إلى شرحه مسائل من اللغة والنحو ، واستشهد بنصوص شتى من شعر ونثر .

وفي كتاب الزمخشري ثلاثة آلاف مثل وأربع مئة وواحد وستون .

أما الميداني فقد رتب كتابه طبقاً لأصول الكلمات ، فذكر في باب الهمزة الأمثال المبدوءة بهمزة قطع مثل : أبين من الميان لسحراً ، ولم يذكر ما أوله أل ولا همزة وصل ، ثم ذكر ما جاء على وزن أفعل من هذا الباب مثل : آكل من حوت ، ثم سرد أمثال المولدين ، وهكذا صنع في بقية الحروف ، فذكر في باب الباء الأمثال المبدوءة بباء ، مثل بلغ السيل الزبى ، ثم ما جاء على وزن أفعل مثل : أبلغ من قس . ثم أمثال المولدين ، ولكنه لم يلتزم الترتيب طبقا لما بعد الحرف الأول من مثل فمثلا ذكر في أوله ... ثم ذكر الصبي صدى ، ثم ذكر جوع حرة ولا تأكل بثديبها ، ثم يذكر تحسبها حمقاء وهي ناحس ، ويذكر في باب القاف : قطعت جهيزة قول كل خطيب ، ثم يذكر قتل الكاء كان وجهك عاسا ، ثم يذكر قد استفوق المجد وهكذا .

وأمثال الميداني ستة آلاف مثل كما ذكر في مقدمته ، ويظهر أنه رجع في كثيراً منها مكرر .

وفرق آخر بين الكتابين ، هو أن الميداني ذكر في مقدمة كتابه عشرات من الكتب التي نقل منها ، على حين أن الزمخشري لم يذكر مصادره التي اعتمد عليها .

وقد كان الزمخشرى أسبق إلى تأليف كتابه ، لأنهم يذكرون أنه لما اطلع على كتاب الميدانى ندم على أنه ألف المستقصى

ويذكرون قصة أخرى ، أغلب الظن أنها من وضع للتهكمين أو العابثين ، لأنها لا تلائم أخلاق الزمخشرى التى عرفناها ، فيقولون[1] إن الزمخشرى لما وقف على كتاب الميدانى أخذ القلم ، وزاد نونا على كلمة الميدانى ، فصارت الميدانى ، ومعناه بالعربية الذى لا يعلم شيئا ، فلما علم الميدانى بذلك أخذ يمحو من مؤلفات الزمخشرى فصير الميم نونا ، ومعنى الكلمة بالفارسية بائع روجته .

نماذج منه

١ — إذا ضربت فأوجع ، وإذا نعرت فأسمع .

ضرب فى إتقان الأمر والتشديد فيه[2]

وفى مجمع الأمثال : من أمثال المولدين : إذا ضربت فأوجع ، فإن الملامة واحدة ، يضرب فى الحث على المبالغة[3]

٢ — أشأم من أحمر عاد

هو قُدار بن قُدَيرة ، وهى أمه ، وأبوه سالف ، عقر ناقة صالح فهلكت بفعله ثمود . قال رهير

فتُنتج لكم غِلمان أشأم كلهم كأحمر عادٍ ثم تُرضع فتَفطِم[4]

وفى مجمع الأمثال بعد ذكر مثل أنه قدار بن سالف ويقال له ابن قديرة وهى أمه ، عقر ناقة صالح عليه السلام فأهلك الله بعقره ثمود[5]

(١) معجم الأدباء ٥/٤٢ وانباه الرواة ١/١٢١ وبغية الوعاة ١٥٥
(٢) المستقصى ١/١٣٥ (٣) مجمع الأمثال ١/٥٨
(٤) المستقصى ١/١٧٦ (٥) مجمع الأمثال ١/٢٥٦ .

٣ — أفرس من عامر بن الطفيل

هو ابن أخى عامر ملاعب الأسنة ، أفرس أهل زمانه وأسودهم ، وكان له منادٍ ينادى بعكاظ : هل من راحل فأحمله ، أو حائع فأطعمه ، أو خائف فأؤمنه؟ ووقف حسان بن سنمى على قبره فقال : أنعم ظلاما أما على ، فوالله لقد كنت شثن العارة ، ومحمى الحرة ، سريعا إلى ملوى عنانك ، بطيئا عنه بوعيدك ، وكنت لا تصل حتى يصل النجم ، ولا تهاب حتى تهاب السيل ، ولا تعطش حتى يعضل معه الماء ، وتلك خصال ما تكون حين لا تظن نفس بنفس خيرا ثم التفت فقال : هلا حملتم قبر أبى على ميلا فى ميل[1] .

وفى مجمع الأمثال هذا نفسه[2]

٤ — أحزم من ذئب وعد

حزم ذئب بن [illegible] بن نهشل بن دارم بن حنظلة بن مالك بن زيد بن تميم بن حُجْر الكندى ، صحب [illegible] وكان [illegible] فى جماعة فخلى بحرث خمس منهن يوما على عيبة ، فقعل ، وفى هو يوعده . يضرب فى استنجاز الموعد[3]

وفى مجمع الأمثال هذا وزيده عليه[4]

٥ — أنقى من مرآة العربية

هى المرأة الناكح فى غير عشيرتها[5]

وفى مجمع الأمثال : يعنون التى تتزوج من غير قومها ، فهى تحمو مرآتها أبدا ، لئلا يخفى عليها من وجهها شىء . قال ذو الرمة :

(١) المستقصى ١/٢٦٩ (٢) مجمع الأمثال ٢/٢٢
(٣) المستقصى ١/٣٨٤ (٤) مجمع الأمثال ٢/١٠٢
(٥) المستقصى ١/٣٩٨

لها أدن حشرٌ وذفرى أسيلة وخد كمرآة العروسة أسجح[1]

٦ — إنّ من البيان لسحرا

سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبرقان ، قال كيف هو فيكم ؟ فقال : شديد العارضة ، مطاع في عشيرته ، مانع لما وراءه . فقال الزبرقان : والله إنه ليعلم أني أفضل مما قال ، ولكنه حسدني . فقال ابن الأهتم : والله ما علمت (إلا) أنه زمر المروءة ، ضيق العطن ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، أما والله ما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى ، ولكن رضيت فقلت برضاي ، ثم أسخطني فقلت بسخطي . فقال عليه السلام إن من البيان لسحرا .

يضرب في الثناء على البليغ[2] .

وفي مجمع الأمثال هذا المثل وشرحه بغير خلاف يذكر[3] .

٧ — ضرب أخماساً لأسداس

أي اعتمد وتعاطى أخماساً لأحل أسداس ، وهو جمع خمس وسدس من أظماء الإبل . وأصله أن الرجل حتى إذا أراد سفراً بعيداً عود إبله الصبر على العطش ، فأخذ يترقى بها مدرجا في الإظماء ، إذا فوّز بها — دخل الصحراء — صبرت ، فهو حين يسقيها أخماسا ثم يتجوزها وينقلها إلى الأسداس عقيبها على سبيل التدريب لها إنما يتعاطى سقيها أخماسا لأجل سقيها أسداسا ، قال الكميت :

وذلك ضَرْبُ أخماسٍ أريدتْ لأسداس عَسَى ألا يكونا

وقال أيضاً :

ألستَ أيقظ الأقوام أفئدةً وأضرب الناس اخماساً لأعشار

(١) مجمع الأمثال ٢/٢٠٧ حشر : لطيفة يستعمل للواحد والاثنين والجمع . ذفرى : المراد العين .

(٢) المستقصى ١/٤١٤ (٣) مجمع الأمثال ١/٠

وقال :

يضرب للمكار الذي يريد أمرا ويظهر غيره[1] .

وقد شرح الميداني المثل هذا الشرح ، وذكر شعرا آخر غير النصوص الثلاثة التي ذكرها الزمخشري[2] .

٨ — قطعت جهيزة قول كل خطيب

من قوم يخصمون في صحيح بن حبيب — قتل أحدهما صاحبه لأجر رحلا وسلب الرحل بالدية — جاءت أمّة اسمها جهيزة فقالت : إن القاتل ظفر به بعض أولياء المقتول فقتله ، فقيل ذلك .

يضرب لأمر قد فات وأيس من صلاحه .

وقيل هي جهيزة التي يضرب بها المثل في الحمق ، وإنه مثل فيمن يقطع على الناس ما هم فيه بحماقة تأتي بها[3] .

وفي مجمع الأمثال هذا الشرح نفسه[4]

٩ — كالثور يُضرَبُ لما عافت البقر

كانوا إذا عافت البقر الورود ضربوا الثور زاعمين أن الجن ركبته ، وأنها ترع البقر عن المشرب ، فيضربونها بإلقاء الضرب على الثور .

وقيل إنما يضرب لأنه قائد البقر وسائقها .

وقيل الثور : العَرْمَض أي الطحلب ، يضرب فيذهب في نواحي الورد — الماء — ثم تشرب حينئذ ، وإذا كان على وجه الماء عافته .

يضرب للمأخوذ بذنب غيره ، قال أنس بن مدركة الخثعمي

(١) المستقصى ٢/١٤٥ (٢) مجمع الأمثال ١/٢٨٣

(٣) المستقصى ٢/١٩٧ (٤) مجمع الأمثال ٢/٢٥

إلى وفي ... ثم أعنقه كالثور يضرب لما عافت البقر

و ... (١)

ويشبه هذا ما ذكره الميداني (٢).

(٣) الفائق في غريب الحديث

كان جمع الأحاديث التي بها كلمات عربية وترتيبها وشرح غريبها مما عني به كثير من علماء اللغة والحديث، فتوالت مؤلفاتهم حتى لم تكد تدع زيادة لمستزيد.

وقد ذكر ابن الأثير في مقدمة كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر) موجز تطور التأليف في غريب الحديث، فبيّن أن أبا عبيدة معمر بن المثنى التيمي، أول من جمع ما وقع في غريب الحديث والأثر كتابيا معدود الأوراق. ثم جمع مثل جمعه أو أحسن منه نضر بن شُمَيْل المازني وعبد الملك بن قريب الأصمعي ومحمد بن مستنير المعروف بقطرب.

ثم ألف أبو عُبَيْد القاسم بن سلاّم كتابه المشهور في غريب الأحاديث والآثار، فكان المرجع إلى زمن ابن قتيبة الدينوري، إذ ألف كتابه على نهج كتاب أبي عُبَيْد، أكثره لم يذكره أبو عبيد.

وتتابعت المؤلفات في هذا الفن، إلى أن صنف أبو عُبَيْد أحمد بن محمد الهَرَوي كتابا جمع فيه ما بين غريب القرآن والحديث، ورتبه وفق حروف المعجم على وضع لم يسبق في غريب القرآن والحديث، وفسر الكلمات اللغوية، وجمع فيه ما ذكره سابقوه، ولهذا صار المؤلفون من بعده يتبعون أثره، ويسلكون مسلكه، إلى أن جاء الزمخشري فصنف كتابه سنة ٥١٦ هـ. وسماه الفائق

(١) المستقصى ٢/٢٠٤ (٢) مجمع الأمثال ٢/٥٩

«ولقد صادف هذا الاسم مسمّى، وكشف عن غرض الحديث كل مُغَطًّى، ورتبه على وضع اختاره مُقفّى على حروف المعجم، ولكن في العثور على طلب الحديث منه كلفة ومشقة، وإن كانت دون غيره من متقدم الكتب، لأنه جمع في التعمية بين إيراد الحديث مسرودا جميعه أو أكثره أو أقله، ثم شرح جميعه من غريب، فجاء شرح كل كلمة غريبة يشتمل عليها ذلك الحديث في حرف واحد من حروف المعجم، فترد الكلمة في غير حرفها[1]، وإذا تطلبها لا تدرى تعب حتى يجدها، فكان كتاب الهروي أقرب مسؤلا، وأسهل أخذا، وإن كانت كلماته متفرقة في حروفها، وكان المعجم به أتم، والفائدة أعم[2].

طريقته

١ — رتب الكلمات الغريبة من الأحاديث والآثار على حروف المعجم، مراعيا الحرف الأول والثاني، فيذكر مثلا في الهمزة مع اللام ألب ثم ألت، ثم ألف، ويذكر في الحاء مع الكاف حكك ثم حكه.

ولكنه لم يراع الحرف الثالث، ففي الثاء مع القاف يذكر ثقل ثم ثقب، وفي الجيم مع الدال يذكر جدح ثم جدف، ثم جدد، ثم جدل، وفي الحاء مع اللام يذكر حسب ثم حسح، ثم حسر، ثم حاب، ثم حلص، ثم حلى، وهكذا.

٢ — قد يذكر الحديث كله، وقد يذكر بعضه، ناظرا إلى الكلمة أو إلى الكلمات الغريبة التي يريد شرحها، ويستشهد بنصوص بليغة من الشعر والنثر، وقد يعرب بعض الكلمات «إعراب المحقق البصري الناظر في نص سيبويه وتقرير العسوى»[3].

وقد أثنى عليه ابن حجر في قوله: «وكتابه الفائق في غريب الحديث من

(١) يدرك هذا بأن أشار إلى هذه الكلمات في المواضع التي وردت فيها.
(٢) نهاية ٤/١ (٣) الفائق ٣/١

أعس الكتب ، لجمعه المتفرق فى مكان واحد ، مع حسن الاختصار ، وصحة النقل[1] » .

نماذج منه

١ — النبى صلى الله عليه وسلم أتى بكتف مُؤَرَّزة فأكلها وصلى ولم يتوضأ .

هى المؤرزة التى لم يؤخذ شىء من لحمها ، فهى متلاسة بما عليها من اللحم ، متعلقة به ، من أرَزْتُ العقدة إذا أحكمت شدها . من لدن من يوجب الوضوء بأكل ما مسته النار . وعن أهل المدينة أنهم كانوا يرون هذا الرأى . وهذا الحديث وأشباهه ردٌّ عليهم[2] .

٢ — إن الإسلام لَيَأْرِزُ إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها ، أى تنضوى إليه وتنضم . ومنه الأَرُوز للبخيل المتقبض . وعن أبى الأسود الدؤلى إن فلانا إذا سئل أَرِزَ وإذا دُعى انتهز[3] .

٣ — فى الحديث كانوا يتأثمون شرار ثمارهم فى الصدقة ، أى يقصدون . وفى قراءة عبد الله : « ولا تأثموا الخبيث »[4] .

٤ — النبى صلى الله عليه وسلم : لا يُوطِنُ من المسجد للصلاة والذكر وحى إلا يَتَشَبَّشُ به من حين يخرج من بيته كما تَتَشَبَّشُ أهل الميت بمالهم إذ قدم عليهم .

التشبش بالإنسان المسرة به والإقبال عليه ، وهو من معنى البشاشة لأن لفظها عند أصحابنا البصريين ، وهذا مثل لارتصاء الله فعله ووقوعه الموقع الجميل عنده .

(١) لسان الميزان ٦/٤ (٢) الفائق ١ ٢١
(٣) الفائق ١/٢٢ (٤) الفائق ١ ٤٥

يخرج فى موضع الجر بإضافة الحين إليه ، والأوقات تضاف إلى الجمل ، ومن لابتداء الغاية ، والمعنى أن التشبش مبدأ من وقت خروجه من بيته إلى أن يدخل المسجد ، فترك ذكر الانتهاء لأنه مفهوم ، ونظيره :

شُقْتُ البرقَ من خَلَلِ السحاب

ولا يجوز أن يفتح حين كما فتحه فى قوله .

على حينَ عاتبتُ المشيبَ على الصِّبا

لأنه مضاف إلى معرب ، وذاك إلى مبنى[1] .

٥ — النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يتعوذ من الأيهمين

هما السيل والحريق ، لأنه لا يهتدى لدفعهما ، من الفلاة يَيْهاء وهى التى لا يهتدى فيها ، لأنه لا أثر يستدل به .

وقال ابن الأعرابى . رجل أَيْهَمُ أعمى ، وامرأة يهماء ، ومنه قولهم أرض يهماء ، ويقال للجمل الذى لا يرتفق أيهم .

وقيل اليَهَم الجنون ، ومنه الأيهم الفحل للعقم[2] .

(١) الفائق ١/٩٢
(٢) الفائق ٣ ٢٣٣

(٤) أعجب العجب فى شرح لامية العرب

[illegible] شرح [illegible] الزمخشرى قصيدة الشنفرى التى مطلعها

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل

[illegible] مقدمة شرحه أنه [illegible] الحياة السعيدة و [illegible] الأدب [illegible] لا [illegible] و [illegible] المستولى على جوامع حكم [illegible] الأعم و [illegible] و [illegible] و [illegible] كانت مؤنسة فيه [illegible] و [illegible] و [illegible]

ويفهم من المقدمة أنه [illegible] بعد أساس البلاغة ، لأنه قال : « وحظى لمن نشأ فى علم الإعراب . . . . . وطالع أساس البلاغة »

وقد شرح اللامية كثير من اللغويين ، مثل [illegible] وثعلب والمبرد والعكبرى ويحيى الخطيب القاسانى والزوزنى والبقشوانى وابن أكرم وابن [illegible] وعطاء الله المصرى والسويدى والسعيدى الحيرى ، وسنشير إلى بعض ما ذكره كثير من اللغويين والنقد والمؤرخين

ويلاحظ أن الزمخشرى ملأ شرحه بالنحو ، حتى إن كان النحو مقصوداً قصداً ، وأنه اقتصر من اللغة على شرح المفردات الصعبة ، ولم يعرض لشىء من علوم البلاغة

وهو فى شرحه يستشهد بالآيات القرآنية ، وبأبيات شعرية

وقد عنى به كثير من المستشرقين منذ نشرها (دى ساسى) فأكبوا على دراستها ، وترجموها شعراً ونثراً إلى لغاتهم مثل (فرتل) و (فيل) و (كوركيس) و (رويس) و (دكيرت) و (هيرشفلد) و (الفرت) و (أدامامكيفتشا) و (فرين) و (ب . بليا) .

واتجه آخرون إلى [illegible] مخطوطاتها ، والموازنات بين نصها ونصها ، مثل (بيترمان) و (شيرخر)

وفى عام ١٨٦٤ رأى نولدكه أن يعيد النظر فيها ، وألف كتاباً فى الشعر الجاهلى عرض فيه لما قيل فى اللامية ، ونقده ، ثم قال : لولا أنى رأيت على مخطوطة (بترمان) هذه الجملة (لامية الشنفرى ، وقيل إنها منحولة) ما تطرق إلى شك فى صحتها ، فإنها إن كانت منحولة فالشاعر الذى قالها يجب أن يكون ملما بالحياة العربية والجاهلية إلماما تاما ، كما أن شعره غريب جداً ، حتى إنه يستحق أن يتبوأ أسمى مكان بين الشعراء الجاهليين ، وإذا لم تكن هذه اللامية لبطل الصحراء ، فإنها صنعت لتنسب إلى مثله .

وفى الوقت الذى كان فيه مجمع فيينا العلمى ينشر دراسة نولدكه عن المعلقات كان المجمع العلمى النمسوى بفيينا ينشر فى عامى ١٩١٤ ، ١٩١٥ بحثاً قيماً حول لامية العرب للمستشرق الألمانى (جورج بيكتوب) ، وقد ألف قبل هذا البحث كتاباً عن حياة البدو فى العصر الجاهلى ، وجمع المصادر المختلفة للامية الشنفرى ، وعنى عنايته خاصة بثبات الشرق العربى وحيوانه .

وقد ناقش ما أجمع عليه شرح اللامية من أن السُّمع فى قول الشنفرى :

فإنى لمولى الصبر أحتث نِزْوَةً على مثل متن السُّمع وهو أمين (١)

هو وحده دائب من الصبع ، وخالفهم وقال إن مثل هذا الوحش يحدث بين دائب والصبع ، ونسب لأبى ثابت أنه خلقه حيوان (هائل) [illegible]

---

(١) قال الزمخشرى فى شرح اللامية ما نصه : « وهو [illegible] أنيس [illegible] أنى وهو أنيس توءمه السمع [illegible] وهو ولد [illegible] الصبع ، وفى [illegible] السمع من جمع قال شاعرهم :

[illegible] وصحا [illegible] السمع من [illegible]

بحثت فى تحرية التراوح بين الذئب والثعلب ، وأخذت فى تحقيق ما قاله شراح اللامية ، لأن السمع كما قال الرحالة والعلماء وبخاصة علماء الحيوان : حيوان آخر يشبه الكلب ، وحجمه كالحمار ، إذا لم يصب الطلقة الأولى منه مقتلا اكتسب مناعة ضد الرصاص ، وهو يهاجم الإنسان ويصرعه بمخلبه الأمامى ، فيبحر بطنه ويفترسه ، ويطلق عليه علماء الحيوان اسم (ليكاون بيكتوس — Lycaon Pictus) وهو مشهور بقوة السمع حتى يضرب به المثل[1] .

على أن المناعة التى يكتسبها هذا الحيوان ضد الرصاص ليست مما يدخل فى نطاق المعقول ، لأن إخفاق الطلقة الأولى أو ما بعدها لا يكسب الحيوان هذه المناعة .

(٥) الجبال والأمكنة والمياه

تعريف بالجبال والأمكنة والمياه ومواقعها وأسمائها وبعض ما يتصل بها من أخبار وشعر ، مرتبة ترتيبا هجائيا ، بدأ بما فى أوله الهمزة ، فقال : أبو قبيس الجبل المشرف على الصفاء يسمى برجل من مذحج كان حكمى بأبى قبيس ، لأنه أول من بنى فيه ، ثم ذكر بعده ما فى أوله الباء ، وما فى أوله التاء ، وهكذا إلى الياء ، فقال : يَمْلَم : واد يحرم منه أهل اليمن .

نماذج منه

١ — حَجْر : جبل بالمدينة ، سمى بذلك لأن ثم جبلين هى أقصرها ، فكأنها جماء ، وأنشد فى الشيبانى :

القصر والنخل فالجماء بينهما أشهى إلى القلب من أسياح خيرون

الحمى من المدينة على ثلاثة أميال ناحية العقيق إلى الجرف .

(١) من مقال بمجلة الرسالة العدد ٨١٤ فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٦ للدكتور فؤاد حسين على .

٢ — مُحَجَّر : جبل بالمدينة ، قال الأعشى

وحرسه العين عين فطيمة معنا بنى شيئا شرف محجم

٣ — عكاظ : سوق ، وقيل عكاظ ماء لهم ، قال :

وعكاظ مؤيا فحبوه

وقيل عكاظ ما بين نخلة والطائف إلى بلد يقال له الفُتُق ، كانت سوقه تقوم هلال ذى القعدة فلا تزال قائمة عشرين يوما .

٤ — منفوحة : بلد فيه منازل ونخيل ، وهى خطة بنى قيس بن ثعلبة ، قال الأعشى :

قفا منفوحة ذى الحاير [1] .

(١) لا تزال منفوحة عامرة بالقرب من الرياض فى نجد ، وبها أطلال يقولون إنها كانت بيت الأعشى ، وقد زرتها مرات من سنة ١٩٥٧ إلى ١٩٦٠ .

الفصل الثامن

في شعاب النحو

... الزمخشري لنحو ، وعنى فيه كما درس اللغة وبرع فيها ، وكان ... مذهب سيبويه والبصريين في ... كما تبين من مؤلفاته كلها ، وله في النحو ثلاثة كتب هي

(١) المفصّل

شرع في تأليفه في غرة رمضان سنة ٥١٣هـ ، وفرغ منه في غرة المحرم سنة ٥١٥هـ[1] .

وهو أربعة أقسام : الأول في الأسماء ، والثاني في الأفعال ، والثالث في الحروف ، والرابع في المشترك .

ويستشهد له بورد أمثلة كثيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف وشعر العرب ونثرهم ، كقوله في حذف المفعول به .

وحذف المفعول به كثير ، وهو في ذلك على نوعين :

أحدهما أن يحذف لفظا ، ويراد معنى وتقديرا .

والثاني : أن يجعل بعد الحذف نسيا منسيا ، كأن فعله من جنس الأفعال غير المتعدية ، كما ينسى الفاعل عند بناء الفعل للمفعول به .

(١) وفيات الأعيان ٥/٢٥٥ .

فمن الأول قوله تعالى « اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لمن يشاء ويَقْدِر » وقوله « لا عاصمَ اليومَ من أمرِ اللهِ إلا مَن رَحِمَ » لأنه لا بد لهذا الموصول من أن يرجع إليه من صلته مثل ما نرى في قوله تعالى « الذي يتخبطه الشيطان المس » ، ونرى قوله تعالى : « وما عملتْه أيديهم وما عملتْ » .

ومن الثاني قولهم : فلان يعطي ويمنع ، ويصل ويقطع ، ومنه قوله عز وجل : « وأصْلِحْ لي ذريتي » وقول ذي الرمة

وإني لتعتريني بالمحل من ذي ضُرُوعها ... إلى الصيف يَبْرَحْ عرقيها تَصَلّى[1]

ولقد شرحه وعلق عليه كثير من النحاة[2] ، مثل أبي البقاء العكبري المتوفى سنة ٦١٦ هـ » واسم شرحه الإيضاح ، ومثل ابن الحاجب (٦٤٦ هـ) وشرحه اسمه الإيضاح أيضاً ، وعلى هذا الشرح حواش لآخرين

وأكثر شراح المفصل شهرة موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الحلبي المولود بحلب سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م) درس النحو والحديث بحلب ودمشق والموصل ، وتوفي سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) وتتلمذ عليه ابن خلكان سنة ٦٢٦ هـ ، ٦٢٧ هـ وقال إنه حجة في الأدب

ولابن يعيش هذا مؤلفات منها حاشيته على شرح ابن جني على (تصريف) المازني ، وشرح وافٍ على (المفصل) عارض فيه الزمخشري في كثير من المواضع .

وقد تحدث ابن يعيش عن الباعث له على شرح المفصل ، فقال : لما كان الكتاب الموسوم بالمفصل من تأليف الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، رحمه الله ، جليلا قدره ، عظيما ذكره ، قد جمع أصول هذا العلم وفصوله ، وأوجز لفظه فتيسر على الطالب تحصيله ، إلا أنه مشتمل على صروب ، منها لفظ أغربت عبارته وأشكل ، ولفظ تتحذيه معان فهو مجمل ، ومنها ما هو

(١) المفصل ٢/٣٩ . يعرح : المراد يعرحها

٢١ كشف الظنون ٢/٤٨٨ ، ٤٨٩

بادٍ للأفهام إلا أنه حال من الدليل مهمل ، استخرت الله تعالى فى إملاء كتاب أشرح فيه مشكله ، وأوضح مجمله ، وأتبع كل حكم منه حجته وعلله .

ولا أدعى أنه - رحمه الله - أحل بذلك تقصيرا عما أثبت له فى هذا الكتاب ، إذ من المعلوم أن من كان قادرا على بلاغة الإيجاز كان قادرا على بلاغة الإطناب [1] .

وقد طبع هذا الشرح فى ليبسيك من سنة ١٨٨٢ إلى ١٨٨٦ م ثم طبع بإدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة فى عشرة أجزاء .

(٢) مقدمة الأدب

قسم هذا الكتاب خمسة أقسام :

القسم الأول فى الأسماء ، فذكر المفردات وجموعها التكسيرية ، مثل وقت وأوقات ، وحين وأحيان ، وأجل وآجال ، وأوان وآونة وأيابين ، ودهر وأدهار وأدهُر ، وبنت وبنات ، وعشب وعِشاب وأعشاب ، ومزرعة ومزارع ، وسبلة ومسابل ، وهكذا ، مراعيا موضوعات عامة لكل طائفة من الكلمات .

والقسم الثانى فى الأفعال ، مثل : هَنَأه الطعام يَهْنِئه ويَهْنُؤه ويَهْنَؤه ، وهنئه يَهْنَؤه هُنُوءًا ، وهنأ البعير بالقطران يَهْنِئه ويَهْنُؤه هَنْءًا وهو هِناء

والقسم الثالث فى الحروف ، فتكلم عن الحروف ، وعدها فى الأسماء والأفعال ، وعقد لذلك فصولا ، منها فصل فى الحروف التى تنصب الاسم وترفع الخبر مثل : إن زيدا منطلق ، بلغنى أن زيدا منطلق ، كأن زيدا الأسد ، ما جاءنى زيد لكن عمرا حاضر ، ليت زيدا خارج ، لعل عمرا حاضر ، فإذا

(١) مقدمة شرح المفصل

اتصل بها (ما) ارتفع الاسمان كقولك : إنما زيد منطلق وكذا الباقى .

القسم الرابع فى تصريف الأسماء ، فتكلم عن حركات الإعراب وحركات البناء ، وعن التذكير والتأنيث ، والنسب والتصغير . . الخ .

القسم الخامس : فى تصريف الأفعال ، فعرض للمبنى للفاعل ، والمبنى للمفعول ، وللصحيح والمعتل ، وللمتعجب ، ولاسم الفاعل واسم المفعول . . الخ .

والكتاب عربى فارسى فى قسميه الأولين ، أما الأقسام الثلاثة الباقية فعربية خالصة .

ويبدو من هذا التعريف الوجيز أن الكتاب نحو ولغة ، ولكن النحو أغلب . وقد أهداه إلى الأمير الأجل بهاء الدين علاء الدولة أبى المظفر أنسوز ابن خوارزم شاه ، ووصفه بقوله : « غاية لدنه فى مجالسة الأفاضل ، وقصارى همه فى مدارسة الأماثل ، ولا يزال ظل كرمه الواسع عليهم ممدودا ، وجنابه بإنعامه الفائض مَحُودا ، وصلاته وجائزته مترادفة عندهم متوالية ، وراتحة إليهم عادية . وقد رسم لى أمره العالى — زيد علوا — بتحرير نسخة من كتاب مقدمة الأدب جرى كتبه المهمورة ، ففعلت على رسمه ، وحصلت الكتاب مرسوما باسمه [1] »

(٣) الأنموذج

هذا كتاب موجز جداً فى النحو ، اقتصه من المفصل ، ويظهر أنه أراد به المبتدئين ، عدد صفحاته ثلاث وعشرون صفحة .

وحسبنا هذه الإشارة ، لأن التفصيل فى هذا يحتاج إلى دراسة خاصة .

(١) مقدمة الأدب ٢

الفصل التاسع

فى حديقة النثر

مارس الزمخشرى النثر الفنى فى هذه الكتب الثلاثة : أوابد الكلم ، ومقامات الزمخشرى ، وأطواق الذهب .

وله نثر فنى فى مقدمات كتبه الأخرى وفى ثنايا بعضها ، ومحصة الكشاف ، وفى بعض فصول كتابه ربيع الأبرار .

أما موضوعاته فتدور حول الوعظ والإرشاد والدعوة إلى التحلى بالتقوى ومكارم الأخلاق .

وأما أسلوبه فالصفة العامة له مجاراة كتاب عصره فى التكلف بالسجع ، وتكلف المحسنات ، والجنوح إلى حل المنظوم ، والتلاعب بالألفاظ اصطلاحيه .

ولقد كان المأمول من أبى القاسم أن يتحرر من هذه القيود التى كبلت النثر الفنى منذ القرن الثالث الهجرى إلى القرن العشرين ، لكنه لم يتحرر منه ، مع أنه قال فى مقدمه المقامات[1] : ولتعلم أن ما سماه الناس البديع ، من تحسين الألفاظ وتزيينها بضرب الطرق فيها والتجنيس والتسجيع والترصيع ، لا يبهج ولا يبرع حتى يوارى مصنوعه مطبوعه ، وإلا فهو قيق فى أماكنه ، وبيا عن مواقعه ، شنوء بالعراء ، مرفوض عند الخطباء والشعراء .

على أن بعض سجعاته جاء الوقع ، لا يمجه عليها استكراه ، وبعض

(١) مقدمة المقامات ص ٣

محسناته أسعفت بها المهارة واللباقة فجاءت كأنها عفو الخاطر ، وليدة المصادفة ، مثل قوله : « ألا إن اتقاء المحارم ، من أجل المكارم ، فاتقها إما لكرم الغريزة ، وإما للتوقف عند حدود الشارع ، وتخوف الزواجر والقوارع »[1] .

وقوله : « يا أيها المستحدى ، حسبك ، فمن الكسب كسبك ، لا يليق الديباجة مثل التعرض للحاجه ، فليرقع اليسير خصاصتك[2] ، ولتكن القناعة جمتك ، وأقلل فى الدنس طمعك ، و سلم فصل الله معك[3] » .

ويكفى أن أذكر بعض الأمثلة من كلفه بالسجع والمحسنات المتكلفة ببعض المفردات اللغوية التى لا باعث على استعمالها إلا الجنوح إلى الإغراب ، أو الدلالة على الإحاطة والمقدرة ، على حين أن غيرها أحمل منها وقعا ، وأوضح دلالة ، وأثرى معنى .

من ذلك قوله فى مقامه العرلة : « قاتل الله بنى هذه الأيام ، حوارهم غوار[4] وبعضهم نقار[5] . بينما أنت فى خلواتك إذ هوجمت بمشافهة بعضهم ، من الذين أخذك الله ببعضهم » ...

فهو يتعسف فى تعبيره ليسجع وليجانس بين حوار وغوار ، وبين نقال ونقار ، ويستعمل كلمة مشافهة على ثقلها

(٢) خصاصتك : حاجتك

(٣) فى الأساس : سمعت أهل البوادى يقولون : رقع الله خصاصتك

(٤) أطواق الذهب ٣٢

(٥) الغوار : المحاورة

(٦) النقار : مناقلة الكلام . النقار : المناقرة والتجريح

وتقول فى مقدمة نصيحة [1] « ستقف على عدة لغوية مُعقّدة، وردت فى هوة رأى مُعقّدين [2] »

والتكلف واضح فى ستقف معقدة، ومعقدين تصيد السجع والجناس وتقول فى مقدمة العمل [3]

« وإنى ذكر لشر فورة ابن [illegible] حمزة به حمش وهمش » [4].

فهو يستعمل (راء) بدلا من رأى، ويستعمل همش ليجانس بينها وبين حمش، ويمثل شخص غريب الاسم، غير مشهور بالبلاغة إلى درجة أن نضرب به المثل.

ويسترسل فى هذه المقامة فى استعمال كلمات أربع منصلة بالقوس، فيقول: « متى نطر إلى الزُّماه مُوترين منصبين [5] مُرتين غير مخصبين [6] أقبل على مُعلاة العم مُثقّفًا، وبحمرة الغيظ يتصلّى » والتكلف بين فى تتابع هذه الكلمات

على أنه كتب خمس مقامات مثقلة باصطلاحات نحوية وعروضية وبعض هذه سأعرض لها فيما بعد.

وهذا النثر فى كتبه: نوابغ الكلم، ومقامات الزمخشرى، وأطباق الذهب، وربيع الأبرار.

---

(١) مقامات الزمخشرى ٧٢

(٢) [illegible] المعترضين

(٣) المقامات ١ ١

(٤) حمزة فزع أو هرب. همش: هش وارتاع. فى لسان الحرة على ورق سكر، حمش [illegible] فى حصن أو ورقاء فى الأشقر (القاموس مادة حمر).

(٥) منصبين جاذبين أوتار القسى

(٦) غير [illegible] مقصرة سهامهم

(١) نوابغ الكلم

[illegible] الزمخشرى حكم فيها متونه موجزة تُغنى عن مسجوعه سجعه متكلف، لا يتضمن موضوع وفكرة، كقوله: أعرب بيع عن لفحه، وعرب [illegible] مثل بلاغة

[illegible]

لا تش [illegible] ولا تمش [illegible]

صُنْ وجهك عن مبتذل سؤاله ومَنْع، ونزهه بالله وعن

كم رأيت من أعرج فى درج المعالى أعرج [2]، ومن صحيح القدم لمس له فى حلبة قدم.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

---

(١) [illegible] من بحر سهل كامل

(٢) [illegible] مثل فى

(٣) أعرج [illegible] أقعد وأعى

[illegible]

(٥) [illegible]

[illegible]

(٧) [illegible] الأولاد

(٢) المقامات

وأما المقامات فقد ألفها سنة ٥١٢ هـ ، لأنه قال إنه أصيب فى تلك السنة بالمرصة الناهكة التى سماها للنذرة ، فأخذ على نفسه الميثاق إن مَنَّ الله عليه بالصحة ألا يطأ عتبة السلطان ولا أعوانه ، وأن يرد نفسه ونساءه عن قرض الشعر فيهم ، وأن يعف عن التطلع إلى عطاياهم ، ويجتهد فى محو اسمه من الديوان ، ويتهجل إلى ربه ويتنسك[1]

وكان تأليفها أو شرحها بعد « ينابيع الكلم » ، لأنه شرح كلمة نقار فى صفحة ٧٢ من المقامات ، وقال : وفى ينابيع الكلم : لن يسود النَّقَر ما اسود القر ، وشرح كلمة ثور فى صفحة ٢٣٠ فقال : وفى الينابيع أم الزائر ثور ، وأم الناكح ثور[2] .

ويفهم مما ذكره فى الشرح أن تأليفها أو شرحها كان بعد الكشاف[3] ، وكان بعد الفائق فى غريب الحديث[4] .

ويظهر أنه كتبها فى مكة ، لأنه أشار إلى البيت العتيق بقوله : أسأل الله أن يعم لك سجال النعم ، وممتك على إفاده أهل الحرم ، ويكتبك ببركة هذا البيت العتيق فى زمرة العتقاء من النار[5] .

وهى خمسون مقامة ، موضوعها النصح والإرشاد والعظة ، موجهة إلى نفسه ، مصدرة كل منها بقوله : يا أبا القاسم . ولكل منها عنوان مثل : مقامة المراشد ، مقامة التقوى ، مقامة الرضوان ، مقامة الزهد ، مقامة الصمت ، مقامة القناعة ، مقامة العفة ، مقامة التوحيد ، مقامة الشهامة ، مقامة العزم ، مقامة ذم العرب .

---

(١) المقامات ٩ (٢) — فى شرح الكلمات فى شرح ينابيع الكلم
(٣) شرح المقامات ٤٠٥ (٤) شرح المقامات ٥٥
(٥) مقدمة المقامات ٣

وهى وإن خالفت مقامات الحريرى فى الموضوعات والغاية فإنها محاكاة لها فى الأسلوب المسجع الحافل بالمحسنات .

وقد شرحها الزمخشرى نفسه شرحا مفصلا ، تعرض فيه للغة والبلاغة والنحو ، واستشهد بكثير من آيات القرآن الكريم والحديث النبوى وشعر العرب وأمثالهم وأخبارهم ، كقوله[1] :

الطائر يحمى بيضته ويرفرف عليها ، فضرب مثلا لما يدب عنه الإنسان من حوزته وحقيقته ، فيقال فلان يحمى بيضته ، ولو قيل فلان يرفرف بجناحه على بيضة الإسلام لكان مجازا مرشحا .

فإن قلت : مالهم قالوا : أذل من بيضة البلد مع قولهم أعز من بيضة البلد ؟ قلت . هى بيضة النعامة ، وأضيفت إلى البلد وهى الفازة ، لأنها تباض فيها ، وأنها تتركها فتحضنها أخرى ، فما كانت متروكة من ناحية محصونة من أخرى وصفت بالمرة والذلة ، فقيل

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... لكيته ما أقام الروح فى جسدى
لكن قتله من لا يعاب به ... وكان قدما يسمى بيضة البلد

والقاتل أخت عمرون ود على رضى الله تعالى عنه وقتله أحدها .

وقيل المراد ببيضة التى هى مثل فى الذل الكمأة البيضاء ، لأن الأرض تضربها وتسيء معاشرتها . فهو كقولهم أذل من قفع بقر .

وقوله فى شرح « ينابيع » إنها كلمة موضوعه ، استعمل من يقل المضروب به المثل فى الجبن ، قيس على استوق الجمل ونظائره ، نحو استنبط

---

(١) شرح المقامات ١٥

[illegible] صعب التنيط[1] . ولكن لم يذكر هذا الاستعمال في أساس البلاغة

وهذه نماذج من المقامات

١ — قال في مقامة الغربة[2]:

يا أبا القاسم، أزلّ نفسك عن صحبة الناس واعزلها ، وانتزعها من قراع الخيل فاعزلها ، وتلذّذ بمعض الكهوف وعيشه بعيدا من الرفقة والخيران ، حتى لا تعلّق طرفك إلا سوادك ،[3] ولا تحرى مؤامرتك[4] إلا مع فؤادك ، ولا توصل إلى سمعك إلا همسك ومناجاتك ، وإلا حوارك[5] وسلواتك . . .

[illegible]

٢ — ويختم بعضها بشعر من إنشائه ، كقوله في مقامة الزهد[8]

[illegible] على صراط سوىّ [illegible]

[illegible] في الأرض مشهور فوق السماء سمه[9]

[illegible] تعلو بوظرفه عنه وتقتحمه[10]

---

(١) [illegible]

(٣) السواد : الشخص (٤) المؤامرة : المشاورة

(٥) [illegible] وفي النسخ (بدلهم محاورتي)

(٦) [illegible] وفي توضيح المشكل من سواد بصر

٧ [illegible] قال تعالى : سنلقوكم بألسنة حداد

٨ [illegible]

(٩) السمة : الاسم ومعنى البيت مبني على قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : كونوا جددا للقلوب جددا للثياب تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض

(١٠) [illegible] ترك التكلف في المطعم والملبس .

[illegible] حتى تركتُ من لأدى به همه

[illegible] على [illegible]

٣ — وفي نهايتها خمس مقامات ، ملأ الأولى باصطلاحات نحوية ، وسماها (مقامة النحو) وملأ الثانية باصطلاحات عروضية ، وسماها (مقامة العروض) وملأ الثالثة باصطلاحات القافية وسماها (مقامة القوافي) والرابعة اختص بها اصطلاحات ديوانية وسماها (مقامة الديوان) مثل الطَّسَاسيج[1] والتأريخ[2] والروزنامج[3] والأسكُرار[4] ، والخامسة قصرها على ذكر أيام العرب وسماها (مقامة أيام العرب) وهذه المقامات الخمس مثقلة بالتكلف والتمحل ، وإن دلت على مهارة في اللعب بالألفاظ .

فمن مقامة النحو قوله[5] .

يا أبا القاسم أعجزتَ أن تكون مثل همزة الاستفهام، إذ أحدثت على ضعفها صدر الكلام ؟ يتلك أشبهها متقدما في الخير مع المتقدمين ، ولم تشبه في تأخُّرك حرف التأنيث والتنوين ، ضارع الأبرار بعمل الثواب الأوّاب ، فالفعل لمضارعته الاسم قار بالإعراب . . . ولا تكونن ضميرك عن الهم الدنيئ سالبا ، كما لا يكون أفعلُ من الضمير حالياً . . . [6] .

ومن مقامة العروض قوله[7]

[illegible]

---

(١) الطساسيج : أقساط النواد سميت بأقساط النقار وهو آرمه وعشرون طسوجا

(٢) التأريخ : تعريب تاريخ وهو العلم وهو سواد يعمل للعقد إذا احتاجوا إلى حمل الأموال

(٣) الروزنامج تعريب روزنامه وهو ما يكتب فيه ما يجرى كل يوم من استخراج وجهة

(٤) الأسكرار : كتاب يكتب فيه عدد الخراط و تسكتب الواردة و الصادرة

(٥) المقامات ١٨٠ (٦) شرح تفصيل المراد من هذه المصطلحات

(٧) المقامات ١٨٦

(٨) الهمزة اسم للحرف وهو صوت ضعيف نحو قل وسيبويه قال نحو رجل

(٩) الواو اسم لثلاثة أحرف نحو هم وهو قال . .

أسباب السماوات فرعون ذو الأوتاد . إن الهُدَى فى عَرُوض سِوَى علم العَرُوض [1] فى العلم والعمل بالسبب والفروض ، ما أحوج مثلك إلى الشغل بتعديل أفاعيله ، عن تعديل وزن الشعر بتفاعيله [2] .

(٣) أطواق الذهب

وأما أطواق الذهب فى المواعظ والخطب فإنه مئة مقالة ، كل منها فى نصف أسطر تحت عنوان ، أنشأها فى مكة قبل تأليف الكشاف ، قال فى المقدمة : « أسألك أن تعيننى على هذه المقالات من البركة والقبول ، وأن تحفظ فيها ما وجب للجار والذمام والذمار ، لأنها وجدت فى حرمك المطهر ، وولدت فى حجر بيتك المستر » [3]

وقد شرحها جماعة من الأئمة ، منهم شرحه المسمى بأنك لك بمكة أحياها الله تعالى ، وذلك أنه كان يطوف بيت الله ، وإذا فرغ من الطواف ألف مقالة ، ثم يقوم ويطوف ويمشى بعد الفراغ ، ومازال على ذلك إلى أن تمت مئة كاملة [4]

وشرحها أيضاً الشيخ يوسف أفندى الأسير

ثم ألف شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله المعربى الأصفهانى كتابه أطباق

---

(١) العروض : الجانب والناحية . وسمى هذا العلم بالعروض لأنه ناحية من نواحى العلم ، أو لأنهم الجزء الأخير من أجزاء صدر البيت الأول ، كما قيل لعلم النحو ريث عبر امرأس لقول الفرضيين فريضة الروح كذا وكذا ، وقيل العروض عمود البيت وقد السعة التى فى وسطه ، أخذ من هذه الأشياء من حيث العروض وهى السبب والوتد والفاصلة والعروض والضرب شاعر .

(٢) [illegible] وهو [illegible] والفاعلن والمفاعيل والمستفعلن والفعولن والمفاعلتن والأركان والبحور والدوائر .

(٣) أطواق الذهب ٩ (٤) تلائد الأدب فى شرح أطواق الذهب ٩

الذهب على غرار أطواق الذهب ، وقال إنى حذوت حذوه ، واقتفيت أثره وحظوه [1] .

ثم حاكاها السيد توفيق البكرى فى كتابه صهاريج اللؤلؤ ، ثم أحمد شوقى فى كتابه أسواق الذهب ، مع اختلاف الموضوعات وتفاوت العبارات .

وهذه نماذج من أطواق الذهب :

١ — من عرف منهل نفس فقده ، ومن فقد نفسه تقنع بغير وجوده [2] . ومن عرف نفسه تحرر ، ومن تحرر وصل إلى بر النعم ، ومن لم يصبر على براثن الضد بقى فى قفص أطوار الكمد [3] ومن لم يقنع بما عنده عاش فقيراً ، ومن قنع بما عنده [4] ، عاش غنياً بما عنده [5]

٢ — [illegible] الدهور ، ولباس أطوار ، فليس كل يوم يجتنى منه من الطوارق [6] ، وعاشر كل قوم بقدر مالهم من الطرائق [7] ، فالأيام لا تجرى على وفق مرادك ، والأيام لا تنثرى على طبق تدويبك وإسعادك [8] .... [9]

٣ — [illegible] آدم ، أصلك من صلصال كالفخار ، وفيك ما لا يسعك من النفخة والافتخار ، تارة بالأب والجد ، وأخرى بالدولة والجد ، ما أولاك بألا تصغر جدك ، ولا تفتخر بجدك . تبصر خليلى مم مزجك ، وإلام منقلبك فتخلص من عنوانك ، وخل بعض حيلائك » [10] .

---

(١) أطواق الذهب ٧ (٢) الذعاف : السم الشديد

(٣) الفخ : شجر لين الأغصان تشبه به بنان الحسان .

(٤) [illegible] الوجه

(٥) أطواق الذهب ٢٠ (٦) الطوارق : الشئون والأحداث

(٧) [illegible] الذهب

(٨) [illegible] : السير من أول النهار . الإسعاد : سير لا إقامة فيه .

(٩) أطواق الذهب ٦٩ (١٠) أطواق الذهب ١٢

٤ - العلماء السوء جمعوا علوم الشرع ودوّنوها، ثم رخّصوا فيها لأمراء السوء وهوّنوها، ليتهم إذ لم يراعوا شروطها لم يعوّها، وإذ لم يستمعوها كما هي جمعوها [1]

٥ [illegible]

(٤) الصائح الصغار والبوالغ الكبار

مجموعة من النصائح والحكم في صور مقالات قصار عددها نحو الثمين، منها قوله:

١ القاضي يعمل فيه الرشوة، ما لا يعمل في الشارب النشوة، إنه أتته فسكران مَيْلاً وطرباً، وإن فاتته فثكلان نكلا وحزناً، كأنه سمع [illegible]

٢ من لم يحفظ ما بين فكّيه، ظل يُبقّ [illegible] على دَفيه [2]، حزناً على ما فرّط فيه من التحفظ، وأسفاً على ما فرط منه من التلفظ، ولو كان اللسان محروناً لم يسكن الفؤاد محروناً، قلما يحرس مهجته من لم يحرس لهجته، ولن نجد على السر أميناً، إلا بكل أمانة قمينا.

(١) أطواق الذهب ٨١

(٢) شامس: مشرق. أطواق الذهب ١٤٥

٣ [illegible]

(٤) الذهب [illegible]

(٥) ربيع الأبرار

وأما ربيع الأبرار فقد أتمه بعد توشيع الكلم وبعد ديوان شعره وبعد ديوان المنثور [1].

وموضوعه كما قال في مقدمته [illegible] طرفاً في الكشف عن حقائق [illegible] بما أحاله الفكر في استخراج ودقة علمه وحبايا، والتفيس عن أدهانهم المكدودة باستيضاح غوامضه وحبايا.

وقد عرض فيه لكثير من الموضوعات مثل الأوقات وذكر الدنيا والآخرة، والسماء والكواكب، وذكر العرش والكرسي، والسحاب والمطر والبرق والرعد والبرق وما يتصل بذلك من ذكر الاستمطار وغيره، والهواء والريح والنسيم والحر والبرد والظل، والنار وأنواعها وأحوالها وذكر نار جهنم وأحوالها والسراج والشمعة ونحو ذلك، والأرض والجبال والحجارة والحصى وجواهر الأرض والغور وذكر الرجفة والخسف، والبحر والأودية والأنهار والعيون والآبار وما اتصل بذلك وباسمه من ذكر السفن والسباحة وغيرها، والشجر والنبات والفواكه والرياض والبساتين وذكر الجنة، والبلاد والديار والأبنية وما يتصل بها من ذكر العمارة والخراب وحب الوطن، والحزن والحمق والسعة والعقلة والحزن والمحلة وترك الأناة والتفصل، [illegible] ومعاشرة الناس وذكر [illegible] ومراسلاتهم وذكرهم وزيارتهم، وذكر السلام والتحية وآداب النفس وما يتصل بذلك، والقصاص وما ورد من حكاياتهم وملحهم، والمتصوفة وما جاء في أكلهم ورزقهم، والمنطق وذكر

(١) ديوان الشعر ٢٣، ٢٤، ١٥٣، ١٥٦، ١٧٠

الخطب والشعر والفصاحة والبلاغة والعى والإفحام والإيجاز وما اتصل بذلك ، والنساء ونكاحهن وطلاقهن وخطبتهن والإعراس بهن ومعاشرتهن وما يحمد وما يذم من

وهو يعتمد فى هذه الكتب على النقل من بعض كتبه ، ومن الجاحظ ، وغيره ، ويذكر كثيراً من الأحداث والأخبار والأشعار ، وما روى عن السابقين فيها وفيما يتصل بها ، فيحد كثيراً من الأسماء تتردد مثل عمر بن الخطاب وابن عباس وعلى بن أبى طالب والخدرى والحسن وأنس بن مالك ووهب بن منبه وأحمد بن يوسف والصنوبرى والمأمول والفرزدق وابن مسعود وابن الرومى والأصمعى وحجاج وعبد الملك بن مروان وبديع الزمان الهمذانى وسهل بن هارون وأنوشروان الخ .

ومن هذا يتبين أن الكتاب مجموعة من المعارف والطرائف أكثره معبرات غيره . وهذه نماذج منه .

١ — فى فى معاشرة الناس وملاقاتهم ومصاحبتهم ومراسلتهم وذكرهم وغيبتهم [1]

حدث عن سهل بن سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم من أخلاق المؤمنين والصديقين البشاشة إذا لقوا أو ا ، و مصافحة إذا تلاقوا ، والزائر فى الله حَقٌّ على المزور إكرامه .

كان القعقاع بن ثور الهذلى إذا جالسه رجل حمل له نصيبا من ماله ، وأعانه على حوائجه ، وغدا إليه شاكرا .

عن محمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان قال : بعثنى أبى إلى المعتصد فى

(١) ربيع الأبرار ورقة ١٥١

شئ ، فقال لى : اجلس . فاستعظمت ذلك ، فقلت إنه لا يحور ، فقال لى : يا محمد ، إن أدبك فى القبول منى خير من أدبك فى قيامك .

قال رجل لأبى حنيفة الحنفى : ما أحسبك تنسى ، قال : وجهك يدل على علو همتك ، والإكرام يمنع من مسألتك ، فأوجد السبيل إلى معرفتك .

قال أبو تمام :

يحميه لأْ لاؤه وتؤذَعِيتُهُ من أن تقال بمن أو عمَّن الرجلُ؟

وقال معنه

بم تعتذر و معذرة تُقعِد التاج غير متثم

معرى .

ولو كتموا أنسابهم لعرَّفتهم وجوهٌ وفعلٌ شاهدٌ كل مشهد

ابن عباس : لجليسى علىَّ ثلاث : أن أرميه بطرفى إذا أقبل ، وأوسع له إذا جلس ، وأصغى إليه إذا حدث .

زار بعض الأمراء فقال له : إن زرتنى فعلت ، وإن زرتنى فعلت ، وإن زرتنى فعلت ، فلك الفضل زائرا ومزورا .

أراد رجل أن يقبل يد هشام بن عبد الملك فقال : لا تفعل ، فإنه يقبح من العرب الطمعُ ومن العجم الطبيعة .

قال رجل للمنصور ، أعطى يدك أقبلها ، قال : إنا نصونك عنها ، ونصونها عن غيرك .

سأل بعض أصحاب أبى حنيفة الشافعى عن مسألة ، فأجاب عنها ، فقال له : أخطأت . فقال : لو كنتُ مكانك ثم كلمك بمثل ما كلمتنى لاحتجت إلى أدبه .

كان أردشير إذا تمطى قام شُمّاره ، وكان قيد إذا رفع رأسه إلى السماء قاموا .

بهرام جور : إذا لم تصد قلوب الأحرار بالبشر والبر فبأى شيء تصيدها ؟

معاوية : نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط ، وأكلت الطعام حتى لا أحد ما أمرُّ به ، وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء ، وركبت المطايا حتى حقرت على ، ولبست الثياب حتى خجلت منها ، وما في الدنيا ما تشوق إليه نفسي إلا وقد نلته بحكمي .

عبيد

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصالح

٢ — وما قيل في القصص وقصاصه[1]

حباب بن الأرت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا .

ابن عمر رضي الله عنه : لم يقص على عهد رسول الله ولا عهد أبي بكر ولا عهد عمر وعثمان ، وإنما كانت القصص حين كانت الفتنة .

ابن المبارك : سألت الثوري : من الناس ؟ قال : العلماء ، قلت : من الأشراف قال : المتقون ، قلت : من الملوك ؟ قال الزهاد ، قلت : من العامة ؟ قال : القصاص الذين يأكلون أموال الناس بالكلام

وهب رجل لقاص حائكا بلا قص ، فقال : وهب الله لك في الجنة حوله لا حوله

قيل لبعض السؤال للمتصوفة : إن كل شيء هو فيه سواء كما قد جلس أن يصنع الناس على سواء ، وإن كل شيء هو فيه شر كما قد هلكنا

قال بعضهم : قلت لصوفي بعني حبلك . فقال إذا باع الصياد شبكته بعني

(١) ربيع الأبرار ورقة ٢٨٩

٣ — وقال في النساء ومعاشرتهن[1] : —

عوتب الكسائي في ترك الزواج فقال : مكابدة العدم عنهن أيسر من الاحتياج لصلحتهن .

قيل لأعرابي يجمع بين ضرتين : كيف تقدر عليهن ؟ قال : كل الشتاء يطاوعنني عليها ، ومال يصورهن إلينا ، ثم قد بقي لنا خلق حسن ، فنحن نتعاشره .

خطب بيت دقيانوس غنى وفقير ، فاختار الفقير ، فسأله الإسكندر ، فقال : كان الفتى جاهلا وكان يخاف عليه الفقر ، والفقير عاقلا فكان يرجى له الغنى .

قال مصعب لسكينة : أنت مثل النعلة لا تدرين . قلت : لا والله ولكن أنا كرهي أن يقبل لؤمك .

الأحنف : لأفعى تحكك في يدي أحب إلي من أن يمسني بعض ولدك .

قال عمر رضي الله عنه لرجل هم بطلاق امرأته ورغم أنه لا يحبها : أو كل البيوت تبنى على الحب ، فأين الرعاية والتذمم ؟

قال عبد الملك لابن الرقاع : كيف علمك بالنساء ؟ قال : وما علمي بهن ، وأنشأ يقول :

قُصَاعِيَّةُ العينين كحلاء حُشَّ ... خُزَاعِيَّةُ الأطراف طائيَّة ...

هي الحكم فيما شجرها بيوسف ... ومنطق داود وعفة مريم

سئل بعضهم عن شيمه من النساء ، فقال : بنات العم أحسن مواساة ، والغرائب أحب ، وما ضرب رءوس الأقران مثل ابن السوداء .

أبو عمرو بن العلاء عن رجل : لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى والدي منها . قيل : وكيف ؟ قال : أنظر إلى أبيها وأمها فإنها تجيء بأحدهما

(١) ربيع الأبرار ٣٥٨

الفصل العاشر

فى روضة الشعر

خلف الزمخشرى ديوان شعر فى ١١٩ ورقة[1] ، جمع قصائده متفرقة لمشورة من وقاس كما ذكر فى المقدمة .

فأما موضوعات هذا الديوان وفنونها

١ — المدح ، ففيه مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم[2] ، ومدائح لابن وهاس[3] ، ولنظام الملك[4] ، وللملك سنجر[5] ، ولسعيد الله بن نصار الملك[6] ، ولعبد الله[7] ولعباس الدولة[8] ، ولمجير الدولة[9] ، ولفخر المعالى[10] ، ولوزير محمد[11] ، وللموفق[12] ، ولمحمد حوار زمشاه[13] ، ولمحمد بن أبى الفتح السلجوقى[14] ، ولبنى [illegible] بهمذان فقد زارهم أيام إقامته بالحجاز[15] .

٢ — الشكوى من الزمن ومن الناس ومن معاندة الحظ .

٣ — الغزل .

(١) راجع مؤلفاته (٢) الديوان ٨٩
(٣) الديوان ٢٧ (٤) الديوان ٩٤
(٥) الديوان ٢٠
(٦) الديوان ٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٦
(٧) الديوان ١٤ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٩٩ ، ١٠٣
(٨) الديوان ١٥ (٩) الديوان ٣٢
(١٠) الديوان ٢٢ (١١) الديوان ٣٣
(١٢) الديوان ٧٤ (١٣) الديوان ٨٢ ، ١٠٦
(١٤) الديوان ٨٥ (١٥) الديوان ١٩٠

٤ الفخر .

٥ الحكمة .

٦ الزهد .

٧ — المراسلات والرد على الإخوان والشوق إليهم .

٨ الحنين إلى مكة .

٩ الرثاء ، كرثائه لمحمد بن أرسلان[1] ولسراج الدولة[2] ولابن سمعان[3]

خصائص شعره

١ — أما الطابع العام[4] لشعر الزمخشرى فإنه شعر عالم امتزجت نفسه بالحقائق العلمية وقضاياها ، وأخذ نفسه بمجد الحياة وواقعها ، فكان يتبوع عواطفه وتأملاته ويناصر تاره ، وقلما تفجر دافقا فياضا ، فجاء خياله من القرب الذى لا يحلق فى الآفاق البعيدة ، وجاءت صوره تكريرا للرسوم سابقوه .

وأما أسلوبه فرصين جزل لا تحس فيه بضعف أو تهافت فى أية قصيدة من قصائده .

٢ — وهو يبدأ بعض مدائحه بغزل تمهيدى لا جرأة فيه ، على طريقة كثير من القدماء ، كقوله فى مدح الوزير مجير الدولة الأردستانى[5] :

أيا جبذا سُعْدى وحُبَّ مُقامُها ... وياحبذا أين استقلّ خيامها
حياتى وموتى قربُ سعدى وبُعْدُها ... وعزى وذلى وصْلُها وانصرامها
سلام عليها أين أمست وأصبحت ... وإن كان لا يُقرا علىّ سلامها

(١) الديوان ١٦ ، ٣٢ (٢) الديوان ٣٦
(٣) الديوان ٧
(٤) حينما كنت أقرأ مخطوطة الديوان لأكتب فى تفصيل عن شعر الزمخشرى عرض على أحد أساتذى من طلبة الدراسات العليا أن يعد رسالته عن الزمخشرى الشاعر وتحقيق ديوانه شعرى ، فكتبت هذه الدراسة .
(٥) [illegible] ٢٦٧/٣٠ وقال لما الوزير خلع عليه وأعطاه فرسا وألف دينار

رعى الله سرحًا قد رعى فيه سرحُها ... وروّض أرضًا سام فيها سَوامُها[1]

إذا سَحَبَتْ سعدى بأرضٍ ديولها ... فقد أرغمَ المسكَ الذكيَّ رَغامُها[2]

وإن مايَسَتْ قضبانَ بانٍ رأيتها ... تتكسّرُ وسطى عنها قوامُها

وتمثل هذا الغزل بدأ مدحته لصدر الملك[3].

٢ - ويقدم ليعصها بشكوى من سوء حظه، وانحسار نعمه وجده، والسخط على الدهر الذى جاد على الجهال، وبخل على العلماء، كقوله فى مدحه لنظام الملك[4]:

خليليَّ هل تحدى عليَّ فضائلى ... إذا أنا أقنعْ على كل حالة

من العيش ذو نقص يصيبُ منازلا ... أحو نقص محقوق بتلك بصائر

ومن لى بحق بعد ما وفّرتْ على ... أراذلها الدنيا حقوقَ الأماثل ؟

كذا الدهر كم ثوهاء فى الحى جيدها ... وكم جيدِ حسناء لقلّد عاطل

ومما شجانى أن غرّما قبى ... عنى من الكذبى بعد الصوارم

وصرت إن أقصى البلاد قصدتُها ... وصرت مسير لتيرب رسائلى

وفى دقيق النحو والبقد معطنٌ ... إذا قلته لم أبقِ قولا لقائل

عنى من الآداب لكنى إذا ... نظرتُ فما فى الكف غيرُ الأنامل

فبدلتنى أصبحتُ متعميا ولم أكنْ ... فخرَ خُورَزْمٍ ورأسَ الأفاضل

وبايدى مُرْضٍ صدقى وسُخطه ... عدوى وأنى فى فرهة نقص

(١) سرحها : إبلها وأنعامها . سام فيها سوامها : رعت فيها إبلها .
(٢) الرغام : التراب .
(٣) الديوان ١٢
(٤) الديوان ٩٤

جلستُ بمجلسى بالعلم وانى ... كفسٍّ بإبرٍ أو كحبرٍ بوشى

ويصرح بطلب العطاء فى بعض المدائح، كقوله لنظام الملك[1]:

وكم قلت ألقى فى وزارتك التى ... وأدركُ وحدى ما ارتجى كلُّ آمل

ولم أدر أن الأرذلين يرون ما ... تمنّوا وأنى لست أحظى بطائل

فوقّع إلى هذا الزمان فإنه ... غلامك يجدّنى كبعض الأراذل

وقوله فى مدح عبيد الله[2]:

لقد طفتُ فى نجد البلاد وغورها ... فما كان إلا بالوزير مُعَوّجى

وما أرتجى إلا عطيةَ كفه ... وهل غير هدى الكف كهفٌ لمرتجى ؟

وقوله[3]

وإن لأهل الفضل منك مودة ... فإن الفضائل لابسٌ وودودُ

ومتى بذلت لهم ودادا فليكن ... متخصصا بزيادة محمودُ

ويلاحظ أنه لم يقتصر على الطلب الصراح، بل جهر بأن يؤثره وحده فى قوله: «وأدرك وحدى ما ارتجى كل آمل».

وطلب بأن يكون أعظم نوالا من سواه فى قوله

ومتى بذلتَ لهم ودادا فليكن ... متخصصاً بزيادة محمود

وهو فى هذا الطلب الصراح يشبه جريراً فى قوله لعبدالملك بن مروان[4]:

أعطنى يابن عبدك أبى وأمى ... بسَيْبٍ منك إنك ذو ارتياح

سأشكر إن رددت علىّ ريشى ... وأثبتُ القوادمَ فى جناحى

(١) الديوان ٩٠
(٢) الديوان ٢٢
(٣) الديوان ٣٥
(٤) الأغانى ٥/٦٥

وقوله لعمر بن عبد العزيز[1] :

إنى لآمل منك خيراً عاجلا ... والنفس مولعة بحب العاجل
والله أنزل فى الكتاب فريضةً ... لابن السبيل وللفقير العائل

وشبه المتنبى فى قوله لكافور[2] :

أيا لسك هل فى الكأس فضل أنالهُ ... فإنى أغنى مندمين وتشربُ
وهبتَ على مقدار كفّيْ زماننا ... ونفسى على مقدار كفيك تطلب

وقوله له[3] :

أرى لى بقربى منك عيبا قريبةً ... وإن كان قربا طال منه بُعادُ
وهل يدفعنى أن تُرفّعَ الحجبُ بيننا ... ودُونَ الذى أمّلت منك حجابُ؟
وفى النفس حاجات وفيك فطانة ... سكوتى بيان عندها وخطابُ

٤ — ويبرع فى حسن التخلص من الغزل التمهيدى إلى المدح ، فيصور نفسه مهيض الجناح من كثرة ما صوب الدهر إليه سهامه ، ولكنه صار فى رعاية الأمير الذى يقيه سهام الدهر وحظوظه ، فيقول[4]

أزمعوا السير بُكرةً واستقلوا ... سقط الغيث حيث كانوا وحلوا
استقلوا فكيف لى بحيلة ... وهم يبتاع فيهم لا أستطيع
استحثوا دمى وفىّ صلاح ... وهم صاحبى لا أستحث
عبثتى الدهر وهن صفاف ... نبعة لأبى دلف
واستنزلت سعاد من رزيقا ... ت حصين وحيها وعقيل

(١) ديوان جرير ٤١٥
(٢) ديوان المتنبى ١/١٢٦
(٣) ديوان المتنبى ١/١٣٩
(٤) الديوان ١٠٢

لا تُرَوِّعْكِ كثرةٌ بجناحى ... إنما يُمدَحُ البمانى الأقلّ
عجمتْ عودى النوائب قِدْماً ... تلك آثارها علىّ تدلّ
وأنا اليوم إن عرتنى خطوب ... فلىَ أبيانها الأميرُ الأجلّ
إنما حصرة الأمير لمن يشـ ... ـكو صروفَ الزمان شمسٌ وظلّ

كما حسن التخلص من الشكوى إلى المدح ، فإنه فى قصيدته التى مدح بها نظام الملك[1] صور آلامه من تعاسة حالته ، وارذى ثقافته وكفايته ، وعجب من التفاصى عنه ، والحنو على غيره ، وتخلص من هذا إلى المدح بقوله :

وما حق مثلى أن يكون مُضَيَّعا ... وقد عظمت عند الوزير وسائلى
وأعظمها أنى نسيبُ بمصابه ... إذا عُرِضَتْ أنسابُ هذى القبائل
وقد كان يرعى الناس حتى قعنه ... على عَدَم القُرْبَى وبُعْدِ الوصائل

٥ — ويعنى بالمحسنات ، كما ترى الطباق فى البيت الثانى من الغزل بين حيا وموتى ، وبين قرب وبعد ، وعز وذل ، ووصل وانصرام ، وكما ترى فى البيت الثالث بين (سلام عليها) و (إن كان لا يقرا على سلامها) وبين أمست وأصبحت .

وقد جانس فى البيت الرابع بين (رعى الله) بمعنى حفظ من الرعاية و(رعى فيه سرحها) من الرعى والأكل ، وبين (سرحا) و (سرحها) وبين (روّض) و (أرضا) و (سام) و (سوام) .

وهذا التكلف بالمحسنات واضح فى قوله يمدح بنى زرير[2] .

كم قطعت فى حُورَ زَمّ عند تَرَحُّلى ... لركائبى سيرى إلى هَمْدانا
وبنى الكرام بنى زُرَيرٍ لم تزل ... تحمو نبات غَرِيرِ الأوطانا[3]

(١) سنفت أبيات منها فى طريقته الى بدأ بها قصائد المدح .
(٢) ديوان ١١٠ (٣) نبات غرير : الطيور

وسمو [illegible] إلا على قصدت من [illegible]

٦ — وهو حين يعتد على وصفه قد يجنح إلى المبالغة، لأنه يندمج مع الفكرة أو مع الشعور، كقوله فى تصوير صيقه بالإقامة فى خوارزم[1]:

أحبُّ بلاد الله شرقا ومغربا ... إليَّ التى فيها غُذيت وليد
ولكن توسى بالكرامة غيرُها ... وهذى أرى فيها الهوان عتيدا
وما منزل لإذلال للحر منزلا ... وإن كان عيش الحر فيه رغيدا
سأرحل عنها ثم لست براجع ... وأصبرُ مرمى فى البلاد بعيد
فلا كنت إن صحّتْ فيها انّ حرة ... ولا عشت بين الصالحين حميدا

وقوله وهو قاصد مكة عازم على الإقامة بها حتى الموت[2]:

هامت لتسعى المسير تُماضرُ ... أنَّى لها وغرارُ عزمى باترُ
سيرى تماضر حيث شئتِ وحدِّثى ... أنى إلى بطحاء مكة صائر
حتى أسيح وبين أطرافى فتًى ... للكعبة البيت الحرام مجاور
سأفيء ثمَّ وثَمَّ تدفنُ أعظمى ... ولسوف يبعثنى هناك الحاشر

وقوله فى مدح ابن وهب[3]:

فتًى هو حالٍ بالمعالى بأسره ... وقد حويتْ منه المعالى بأوحدا
يحيطُ ثمانه من ذؤابة هاشمٍ ... بمنتْ أعراقٍ أطابته مولدا
ولو شاء لم يعتدَّ بمحمد هشم ... بصابا كفاه بالسوة تحتدا

(١) الديوان : ٣٧
(٢) الديوان : ٤٢ .
(٣) الديوان ٢٨

وقرأ من سيماه فى شمائله ... شرفا حوى أنه [illegible] أحمد
هو الحرُّ ما أصدَى إلى بيض معشر ... ولا ذمَّه إلا نفيتُ به الصدى
ولى منه نُصحُ الجيب والعُقدة التى ... [illegible] ولى [illegible] بعدا

٧ - وقد يلجأ إلى المبالغة الدالة على نصوب العاطفة، كقوله فى مدح الملك سنجر[1]:

سمَّاه كل الناس كنية مؤدِّدٍ ... أهلُ الحوائج منهمُ حُجَّاجها
وكأنَّ اسمك سنجر كعبة ... للملك منتجب الملوك رتاجها
كم السياسة وهى أصعب مركب ... فتطامنت لركوبه أنتاجها
[illegible] ذوهم فما إلحامها ... إلا على يده ولا إسراجها
[illegible] كم النجوم لما بدتْ ... أفرادها عنه ولا أزواجها
جهمُ المحيا للعدا طلقٌ إذا ... صيفاته برقتْ به أفواجها
[illegible] منك لحر تلاعبتْ أمواجها
تستغى الحقيقةَ فى أمورك كلها ... إن الحقيقة واضحٌ منهاجها
[illegible] عندك شتمهُ غيرهم ... لازندٌ كالعذب الفرات أجاجها

والمبالغة المعرقة واضحة فى كثير من الأبيات وخاصة البيت الخامس والتاسع.

٨ — وللرمحشرى حكم صاغها شعراً، كما أن له حكماً كثيرة صاغها نثراً، ولكن حكمه الشعرية لا ترقى إلى أوج حكم المتنبى وأبى العلاء، لأنها لا تصور دخائل النفوس، واصطراع العواطف ومشكلات الأفراد والجماعات،

(١) الديوان ٢٠

والطب الناجع فى علاج هذه المشكلات ، وإنما هى أقرب إلى الوعظ المألوف والنصح المعتاد ، كقوله[1] :

ليسَ السيادةُ أكلاماً مطرَّزةً ... ولا مراكيبَ يجرى فوقها الذهب
وإنما هى أفعال مذهبــــةٌ ... ومكرماتٌ يليها العقل والأدب
وما أحوالمجد إلا من سعى شرفاً ... بما تهون عليــــه النفس والنشب
وأفضل الناس حرٌّ ليس يعلمه ... على الحجا شبهةٌ فيه ولا عصب

(١) الديوان ٨

خاتمة المطاف

أما بعد ، فقد آن للقلم أن يتوقف بعد تطواف طويل الشقة ، لكنه رغيب الجهد ، حبيب المشقة ، لتبين للعالم البارزة من الرحلة فى صحبة الزمخشرى . فما هذه المعالم ؟ .

١ — لقد رحلنا بعقل العربية وآدابها ، والعلوم الإسلامية وفروعها ، وصوره الصحيحة فى زمخشر مدينة وإقليما وفيما حولها ، وأشرقت علينا من سماء المنطقة كلها نجوم شع علمها وأدبها على الشرق وعلى الغرب من بخارى إلى قرطبة ، وما تزال أشعتها تنير الطرق للباحثين والدارسين

٢ — ورأينا اللغة العربية والثقافة الإسلامية لم تنتشر هنالك فحسب ، بل استقرت استقراراً مطمئناً ، فصبغت مناطق واسعة شاسعة عدة قرون ، ثم صارت كلها أو أكثرها اليوم من الأمجاد السوفيتى ، فياحسرتنا عليها . ومعنى هذا أن العرب لم يقوموا وحدهم بنشر لغتهم وثقافتهم ودينهم ، بل إن سكان تلك الأقاليم شاركوهم إذ سارعوا إلى الإسلام فاعتنقوه ، وأقبلوا على علومه ، وبادروا إلى اللغة العربية فداروا بها ألسنتهم ، وأحروا أقلامهم ، واصطنعوها لغة لهم ، ثم ابدعوا فى آدابها وثقافتها فانتقلوا إلى العروبة انتقالا ، وإن شئت قل إنهم استعربوا استعرابا ، حتى صاروا ينافسون العرب فى لغتهم العربية ، والتأليف فيها ، والغوص على أسرارها ، وكان كثير من الأمراء والوزراء كلفا بالعلوم العربية والإسلامية ، حفيا بالأدب والأدباء ، حتى لكأنهم بنو العباس فى عصرهم الذهبى ببغداد .

٣ — ورأيته لرحلة فى طلب العلم أحدى وسائل طلابه ، إذ كان يعد الرحلة مقصد العطاش إلى المعرفة يؤمونه من بلاد نائية ، كما ينقل الزمخشرى من إقليم إلى آخر ، واستقى من مدينة بعد مدينة ، ودرس على هذا وسمع من ذاك ، ولم يأنف — وقد بلغ مرتبة المناظرة للعلماء — أن يجلس من أستاذ كبير جلسة المتعلم الشوق إلى أن يجيء أستاذه

٤ — ومن شأن كل مشهور بمعرفة تفرد بها من الأمة بزة ومن كتبه شروح شروحت ثقافته ، وتعددت مؤلفاته ، وكثر الآخذون عنه والمحبون له ، فشمل معاصريه ومن بعدهم ، سواء فى ذلك موافقوه ومخالفوه ، وما زال بعض كتبه من المنابع الأصيلة للفكر العربى الإسلامى إلى اليوم ، كالكشاف وفنونه ، وأساس البلاغة وحقائقه ومجازاته ، والمفصل وشروحه

٥ — ومن [illegible] الزمخشرى بأنه كان أبرع المعتزلة و[illegible] فى عصره ، وفى حقه أن يعد [illegible] كل يريد من هذا التأويل الذى تنزه عنه نفسه إلا أن ينزه الخالق سبحانه وتعالى عن أية شبهة قد تتسرب منها المشابهة لمخلوقاته أو المماثلة ، فقد كان الرجل عريق التدين ، عميق الإيمان ، عظيم التقوى ، غيوراً على الإسلام أشد الغيرة .

٦ — كذلك كان الزمخشرى أول من فرق بين علوم البلاغة وقسمها إلى معان وبيان ، وجعل البديع تابعا لهما وحلية ، ثم جرى فى هذا التقسيم السكاكى ومن بعده إلى اليوم

٧ — وهو صاحب السبق إلى تأليف معجم لغوى مرتب على الحروف الهجائية ، هذا الترتيب الدقيق السهل الذى نجده فى أساس البلاغة ، كما نجد شبيها به فى كتابيه الآخرين الفائق والمستقصى

٨ — على أنه قد كان — وهو فارسى الأصل — مفرغا بالعربية يفضلها على سائر اللغات ، ومؤثرا للعرب يرفعهم إلى أسمى الدرجات ، لأنه ربط ربطا

وثيقاً بين العروبة والإسلام ، وبين حب العروبة والإسلام ، وكان يخشى من الشعوبيه على البلاد التى أسلمت واستعربت ، لأن الذى يعوق على العرب اليوم سينعق على الإسلام فى الغد ، ولأن وحدة اللغة والثقافة والعقيدة والحضارة والتاريخ والوجدان المشترك كلها دعائم وطيدة فى حصن الإسلام ، يستند بعضها بعضا ، فلا بد من الحفاظ عليها موصولة متساندة ، وإلا تطرق الوهن إلى الصرح الأشم الذى تتربص به أعداء الاسلام أينما تربص .

٩ — وعلى الذين يتهمون اللغة العربية بالعقم والجمود أو العرارة أن يرجعوا إلى مؤلفات الزمخشرى ، ليعلموا أن العربية ثروة مرنة تثور ، اتسعت فى مؤلفاته للتعبير الدقيق عن قضايا التشريع وعلم الكلام والفلسفة والنحو والبلاغة ، وسلست لنثره الفنى ولشعره ، كما وسعت العلوم التى مارسها سابقوه ومعاصروه ولاحقوه ، ولم تتعثر إلا حين تعثر أهلها ، وتخلفوا عن مسايرة الزمن ، لأن اللغات لا تحيا وحدها بمعزل عن المجتمع الذى يتكلم بها ويقرأ ويؤلف ويعبر .

١٠ — والخير لمن ينصرفون عن العلوم والآداب طموحا إلى متاع زائل أن [illegible] الزمخشرى [illegible] أول حياته ، ثم تغلب على مثل هذا الطموح ، وصرف [illegible] لإتاج ، لأنه وجد فيه المجد الذى لا يفنى ، والجاه الذى لا يحول ، والسعادة التى لا يرتقبها شقى ، حتى لقد سمعت من مؤلفاته من يرجعه ويبين ما فضلها عليهم تفضيلا .

١١ — وهل لأمل أن يشرق هذه الكلمة التى توارت ، فقد كان كتابه (المستقصى فى أمثال العرب) مختبئا لم يطبع إلا منذ ثلاث سنوات ، ولعل فيه أو فى عدد منها فيضا غزيرا يروى الظمئين .

وأرجو أن يصبح [illegible] شعر الزمخشر يتراوح بين التوسط والجودة ، وهو فى جيده صورة لبعض معالم المجتمع الذى عاصره ، ولبعض الأحداث التى مرت به ، وهو صورة نفسه [illegible] فى درجاته

المراجع

١ — أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . شمس الدين المقدسى . ليدن سنة ١٩٠٢

٢ — أساس البلاغة . الزمخشرى . مطبعة دار الكتب بالقاهرة (١٣٤١ هـ ١٩٢٢ م)

٣ — أطواق الذهب فى المواعظ والخطب . الزمخشرى . بشرح الشيخ يوسف الأسير . الطبعة الثالثة ببيروت سنة ١٣١٤ هـ

٤ — أعجب العجب فى شرح لامية العرب . الزمخشرى . الطبعة الثانية سنة ١٣٢٤ هـ .

٥ — الأعلام — لخير الدين الزركلى . الطبعة الثانية

٦ — أمالى المرتضى . السيد المرتضى . القاهرة سنة ١٩٠٧ .

٧ — إنباه الرواة على أنباه النحاة . القفطى . تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . مطبعة دار الكتب سنة ١٣٧٤ هـ . ١٩٥٥ م .

٨ — الأنموذج فى النحو . الزمخشرى . مطبعة الجوائب بقسطنطينية سنة ١٢٩٩ هـ .

٩ — الانتصار . أبو الحسين الخياط . القاهرة ١٩٢٥ م

١٠ — الانتصاف من الكشاف . أحمد بن المنير الاسكندرى . على هامش الكشاف

١١ — الأنساب . السمعانى . نسخة مصورة سنة ١٩١٢ م

١٢ — إيران فى عهد الساسانيين . كريستنسن . ترجمة الدكتور يحيى الخشاب . القاهرة ١٩٥٧ م

١٣ — البداية والنهاية فى التاريخ . ابن كثير . مطبعة السعادة بمصر .

١٤ — البصائر والذخائر . أبو حيان التوحيدى . تحقيق الأستاذين أحمد أمين والسيد طبانة صقر . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٧٣ هـ . ١٩٥٣ م

١٥ — بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة . السيوطى . مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦ هـ .

١٦ — البلاغة العربية : تاريخ وتطور . الدكتور شوقى ضيف . دار المعارف سنة ١٩٦٥ . القاهرة

١٧ — البيان والتبيين . الجاحظ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٦٧ هـ سنة ١٩٤٨ م

١٨ — تاريخ آداب اللغة العربية . جورجى زيدان . دار الهلال سنة ١٩٥٧ .

١٩ — تاريخ آل سلجوق . العماد الأصفهانى . مطبعة دار التأليف بمصر .

٢٠ — تاريخ أبى الفدا . المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٢٥ هـ .

٢١ — تاريخ الأدب فى إيران . براون . ترجمة الدكتور أمين الشوربجى . مطبعة السعادة . سنة ١٣٧٣ هـ . سنة ١٩٥٤ م .

٢٢ — تاريخ الحضارة الإسلامية . ف . بارتولد . ترجمة الأستاذ حمزة طاهر . مطبعة دار المعارف .

٢٣ — تاريخ الرسل والملوك . الطبرى . المطبعة الحسينية بمصر .

٢٤ — تاريخ الفلسفة فى الإسلام . دى بور . ترجمة الدكتور محمد أبو ريده . القاهرة سنة ١٩٢٣ م

٢٥ — ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن . مطبعة دار المعارف .

٢٦ — ثلاث رسائل للجاحظ [illegible]

٢٧ — الجبال والأمكنة والمياه . الزمخشري . ليدن سنة ١٨٥٥ م

٢٨ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية . فون كريمر ترجمة الدكتور مصطفى بدر .

٢٩ — الحيوان . للجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

٣٠ الدولة الخوارزمية والمغول . الأستاذ حافظ حمدي . مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٩ م

٣١ الدولة العباسية . الأستاذ حسن خليفة . الطبعة الأولى

٣٢ — ديوان جرير . مطبعة الصاوي بالقاهرة .

٣٣ - ديوان الزمخشري . مخطوط بدار الكتب . أدب ٥٢٩ .

٣٤ — ديوان المتنبي . بشرح البرقوقي المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٨هـ ١٩٣٠ م

٣٥ ربيع الأبرار ونصوص الأخبار . الزمخشري مخطوط بدار الكتب ١٥٥ أدب .

٣٦ — الرحلة المغربية . محمد العبدري البلنسي . تحقيق الأستاذ أحمد بن حدو . بشركة الآداب الجزائرية

٣٧ الرسالة القشيرية . القشيري

٣٨ — زرادشت الحكيم . الأستاذ حامد عبد القادر . مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٦ م .

٣٩ — سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون . ابن نباتة . تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم

٤٠ سلاجقة إيران والعراق . الدكتور عبد المنعم حسنين . القاهرة سنة ١٩٥٩ م

٤١ — سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي . محمد بن أحمد النسوي ، تحقيق الأستاذ حافظ حمدي مطبعة دار الفكر العربي سنة ١٩٥٣ .

٤٢ — شرح أدب الكاتب . الجواليقي . مطبعة القدسي سنة ١٣٥٠ هـ

٤٣ - شرح المفصل . موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش - إدارة الطباعة المنيرية بمصر .

٤٤ ضحى الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة دار التأليف سنة ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م

٤٥ — طبقات الشافعية الكبرى . السبكي . المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٥٤

٤٦ — طبقات المفسرين . السيوطي . طبعة أوروبا .

٤٧ - الطراز يحيى بن حمزة العلوي . مطبعة المقتطف سنة ١٣٣٣ هـ سنة ١٩١٤ م .

٤٨ — ظهر الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م .

٤٩ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح . بهاء الدين السبكي من شروح التلخيص القاهرة ١٣٤٢ هـ .

٥٠ علم الأخلاق لأرسطو . ترجمة الدكتور أحمد لطفي السيد .

٥١ عيون الأخبار . ابن قتيبة . مطبعة دار الكتب بالقاهرة .

٥٢ الفائق في غريب الحديث . الزمخشري . تحقيق الأستاذين علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم

٥٣ ـ الفرق بين الفرق . البغدادى مطبعة الحسنى ١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م

٥٤ فى علم النفس . الأستاذ حامد عبدالقادر والأستاذ محمد عطية الإبراشى

٥٥ ـ القاموس المحيط . الفيروز بادى

٥٦ ـ قلائد الأدب فى شرح أطواق الذهب . للميرزا يوسف خان . مطبعة التمدن بمصر سنة ١٣٢١ هـ

٥٧ ـ الكامل فى التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .

٥٨ ـ الكشاف . الزمخشرى . الطبعة الأولى بالمطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ

٥٩ ـ كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . حاجى خليفة . الطبعة الأولى سنة ١٣١١ هـ

٦٠ ـ لسان الميزان . ابن حجر العسقلانى . الطبعة الأولى بالهند سنة ١٣٣١ هـ

٦١ ـ مجموعة رسائل للمحاط . طبعة سامى

٦٢ ـ محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية . محمد الخضرى الطبعة الرابعة سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤ م

٦٣ ـ مختصر ... تاريخ العرب ... مصر على مصطفى مطبعة لجنة التأليف ١٩٣٨ م

٦٤ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان . أبو محمد عبدالله بن أسعد اليافعى . الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣٣٨ هـ .

٦٥ ـ المستقصى فى أمثال العرب . الزمخشرى . مطبعة حيدر آباد الدكن سنة ١٣٨١ هـ ـ سنة ١٩٦٢ م

٦٦ ـ معجم الأدباء . ياقوت طبعة الدكتور فريد رفاعى

٦٧ ـ معجم البلدان . ياقوت . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م

٦٨ ـ مفاتيح الغيب . الفخر الرازى . المطبعة الأميرية ١٢٨٩ هـ

٦٩ ـ مفتاح العلوم ـ السكاكى .

٧٠ ـ مقامات الزمخشرى . بشرح الزمخشرى . الطبعة الكاثوليكية بمصر ١٣٢٥ هـ

٧١ ـ مقدمة الأدب . الزمخشرى . القسم الأول والثانى . مطبعة ليبسيك ١٨٤٣ م والقسم الثانى إلى الخامس مخطوط بدار الكتب ٢٧٢ لغة .

٧٢ ـ مقدمة ابن خلدون . تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى . مطبعة لجنة البيان العربى بمصر

٧٣ ـ الملل والنحل ... الشهرستانى ... جمعية ... بمصر

٧٤ ـ منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن . الدكتور مصطفى الحوانى . دار المعارف

٧٥ ـ المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل . المرتضى . مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣١٦ هـ

٧٦ ـ منتخب رحلة ابن بطوطة . الأستاذ أحمد العوامرى والأستاذ محمد أحمد جاد المولى . المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٣٩ م

٧٧ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . المقريزى . القاهرة ١٣٢٦ هـ

٨٧ ـ ميزان الاعتدال فى معرفة الرجال . شمس الدين الذهبى . مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ

٧٩ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . ابن تغرى بردى . مطبعة دار الكتب سنة ١٣٥٣ هـ ـ سنة ١٩٣٥ م

٨٠ ـ نزهة الألباء فى طبقات الأدباء . ابن الأنبارى . طبعة مصر سنة ١٢٩٤ هـ

٨١ ـ نعت العلم والعلماء . ابن الجوزى . مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٠ هـ

٨٢ ـ نوابغ الكلم . الزمخشري . الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٢ هـ ـ سنة ١٩١٤ م

٨٣ وفيات الأعيان . ابن خلكان . تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٤٨ م

٨٤ ـ يتيمة الدهر الثعالبي مطبعة الحميدية بدمشق سنة ١٣٠ هـ

الفهرس

مقدمة ٣

تمهيد

بيئته

١ — خوارزم ٥ ٩

موقعها ، مكانتها بعد الفتح ، وصفها قديما : وصف المقدسي ، وصف ياقوت ، وصف ابن بطوطه ، بعض مدنها ، مدينة زمخشر .

٢ — الحياة السياسية ٩ ١٤

خضوع البلاد للحكم العربي مدة ، خضوعها للدولة السامانية ، عناية السامانيين باللغة الفارسية واللغة العربية ، حدبهم على السنة .

خضوعها للدولة السلجوقية ، آثار الوزير نظام الملك في تشجيع العلوم والآداب

خضوعها للدولة الخوارزمية ، السلاطين الذين أدركهم الزمخشري :

٣ — الحياة الثقافية . . . . . ١٥ — ٣٤

كلمة عامة عن استعراب أقاليم خراسان وخوارزم وما وراء النهر ، كثرة العلماء والمؤلفين والمدارس والمكتبات هناك ، تشجيع الحكام للحركة الفكرية والأدبية ، مدى أهل خوارزم في اتجاههم الفكري .

(لمحة إلى إقليم خوارزم بخاصة ، ١٦)

من الأمير المعتصم والد الزمخشري كان له شغف بتشجيع العلم والأدب ،

ديوان الإنشاء ، إنتاج العلماء والأدباء بالفارسية والعربية ، أمثلة لهم ، منهج المؤلفين فى النحو والصرف والعروض ، منهجهم فى اللغة ، منهجهم فى البلاغة .

المعتزلة (٢٣) . كثرتهم بالعراق وفارس وخراسان وما حاورها ، تأييد البويهيين لهم ، غلبة الاعتزال على خوارزم .

القضاء (٢٥) : سنة مذهب أبى حنيفة ، نظام التقاضى .

لمحة إلى المصنفة كلها (٢٦)

كثرة العلماء والمؤلفين والأدباء ، جهود البويهيين والسامانيين والسلاجقة فى تنشيط العلم والأدب ، فضل الوزير نظام الملك ، المكتبات وأثرها ، علماء الحديث والفقه ، علماء اللغة والأدب ، تلاميذه ، المصنفة

الفصل الأول ٣٥ - ٤٧

حياته

اسمه ، مولده ، دراسته بزمخشر ، رحلته إلى بخارى (٣٥) مدحه نظام الملك ، دلالة هذا المدح (٣٦) مدحه ... ، مدحه بعض رجال الدولة (٣٨) دلالة هذا المدح (٣٩) أرخصه بعض أصحابه السلاجقة ، مدحه الملوك (٤٠) بقية من هؤلاء جميعا ، عكوفه على التدريس والتأليف ، رحلته إلى بغداد (٤١) اتجاهه إلى مكة ليقيم بها ، حفاوة أميرها ابن وهاس به (٤٢) ضمنته بن لإقامته بمكة ... (٤٣) ... عودته إلى وطنه ، لومه نفسه على هذه العودة (٤٤) رجوعه إلى مكة ، تعريجه على الشام ، تشجيع ابن وهاس له على تأليف الكشاف (٤٥) سفره إلى خوارزم ، تعريجه على بغداد (٤٦) إقامته بخوارزم حتى الوفاة (٤٧) .

الفصل الثانى ٤٨ — ٥١

أساتذته

أبو مضر محمود بن جرير الضبى (٤٨) ، علماء بخارى ، أبو منصور الحارثى ، أبو سعد الشقانى ، أبو الخطاب بن أبى البطر (٤٩) أبو على الحسن بن المظفر النيسابورى (٥٠) الدامغانى ، ابن الشجرى ، أبو منصور ابن الجواليقى ، عبد الله ابن طلحة اليابرى (٥١) .

الفصل الثالث ٥٢ — ٥٥

تلاميذه

كثرة تلاميذه فى خراسان والعراق وخوارزم ، أشهرهم (٥٢ — ٥٤) استجارة بعضهم به (٥٤) تلاميذ كتبه (٥٥) .

الفصل الرابع ٥٦ — ٦٣

مؤلفاته

جهود خوارزم فى خدمة الإسلام ، أثر النهضة العلمية والأدبية التى بعث أوجها فى العصر ... (٥٦) سعة ... بخشرى بالتدريس والبحث ، فراغه ، سعة صدره ، كتبه عن المسائل (٥٧)

مؤلفاته فى العلوم الدينية ورجالها (٥٨)

مؤلفاته فى اللغة (٥٩)

مؤلفاته فى النحو (٦٠)

مؤلفاته فى العروض (٦١)

مؤلفاته فى الأدب (٦١)

الفصل الخامس ٦٤ — ٩٨

معالم شخصيته

معنى الشخصيه (٦٤) صفاته الحسدية (٦٥) شغفه بالثقافة (٦٥) اعتزاله (٦٧) عزة نفسه (٧٠) بين الطموح والقناعة (٧٣) تدينه (٧٨) تواضعه (٨٤) حبه للعرب والعربية (٨٨) قسوته على مخالفيه (٩١) عزوبته (٩٦)

الفصل السادس ٩٩ — ٢٤٤

في رحاب التفسير والتأويل

لمحة إلى التفسير قبل الزمخشري (٩٩) عدة المفسر في رأي الزمخشري (١٠٠) تأثره بعبد القاهر الجرجاني (١٠٢) المعتزلة الذين سبقوه إلى التأويل (١٠٣) القاضي عبد الجبار الهمذاني وجهوده (١٠٤).

الكشاف

الباعث على تأليفه (١٠٨) بعض من نقل عنهم: القاضي عبد الجبار، مجاهد، عمرو بن عبيد (١٠٩) أبو بكر الأصم، الزجاج (١١٠) الرماني، عبد الله بن دستوريه، سيبويه، الجاحظ، الواقدي، مئات من القراء واللغويين والنحاة والفقهاء والمفسرين (١١١)

أهم مباحث الكشاف

أولا — في خضم المعتزلة

لمحة إلى المعتزلة ونشأة مذهبهم (١١٢)

أصول المعتزلة وكيف أيدها الزمخشري (١١٩)

(١) التوحيد

معناه عندهم (١١٩) معتقدات بنوها على التوحيد:

١ نفي الصفات المستقلة القديمة (١٢٠)

٢ نفي التشبيه (١٢١).

تأويل الزمخشري لقوله تعالى: «ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني»، تعليق ابن المنير (١٢١).

تأويله لقوله تعالى: «ثم جعلناكم خلائف في الأرض لننظر كيف تعملون» (١١٢) تعليق ابن المنير (١٢٣)

تأويله لقوله تعالى: «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يلحدون في أسمائه»، تعليق ابن المنير (١٢٣).

تأويله لقوله تعالى: «وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون» (١٢٤) تعليق ابن المنير (١٢٥)،.

تأويله لقوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى» (١٢٥)

تأويله لقوله تعالى: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم» (١٢٦)

تأويله لقوله تعالى: «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» (١٢٦).

تأويله لقوله تعالى: «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» (١٢٦) تعليق ابن المنير (١٢٧)

٣ إنكارهم رؤية الله في الآخرة

تأويل الزمخشري لقوله تعالى: «ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك، قال لن تراني .....» (١٢٧)، تعليق ابن المنير (١٣٠)

تأويله لقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » (١٣٤) تعليق ابن المنير (١٣٤)

تأويله لقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » (١٣٥)

٤ — رأيهم فى أن القرآن مخلوق

تأويل الزمخشرى لقوله تعالى: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » (١٣٦) تعليق ابن المنير (١٣٧)

(٢) العدل

١ — معناه عندهم (١٣٧) تأويل الزمخشرى لقوله تعالى: « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » (١٣٨) تعليق ابن المنير (١٣٩)

٢ — نظرية الصلاح والأصلح (١٤٠) تأويل الزمخشرى لقوله تعالى : « وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين » (١٤) تعليق ابن المنير (١٤١) .

تأويله لقوله تعالى: « فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى » (١٤٢)

تأويله لقوله تعالى : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » (١٤٢) تعليق ابن المنير (١٤٢)

تأويله لقوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن بيوتهم سقفا من فضة . . . » (١٤٣) تعليق ابن المنير (١٤٣)

تأويله لقوله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » (١٤٤).

٣ — نظرية الحسن والقبح الذاتيين (١٤٤)

تأويل الزمخشرى لقوله تعالى : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (١٤٥) تعليق ابن المنير (١٤٦) .

تأويله لقوله تعالى : « وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » (١٤٦) تعليق ابن المنير (١٤٧) .

تأويله لقوله تعالى: «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها» (١٤٧) تعليق ابن المنير (١٤٧) .

(٣) حرية العباد

معنى هذه الحرية (١٤٨) تسميتهم أنفسهم أهل العدل (١٤٨) لماذا أطلق عليهم خصومهم لفظ القدرية (١٤٨) تبرؤهم من هذه التسمية ، أدلتهم على مذهبهم (١٤٩) توسط الأشعرى بين مذهبهم ومذهب الجبرية (١٥٠) .

تأويل الزمخشرى لقوله تعالى : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » (١٥٠) تعليق ابن المنير (١٥٠) .

تأويله لقوله تعالى : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » (١٥١) تعليق ابن المنير (١٥١)

تأويله لقوله تعالى : « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم . . . . » (١٥١) تعليق ابن المنير (١٥٢) .

تأويله لقوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » (١٥٣) .

تأويله لقوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (١٥٣) تعليق ابن المنير (١٥٤) .

(٤) الوعد والوعيد

معناه (١٥٥) تأويل الزمخشرى لقوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (١٥٥) تعليق ابن المنير (١٥٦) .

تأويله لقوله تعالى : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها (١٥٧) تعليق ابن المنير (١٥٧) .

تأويله لقوله تعالى : « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة .... » (١٥٨) تعليق ابن المنير (١٥٨) .

تأويله لقوله تعالى : « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » (١٥٩) تعليق ابن المنير (١٥٩) .

(٥) المنزلة بين المنزلتين

منشأ الخلاف فى الحكم على مرتكب الكبيرة (١٥٩) الآراء فى ذلك (١٦٠) دليل المعتزلة (١٦٠) تأويل الزمخشرى لقوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » (١٦١) تعليق ابن المنير (١٦١) .

تأويله لقوله تعالى : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » (١٦١)

تأويله لقوله تعالى : « وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً .... » (١٦٢)

تأويله لقوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (١٦٢) تعليق ابن المنير (١٦٣) .

تأويله لقوله تعالى : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم .... » (١٦٣) تعليق ابن المنير (١٦٤) .

تأويله لقوله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً (١٦٤)

تأويله لقوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » (١٦٥) .

تأويله لقوله تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » إن ربك واسع المغفرة » (١٦٥) .

(٦) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

مراجعها (١٦٥) رأى الزمخشرى (١٦٦)

ثانياً — مذاهب فقهية

لم يقتصر الزمخشرى على مذهبه الحنفى (١٦٧) أمثلة من عرضه للأحكام الفقهية :

فى قوله تعالى : « فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم » (١٦٧) .

فى قوله تعالى : « واذكروا الله فى أيام معدودات فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه » (١٦٧)

فى قوله تعالى : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض » (١٦٨)

وقوله تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة .... (١٦٨)

فى قوله تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » (١٦٨)

فى قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » (١٦٩)

فى قوله تعالى : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم (١٦٩)

فى قوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ... » (١٧٠)

فى قوله تعالى : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (١٧١)

فى قوله تعالى : « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ... » (١٧٢)

فى قوله تعالى : « يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » (١٧٣)

ثالثا — قراءات

عنايته بذكر كثير من القراءات (١٧٥) ذكره للمصاحف (١٧٥) ذكره لروايات شتى (١٧٥) أمثلة بقراءات :

فى قوله تعالى : « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » (١٧٦)

فى قوله تعالى : « وإذا ابتلى إبراهيم ربه » (١٧٦)

فى قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » (١٧٦)

فى قوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » (١٧٦)

فى قوله تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين . . » (١٧٧)

فى قوله تعالى : « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف » (١٧٧)

فى قوله تعالى : « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » (١٧٧)

فى قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » (١٧٧)

فى قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » (١٧٧)

فى قوله تعالى : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ... » (١٧٧)

فى قوله تعالى : « قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » (١٧٨)

فى قوله تعالى : « أم لهم نصيب من الملك فإذن لا يؤتون الناس نقيرا » (١٧٨)

فى قوله تعالى : « سماعون للكذب أكالون للسحت » (١٧٨)

فى قوله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (١٧٩)

فى قوله تعالى : « ليكفر عنهم أسوأ الذى عملوا » (١٧٩)

فى قوله تعالى : « وما هو على الغيب بضنين » (١٧٩)

مفاضلة بين القراءات

فى قوله تعالى : « وإنا لجميع حذرون » (١٨٠)

فى قوله تعالى : « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ... » (١٨٠)

فى قوله تعالى : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم » (١٨١)

استبعاده القراءات الشاذة وإنكارها

فى قوله تعالى : « أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله هدى الناس جميعا » (١٨١)

رابعا — آراء نحوية

عرضه [illegible] (١٨٢) أمثلة [illegible]

فى قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » (١٨٢)

فى قوله تعالى : « ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » (١٨٣)

فى [illegible] : إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره : » (١٨٤)

فى قوله بعض « فهل لكم من القوم من فسكم أو عصبة منهم من المسد فى الأرض » (١٨٥)

فى قوله تعالى : « وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ... » (١٨٥)

فى قوله تعالى : « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا » (١٨٦)

فى قوله تعالى : « لا أقسم بيوم القيامة » (١٨٧)

خامسا — مسائل لغوية

حرصه على تحية بعض الدلالات الدقيقة (١٨٩) .

فى قوله تعالى : « والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » (١٨٩) .

فى قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » (١٩٠)

فى قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » (١٩٠)

فى قوله تعالى: «وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون»(١٩١)

فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ... » (١٩١)

فى قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها ... » (١٩٢)

فى قوله تعالى : « ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا عينا فيها تسمى سلسبيلا » (١٩٣)

فى قوله تعالى : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » (١٩٤)

فى قوله تعالى : « وكلموا ... » (١٩٤)

سادسا — نصوص شعرية

استشهاده بالشعر كاستشهاده بقوله (١٩٥) وجريه لإسلامه بشعر كله (١٩٥) أمثلة من استشهاده بالشعر فى تفسيره :

فى قوله تعالى : « والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم »(١٩٦)

فى قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » (١٩٧)

فى قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » (١٩٧)

فى قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا » (١٩٨)

فى قوله تعالى : « يطاف عليهم بكأس من معين » (١٩٩)

فى قوله تعالى : « وإنه لحب الخير لشديد » (١٩٩)

فى قوله تعالى : «إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها»(١٩٩)

سابعا — بلاغة ونقد

تمهيد (٢٠٠) كثرة البحث والأدباء والفلاسفة من المعتزلة (٢٠٠) عنايتهم بالكشف عن وجوه الإعجاز البلاغى (٢٠١) انتفاع الزمخشرى بدراسات المعتزلة والأشعرية وعبد القاهر الجرجانى (٢٠١) تفرقة الزمخشرى بين علمى البيان والمعانى (٢٠٢) ، رأيه أن علم البديع تابع لهما (٢٠٣) تأثر السكاكى بالزمخشرى (٢٠٣) تأثر يحيى بن حمزة العلوى به (٢٠٤)

أمثلة مما ذكره من علم البيان :

١ — التشبيه

فى قوله تعالى : « إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر » (٢٠٥)

٢ — تشبيه التمثيل

فى قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً . . . . » (٢٠٦)

٣ — الاستعارة :

فى الآية السابقة

فى قوله تعالى : « ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » (٢٠٩)

فى قوله تعالى : « وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » (٢١٠)

الاستعارة المرشحة فى قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » (٢١١)

فى قوله تعالى : « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم » (٢١١)

٤ — الكناية ، تفرقته بينها وبين التعريض (٢١٢) أمثلة لها :

فى قوله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم » (٢١٢)

فى قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (٢١٣)

فى قوله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ... » (٢١٣)

فى قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (٢١٤)

فى قوله تعالى : « إذا زلزلت الأرض زلزالها . . . . . » (٢١٤)

فى قوله تعالى : « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » (٢١٤)

٥ — المجاز المرسل ، حقيقته ، أمثلة له :

فى قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها . . » (٢١٥)

فى قوله تعالى : « كل شىء هالك إلا وجهه » (٢١٦)

فى قوله تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (٢١٦)

٦ — المجاز العقلى ، معناه ، أمثلة له :

فى قوله تعالى : « يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً » [٢١٦]

فى قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » [٢١٧]

فى قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد » (٢١٧)

أمثلة من علم المعانى

١ — القصر ، أمثلة له :

فى قوله تعالى : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (٢١٨)

فى قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » [٢١٨]

فى قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » [٢١٨]

فى قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » [٢١٩]

آيات أخرى [٢١٩]

٢ — الفصل والوصل ، أمثلة لهما :

فى قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (٢١٩)

فى قوله تعالى : « قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » (٢٢٠)

فى قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون

ملعيب ويقيمون الصلاة ... ومنو ... ويتيك ...»
(٢٢٠)

٣ — التوكيد

فى قوله تعالى : « و ... ... »
(٢٢١)

٤ — التقديم والتأخير ، أمثلة :

فى قوله تعالى : « قل أغير الله أتخذ ولياً (٢٢١)

فى قوله تعالى : « أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون » (٢٢٢)

فى قوله تعالى « ... الكتاب لا ريب فيه » (٢٢٣)

فى قوله تعالى : « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » (٢٢٢)

٥ — الحذف :

فى قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » (٢٢٣)

فى قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى » (٢٢٣)

٦ — الالتفات ، هو فى رأيه من علم البيان وفى رأى السكاكى من علم المعانى .

فى قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » (٢٢٣)

ذكر السكاكى بالزمخشرى

٧ — التعبير بالمضارع عن الماضى

فى قوله تعالى : « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت » (٢٢٥)

٨ — التعبير بالماضى عن المستقبل .

فى قوله تعالى : « أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه » (٢٢٦)

فى قوله تعالى : « ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله » (١٢٦)

٩ — أحادية الاسمية والجملة الفعلية ، دلالة كل منهما

فى قوله تعالى : « واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً » (٢٢٧)

فى قوله تعالى : « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم » (٢٢٧)

أمثلة من علم البديع

١ — الجناس :

فى قوله تعالى : « وجئتك من سبأ بنبأ يقين » (٢٢٨)

فى قوله تعالى : « ... يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » (٢٢٨)

٢ — الطباق :

فى قوله تعالى : « ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » (٢٢٨)

٣ — تأكيد المدح بما يشبه الذم :

فى قوله تعالى : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (٢٢٩)

٤ — اللف والنشر ، معناه .

فى قوله تعالى : « شهرُ رمضانَ الذى أنزل فيه القرآن ... » (٢٢٩)

٥ — المشاكلة ، معناها .

فى قوله تعالى : « إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها »
(٢٣٠)

فى قوله تعالى « تعلمُ ما فى نفسى ولا أعلمُ ما فى نفسك » (٢٣٠)

ثامنا — تعليل وتمحيص

١ — مقدرته على التعليل والتمحيص . أمثلة لتعليله :

فى قوله تعالى : « كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رُزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها . . » (٢٣٢)

فى قوله تعالى : «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام» (٢٣٣)

فى قوله تعالى : « يذكر مثل حظ الأنثيين » (٢٣٣)

فى قوله تعالى : « ولا تستو الميت معكوس من دون الله فسوء تعبيرعلم » (٢٣٤)

٢ — أمثلة من تمحيصه .

نفيه رؤية الجن (٢٣٥) نفيه الحسد بمعنى التأثير الفعال (٢٣٥)

سخريته مما ذكره بعض مؤرخيه من هم يوسف عليه السلام بالمعصية (٢٣٦)

تشهيده بما ذكروه عن عشق داود عليه السلام بامرأة (٢٣٨)

تعليقه الساخر على أن صراخ الطفل المولود مسه من الشيطان له (٢٣٩)

٣ — أمثلة من متابعته لأغلاط سابقيه :

فى قوله تعالى : « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً » (٢٣٩)

فى قوله تعالى : « وقال فرعونُ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى . . . » (٢٤٠)

فى قوله تعالى: « أو كصيب من السماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ » (٢٤٠)

فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول . . » (٢٤٠)

قيمة الكشاف وأثره

موسوعية لعلوم شتى (٢٤٢) إعجاب الزمخشرى به (٢٤٢) ثناء ابن خلدون عليه (٢٤٣) ثناء يحيى العلوى (٢٤٣) اختصار البيضاوى والسبكى له (٢٤٤) تعقيب كثير من تعقباته (٢٤٤)

القيّض لشرحه ٢٤٥ — ٢٦٧

فى عشرة أبحاث

(١) أساس البلاغة

طريقة تدوين المعاجم (٢٤٥) طريقة الزمخشرى (٢٤٦) معجماته (٢٤٦) معانى حسية ومجازية للكلمات (٢٤٦) دقة التصاريف والمشتقات والجموع والمؤنثات ومعانيها مرتباً بعضها على بعض (٢٤٨) وضعها فى عبارات أدبية (٢٤٨) بعض عبارات من كلامه (٢٤٨) أمثلة (٢٤٨) إغفاله بعض المواد (٢٥٢) قيمته وأثره (٢٥٢)

(٢) المستقصى فى أمثال العرب

طريقته فى ترتيبه (٢٥٤) موازنة بينه وبين مجمع الأمثال الميدانى (٢٥٥) تشابه منهجهما (٢٥٦)

(٣) الفائق فى غريب الحديث

موضوعه ومنهجه فى غريب الحديث (٢٦٠)

طريقته المعجمية فى الفائق (٢٦١) تشابه منهجه (٢٦٢)

(٤) أعجب العجب فى شرح لامية العرب

سبب تأليفه (٢٦٤) سلاسة القصيدة شرح لاميته (٢٦٤) تصرف

الزمخشرى فى شرحه إلى النحو (٢٦٤) استشهاده بالآيات والشعر (٢٦٤)
عناية المستشرقين باللامية (٢٦٤)

(٥) الجبال والأمكنة والمياه

موضوع الكتاب (٢٦٦) نماذج منه (٢٦٦)

الفصل الثامن ٢٦٨ — ٢٨١

فى شعاب النحو

(١) المفصل

تعريف به (٢٦٨) كثرة شروحه (٢٦٩) شرح ابن يعيش (٢٦٩)

(٢) مقدمة الأدب

أقسام الكتاب (٢٧٠)

(٣) الأنموذج

الفصل التاسع ٢٧٢ — ٢٨٧

فى حديقة الشعر

نثره الفنى (٢٧٢) موضوعاته (٢٧٢) الطابع العام لأسلوبه ، كلفه بالسجع والمحسنات وحل المنظوم والتلاعب بالمصطلحات (٢٧٢) أمثلة (٢٧٣) .

(١) توابع الكلم

موضوعه ، نماذج منه (٢٧٥)

(٢) المقامات

متى ألفها ؟ وأين ؟ (٢٧٦) موضوعها (٢٧٦) شرحه لها (٢٧٧) مثال من شرحه (٢٧٧) نموذج من مقامة العزلة (٢٧٨) نموذج من مقامة النحو (٢٧٩) من مقامة العروض (٢٧٩)

(٣) أطواق الذهب

موضوعه (٢٨٠) نماذج منه (٢٨١)

(٤) النصائح الصغار والبوالغ الكبار

موضوعه (٢٨٢) نماذج منه (٢٨٢)

(٥) ربيع الأبرار

متى ألفه ؟ (٢٨٣) موضوعه (٢٨٣) طريقته (٢٨٤)

نماذج منه (٢٨٤)

الفصل العاشر ٢٨٨ — ٢٩٦

فى روضة الشعر

ديوانه المخطوط (٢٨٨) موضوعاته (٢٨٨) خصائص شعره (٢٨٩) : تنوع عواطفه فى الأعم الأغلب (٢٨٩) رصانة أسلوبه (٢٨٩) بدء بعض المدائح بغزل تمهيدى لاحرارة فيه (٢٨٩) بدء بعضها بالشكوى والسخط والفخر (٢٩٠) حسن التخلص من التمهيد إلى المدح (٢٩٢) العناية بالمحسنات (٢٩٣) تخلصه من المحسنات حين يعبر عن عاطفة قوية (٢٩٤) المبالغة فى بعض شعره (٢٩٥) حكمه (٢٩٥) .

خاتمة المطاف ٢٩٧ — ٢٩٩

المراجع ٣٠٠ — ٣٠٦

كتب المؤلف

١ — وحي القسيب في شعر شوقي :

دراسة لغزل شوقي من حيث بواعثه وخصائصه

٢ — وطنية شوقي :

دراسة مفصلة للوطنية في شعره ، ومظاهرها المختلفة ، معتمدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقي وموازنات بينه وبين غيره من شعراء العصر الحديث ، وتوضيح لموقفه من الخلافة الإسلامية وأنه لا يتعارض مع وطنيته

٣ — الإسلام في شعر شوقي :

دراسة لتدينه ومظاهره في شعره من إيمانه بالله ، ومدائحه للنبي ، وإشادته بخصائص الإسلام ، ودفاعه عنه ، ودراسة فنية لهذا الشعر الديني .

٤ — الفكاهة في الأدب :

يتناول الفكاهة وأصولها وتقسيمها إلى أنواع طبقا للبواعث النفسية ، ويعرض في تفصيل لدلالات الفكاهة الاجتماعية والسياسية واللغوية .

٥ — البطولة والأبطال :

يعرض للبطولة وأسسها وأنواعها ، ولصور من أبطال العرب في الجاهلية والإسلام ، وبعض أبطال مصر الحديثة ، مع التحليل .

٦ — أبو حيان التوحيدي .

دراسة لعصره السياسي والعلمي والأدبي ، وعرض لحياته ، وثقافته وصلاته بوزراء عصره ، وتحليل لشخصيته ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازنات بينه وبين معاصريه ، وبينه وبين الجاحظ .

٧ — سماحة الإسلام :

تحليل منصف لسماحة الإسلام في نواح شتى في السلم والحرب ، معتمد على التشريع والنصوص والتطبيق ، مع موازنات بين الإسلام وغيره من الأديان والشرائع والقوانين والفلسفات .

٨ — أدب السياسة في العصر الأموي :

يتناول الأحزاب السياسية ونشأتها ومذاهبها ، ويعرض نماذج من أدبها شعرا وخطابة وحوارا وكتابة ، مع تحليل لهذا الأدب ، ودراسة لخصائصه ، وموازنات بين بعضه وبعض . ويعرض للعصبية القبلية والجنسية وآثارها في الشعر والسياسة .

وبه ترجمة لبعض الأدباء الساسة .

٩ — سوسن :

قصة مصرية سامية الغرض ، نبيلة الغرض .

١٠ — مع ابن خلدون :

عرض لآرائه في التربية وعلم الاجتماع التي لم يعرض لها الدارسون من قبل ، ودراسة لأدبه من نثر وشعر .

١١ — الغزل في العصر الجاهلي :

دراسة للغزل في الجاهلية من حيث أصوله ، وبواعثه ، وأنواعه ، ونشأة كل منها وعلاقته بالبيئة ، مع موازنة بين الغزل في الجاهلية والإسلام

نال به المؤلف درجة الماجستير من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى .

١٢ — المرأة في الشعر الجاهلي :

دراسة مفصلة للمرأة في العصر الجاهلي من الشعر ، من حيث مكانتها في الأسرة والقبيلة والمجتمع ، أما وزوجة وبنتا وأختا وقريبة . ودراسة للمرأة في

الحياة العامة فى السلم والحرب ، وثقافتها وصناعتها . ودراسة للمرأة فى الحياة الفنية ، من حيث أثرها فى الغناء ، ومن حيث روايتها للشعر ، ونقدها له ، ولشاعريتها وأنواع شعرها وخصائصه، مع موازنات بينها وبين النساء المعاصرات لها فى العالم القديم .

نال به المؤلف درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز .

١٣ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى

بحوث تمهيدية ، وتوثيق للشعر الجاهلى ، ودراسة له من حيث تصويره لألوان الحياة الاجتماعية والدينية وللعادات والمعتقدات ، ولصلات العرب بغيرهم من الأمم .

١٤ — أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى

عرض وتحليل لصور الطبيعة فى الشعر الجاهلى من حيوان ونبات وجماد وظواهر فى الأرض والجو ، واستنباط الخصائص العامة فى تناول الشعراء للطبيعة، ودراسة لأصداء البيئة فى موضوعات الشعر وأخيلة الشعراء وفهمهم .

١٥ — تيارات أدبية بين العرب والفرس :

يتناول صلات العرب والفرس فى الجاهلية والإسلام ، وأثرها فى كل من الشعبين فى العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب . . الخ .

١٦ — المثل السائر لابن الأثير :

تقديم وتحقيق وتعليق

١٧ — الطبرى

دراسة لعصره ، وبيئته ، وحياته ، ومصادر ثقافته وألوانها ، وعرض لتلاميذه ، ولمؤلفاته ، ودراسة لشخصيته ، ولمناهجه فى التفسير والتاريخ والفقه .

١٨ — فن الخطابة :

دراسة للخطيب ، وعدته ، وصفاته ، وعوامل نجاحه ، ودراسة للخطابة ، وأنواعها ، وأصولها ، وأساليبها ، وتصور الأمم لها ، وتعقيب بدراسة مفصلة للخطابة السياسية فى العصر الأموى .

١٩ — بطولة وبطل :

دراسة للبطولة ، وتحليل لبطولة الرئيس جمال عبد الناصر من خلال حياته وأعماله وأقواله .

٢٠ — الجاحظ :

دراسة لعصره ، وحياته ، ومعالم شخصيته ، ومؤلفاته ، وخصائصه الفنية ، مع تحليل بعض كتبه .

٢١ — تحت راية الإسلام :

بحوث شتى فى الدفاع عن الإسلام ، وفى الكشف عن ألوان من الثقافة الإسلامية .

٢٢ — القومية العربية فى الشعر الحديث :

دراسة لدعائم القومية العربية فى تفصيل ، وعرض للشعر الذى أثر فيها وتأثر بها من الخليج إلى المحيط ، ودراسة فنية لهذا الشعر ، وتوضيح لجهود مصر قديما وحديثا فى مجال القومية العربية .

٢٣ — الزمخشرى :

دراسة لعصره ، وحياته ، وأساتذته ، وتلاميذه ومؤلفاته ، ومنهجه فى التفسير ، وما تضمنه من تأييد لمذهب المعتزلة ، وما اشتمل عليه من آراء فقهية ونحوية وبلاغية الخ . ودراسة لجهود الزمخشرى فى ميادين اللغة وغيرها ، وتحليل لنثره وشعره .

٥٧٩١م

جامعة القاهرة - كلية دار العلوم
المكتبة
رقم الكتاب: ٦٧٧٦